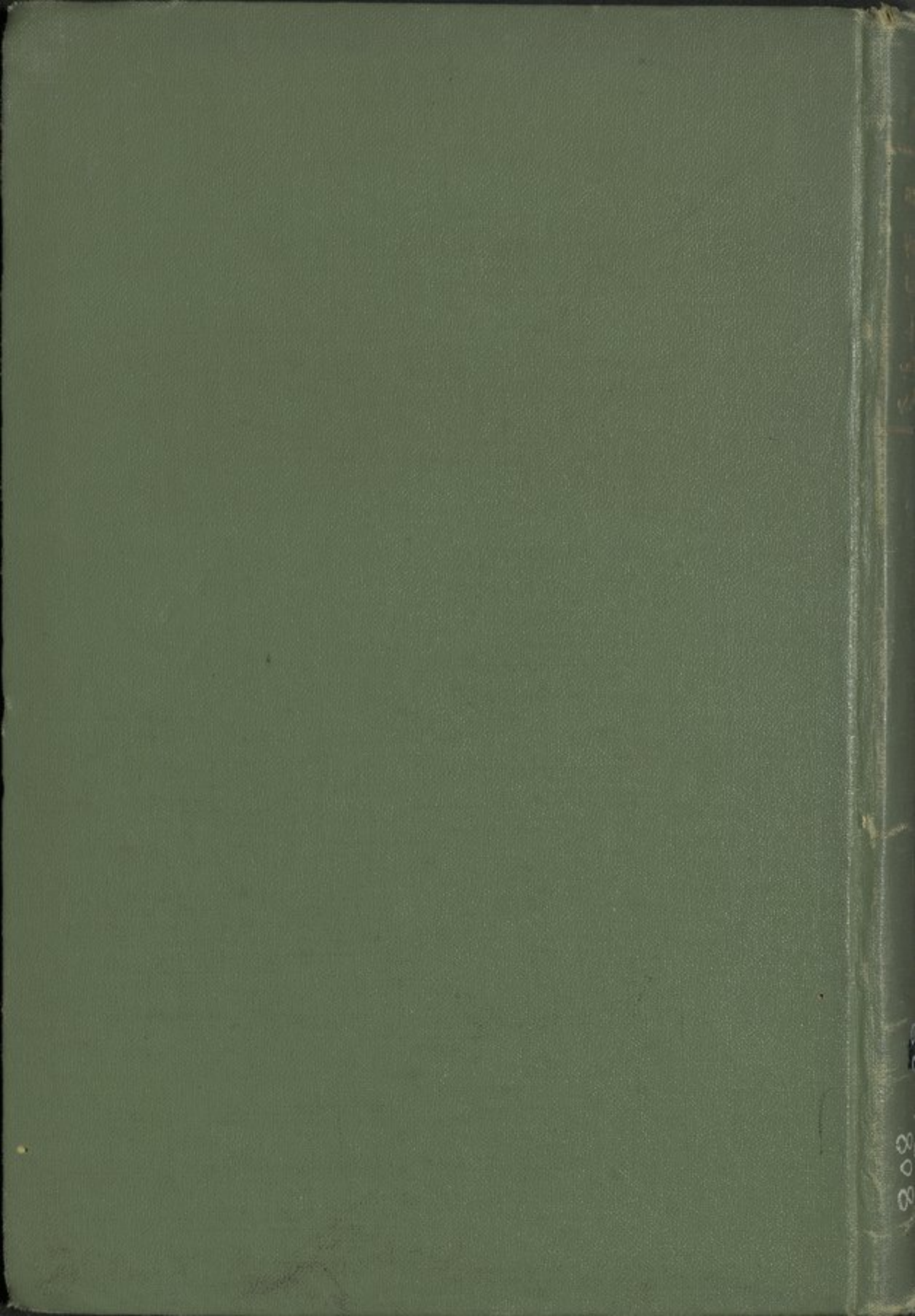




808

نصار، حسين •

• مهارة الكتابة الفنية في الأدب العربي •

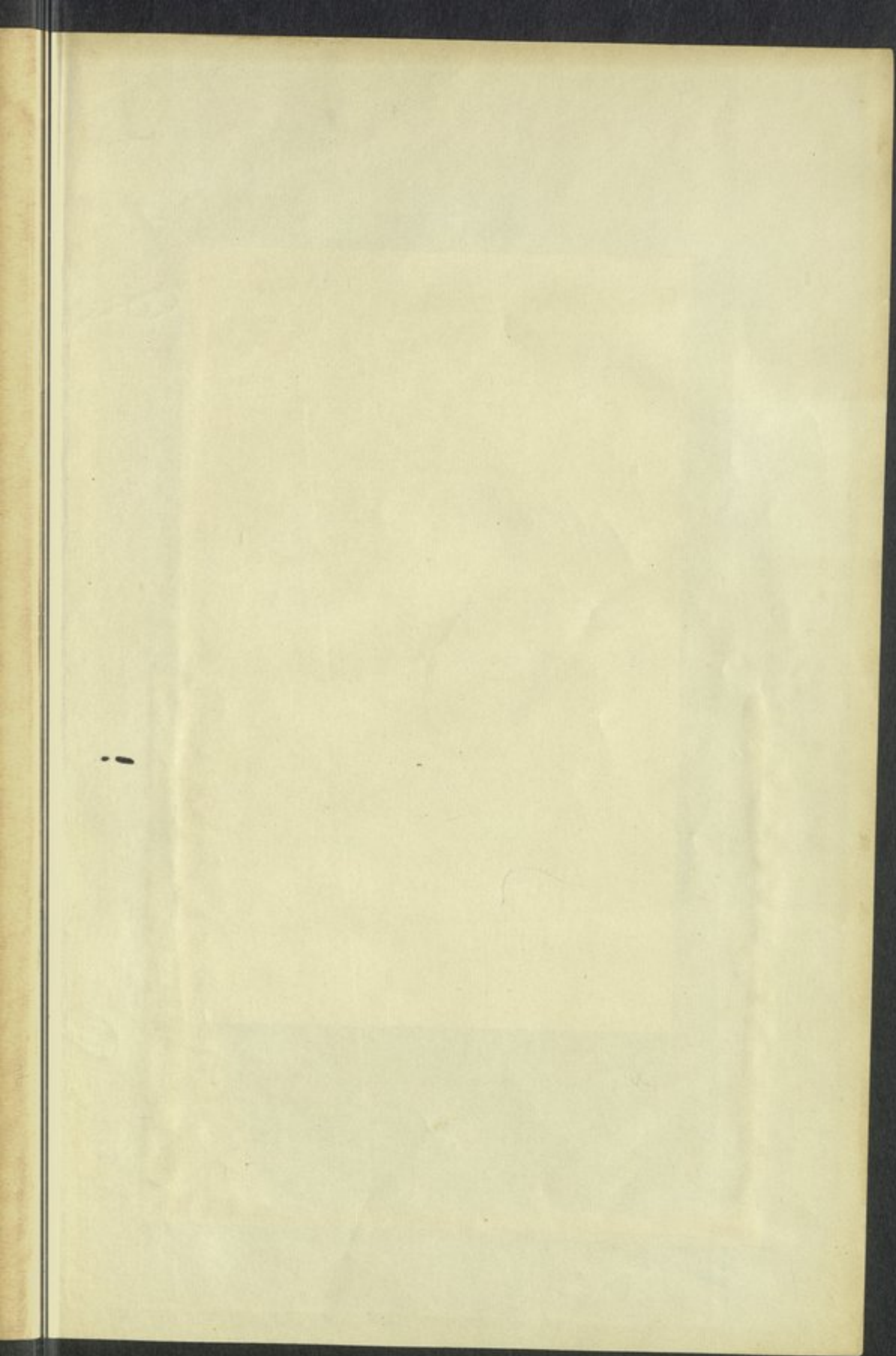
808

تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧



Y. Y. 11b.

324



808
N26n2A

شأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى

تأليف

دكتور حسين نصار

كلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٤

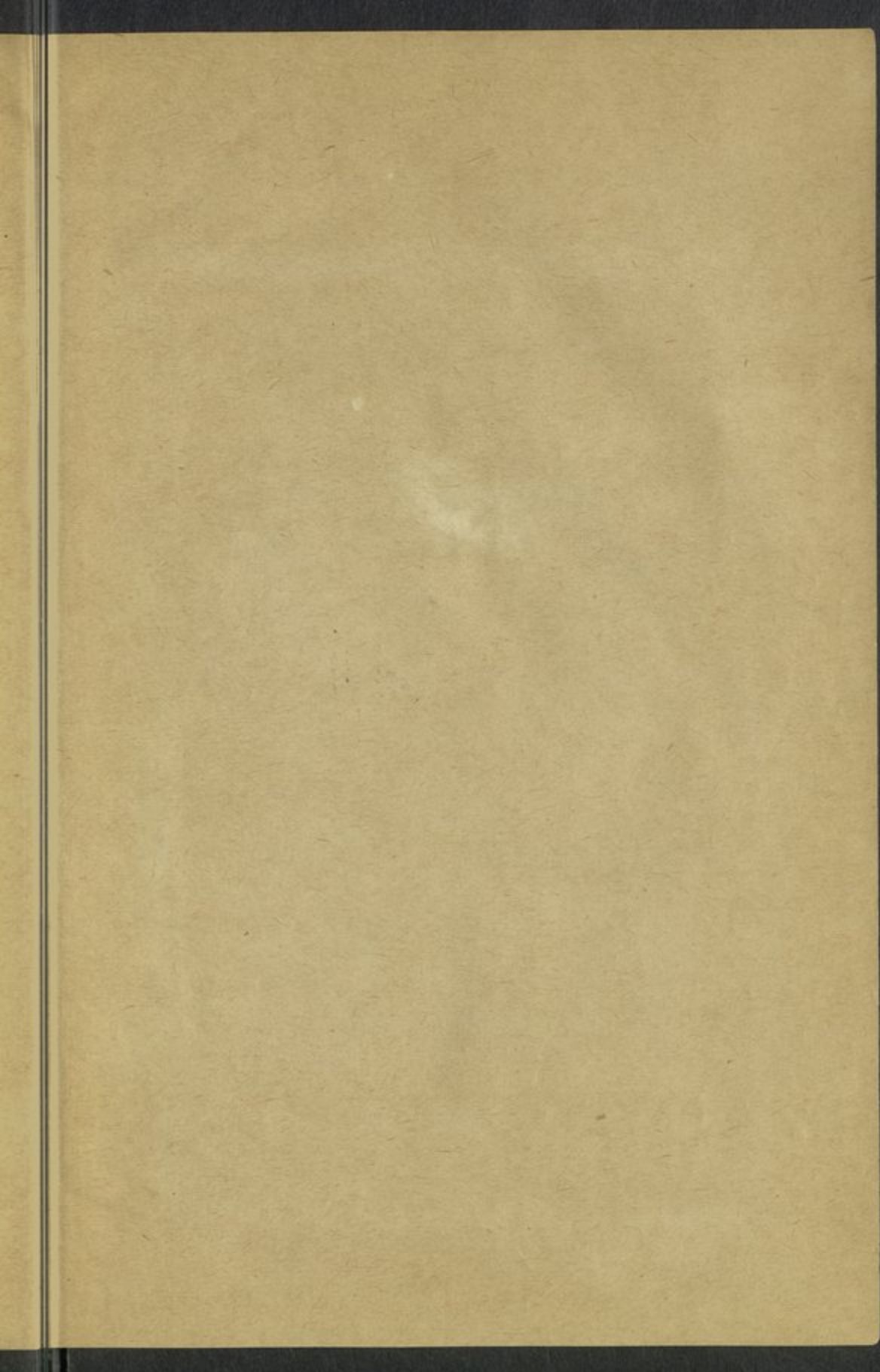
ملزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع مدبى، القاهرة



إلى أمي



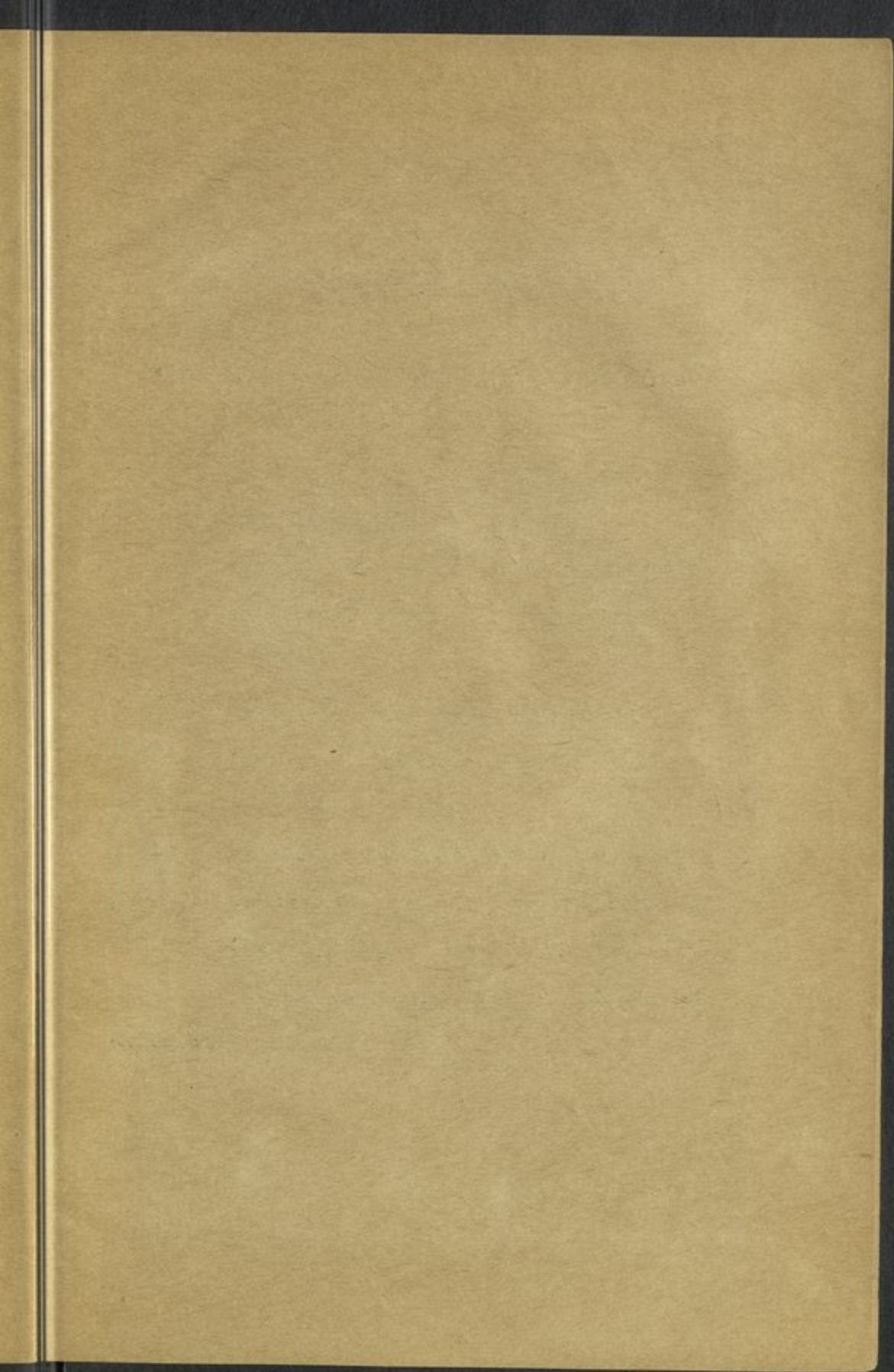
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المعطى الوهاب ، بَسَّرَ لى العمل فى هذا الكتاب ، حين كان رسالة ،
أريد أن أقدمها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، لأنال درجة الماجستير ؛ ووهبى
أطيب الثمر بعد أن نوقشت فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عام
١٩٤٩ ؛ ووهبها اليوم الحياة فى عالم النور كتابا سويا .

وهى بصورتها الحالية لآتختلف عن صورتها الماضية ، وهى رسالة ، لإقليلا
جدا . فقد حرصت على الصورة القديمة ، وعلى النتائج الماضية ، فلم أدخل عليها غير
تغييرات طفيفة لاتسكاد تذكر .

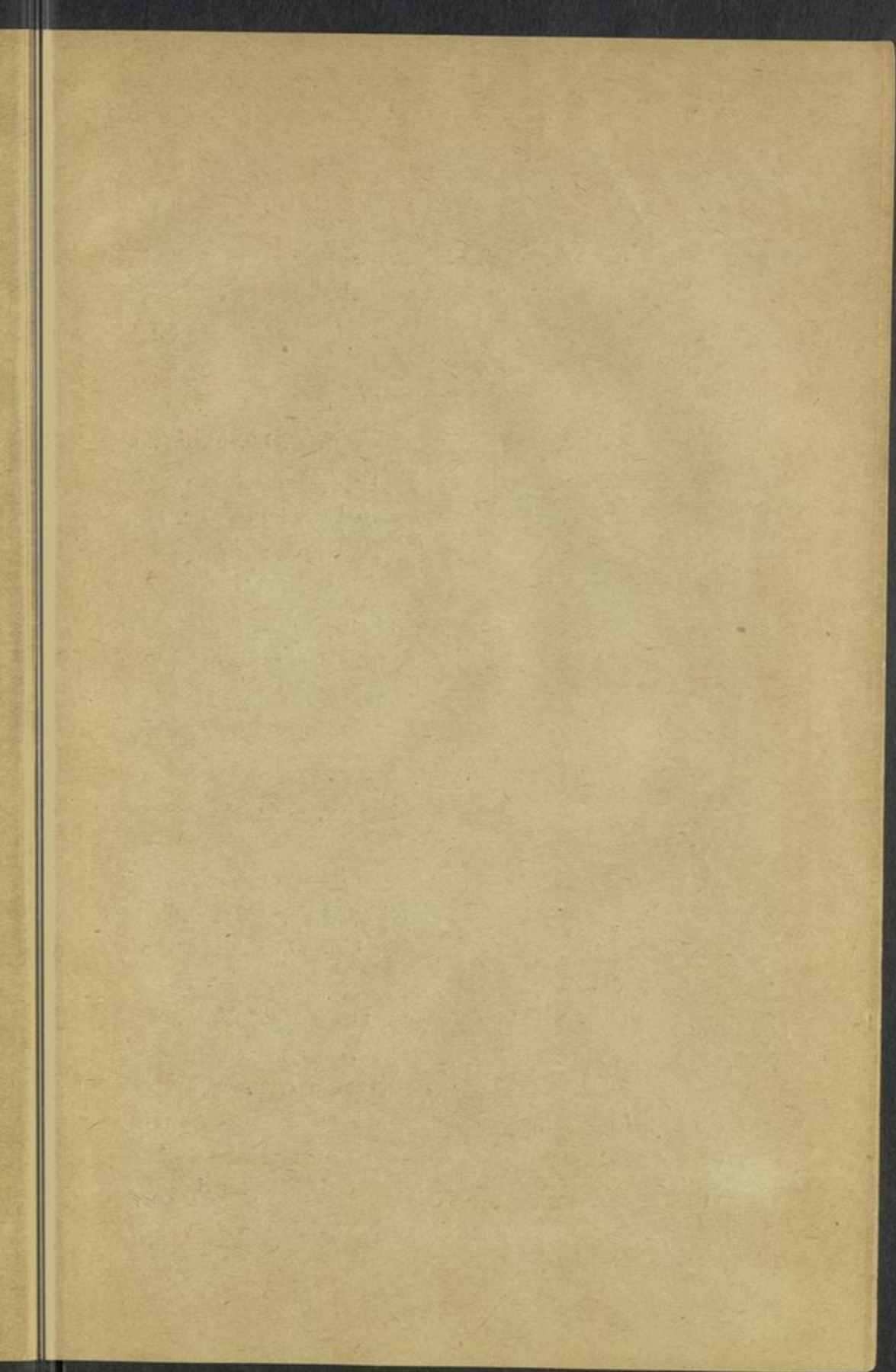
وإنى إذ أقدمها إلى المكتبة العربية ، أرجو أن تكون لبنة فى صرح البعث
العربى الجديد ، والنهضة المصرية الحديثة ، وأن تمد دارسى الأدب العربى ببعض
النقط التى تصلح مرا كز للبحث فى المستقبل .

وقد أشرف على « تكوين » هذه الرسالة ، ورعاها فى صفرها ، حتى صارت
إلى ما صارت عليه ، أستاذى « مصطفى السقا » الأستاذ بكلية الآداب بجامعة
القاهرة ، فله أوجه أجمل الشكر وأخلصه : وجدير بالشكر أيضاً أصحاب مكتبة
النهضة المصرية ، الذين بعثوا هذه الرسالة من موتها المخطوط ، ونشروها فى خلق
جديد مطبوع ؟



محتويات الكتاب

٥	تصدير
ز	المحتويات
١	تمهيد
٧	الجزء الأول : كتابة الرسائل :
٩	الباب الأول : الرسائل السياسية :
٩	الفصل الأول : العصر الجاهلي
٢٩	الفصل الثاني : صدر الإسلام
٦١	الفصل الثالث : عهد الأمويين
٧٨	الباب الثاني : الرسائل الإخوانية :
٧٨	الفصل الأول : صدر الإسلام
٨٦	الفصل الثاني : العصر الأموي
٩٧	الباب الثالث : الرسائل الدينية :
٩٧	الفصل الأول : الرسائل الوعظية
١١٢	الفصل الثاني : الرسائل الجدلية
١٢٠	الباب الرابع : الكتاب :
١٢٠	الفصل الأول : حلقة سالم
١٢٦	الفصل الثاني : عبد الحميد بن يحيى
١٦٩	الجزء الثاني : الكتابة التاريخية :
١٧٠	تعريف
١٧٢	الفصل الأول : ظهور الكتابة التاريخية
١٧٨	الفصل الثاني : المؤرخون وكتبهم
٢٣٢	الفصل الثالث : مظاهر الكتابة التاريخية
٢٣٩	خاتمة
٢٤٣	المراجع
٢٤٦	فهرس الأشخاص



مخبر

ظلّ النقاد والأدباء العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم يوجهون جُلَّ عنايتهم ، إن لم يكن كلها ، إلى الشعر وحده ، مما جعل النثر غريبا على الكثير منا ، لا يستطيع أن يتصوره التصور الصحيح ، أو المقارب للصحة . وكان من جرّاء ذلك ضياع كثير من النثر الذي لعله كان يفيدنا ويفيدهم ، لافي تصور الحركة النثرية وخذّها ، بل الحركة الشعرية أيضا ، حتى إننا لا نجد لدينا من كثير من كبار الكتاب الذين كانت لهم المجلدات من الرسائل غير الرسالة أو الرسائل أو أكثر من ذلك قليلا ، مثل سالم وعبد الحميد وابن العميد وغيرهم .

كان هذا الصنيع منهم ، مما شجّعني على اختيار هذا الموضوع والتمسك به ، ومحاولة التغلب على العقبات التي تعترض الطريق أمام الباحث في أمور تركها القدماء ، ولم يرندّها إلا قليل من المحدثين .

ولما وقع العزم على اختيار النثر مادة للبحث ، كرهت أن أتعرض لموضوع طويل عريض ، لا يحتاج من الباحث إلا لمجرد العرض ، دون تعمق ، أو نفاذ إلى بواطن الأمور . ولذلك أردت أن أضع نُصْبَ عينيّ مشكلة من مشاكل ذلك النثر العربي الكثيرة ، فأحاول إلقاء بعض الأضواء عليها ، ليقترّب الباحثون من حلّها ، إن لم أوفق في الوصول إلى ذلك الحلّ بنفسى . ومن الطبيعيّ أنه ظهر لي أن أولى المشكلات في تاريخ النثر هي نشأة النثر الفنيّ جملة . ولسكني أردت أن أجعل المسألة أكثر تحمّداً أمامى ، فقصرت بحثي على « نشأة الكتابة الفنية » . وساعد هذا التحدد على تضيق ميدان البحث ، مما يعاون على سعته ، والدقة فيه ، والإمعان .

وليس العنوان بغريب على الباحثين ، ولكنى أحب أن أُلقي عليه بعض
الأضواء ، لتظهر الوجهة التى أنظر إليه منها . أما نشأة الكتابة ، فقد عُنيت بها
ظهور الآثار الثَّغْرِية المدونة وتدرُّجها حتى استكمال خصائصها فى الصدر الأول
من تاريخها . فوصلت بها إلى عبد الحميد الكاتب ، معتبرا العصر الإسلامى
والأموى عصر نشأة الكتابة الفنِّية . ولا يدخل فى رسالتى هذه أنواع من النثر
العربى ، وجدت فى هذا العصر ، وقبله ، مثل الخطب والأمثال والحوار
وما إليها ، لأنها ليست من الآثار الكتابية . ويجب ألا يغيب عن الذهن أى
أتكلم عن عصر نشأة الكتابة ، ولذلك لا تعينى فروع الكتابة الفنية التى
ظهرت بعد هذا العصر ، مثل كتابة الكتب الأدبية والمقامات والمقالات الصحفية
وما مائلها ، كقولنا ظهور الإنسان على وجه الأرض ، فإن ذلك لا يعنى أن تتناول
ظهور جميع الأجناس البشرية ، وإنما ظهور الخليقة بصفة عامة . كذلك لا تعينى
الكتابة الفنية التى نشأت فى الولايات الإسلامية المختلفة بعد هذا العصر ، عند
نضج الآداب الإقليمية ، وتخصُّصها بمزاياها وظواهرها . وإنما يعينى ما نشأ من
الكتابة الفنية فى هذا العصر الذى تعالجه رسالتى ؛ سواء أكانت هذه الكتابة
فى الجزيرة العربية ، أم فى العراق ، أم فى فارس ، أم فى مصر ، أم فى الشام ،
أم فى المغرب . ولم أخصص لكل إقليم من هذه الأقاليم دراسته الخاصة ، لأن
الأقاليم - مع إيماننا بنظرية البيئة - لم تكن قد تميزت بعد فى أدبها العربى ،
أو بالأحرى لم تكن وجوه الاختلاف بينها قد ظهرت بشكل واضح ، فكتابتها
نازحون إليها مع ولانها من عاصمة الخلافة ، والأحداث مشتركة بين جميع
الإمارات والعاصمة أو متجاوبة الآثار فى غالب الأحيان .

وأما اللفظ الثانى ، وهو « الفن » ، فأصعبها فى التحديد . فقد اختلف

النقاد والأدباء والفلاسفة منذ قديم الزمن إلى اليوم ، في تحديد هذا اللفظ ، وما استراحوا إلى تعريف بعينه . ولكنى لن ألقى بالا إلى كل هذا الخلاف ، وأقصد تَوْءَ إلى ما أردته منه . فأما ما أردته أنا بعبارة « الكتابة الفنية » فهي الكتابة التي لا تصدر عن السليقة ، لا يقصد فيها صاحبها إلا مجرد الإفهام ، وإنما أردت الكتابة التي تَرْوَى صاحبها في تجويد المعنى ، وتأنى في اختيار اللفظ قبل إرازها ، لتخرج مُخْبَرَةً مُجَوِّدَةً ، لأنه لا يقصد منها الإفهام وحده ، وإنما يقصد أيضا إثارة اللذة عند القارئ . والإحساس بالجمال . ولذلك نعتُ كتابات العرب الجاهليين ، وكتابات الرسول والصحابة ، بأنها غير فنيّة ، على الرغم من فصاحتها وجمالها . فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده ، وإنما أقصد الجمال الذى استحدثه صانعُ فنّان ، يعرف ما يعمل ، ويريده ويبعث عنه . وإذن فأنا أقصد من هذه الرسالة نشأة الكتابة التي كان يريد كتابها إحداث اللذة الفنية في القارئ ، بما يسبقون عليها من خصائص ، ثمرة لتروّيهم وتحبيرهم ، ولم أقصد الكتابة البسيطة الصريحة ، التي تبغى مجرد نقل ما تحوى من أفكار ، ولو بلغت هذه الكتابة درجة الجمال والأناقة . وأحب أن أقول إن الأنفة في الكتابة لا تستلزم الصنعة ، وإنما قد يخرج القول المرتجل التلقائى جميلا أنيقا دون تروّ أو تعمل ، مثله في ذلك مثل الحسنة ، يغنيها جمالها عن الحلى والزينة . أما الكتابة الفنية التي أقصدها فهي مثل الحسناء التي تشعر بهذا الحسن ، وتحب أن تلفت إليه الأنظار ، فتبرز أجمل مواطنه ، وتعالج نقائصه .

وقد تكلم قبلى بعض الأدباء عن الكتابة أو النشر الفنى ، وما يحوى من فروع ، ولكنى تناولت في هذه الرسالة كتابة الرسائل ، وكتابة التاريخ . أما كتابة الرسائل فلا يعارض أحد في أنها من الكتابة الفنية ؛ ولكن قد يعترض بعض

الناس على كتابة التاريخ . وإلى المعارضين أشير بالرجوع إلى كتاب « علم التاريخ » ترجمة الدكتور العبادى بك ، وإلى المقال الأول ، فى العدد الأول ، من مجلة تاريخ العالم ، التى تصدرها مكتبة النهضة المصرية فى هذه الأيام ^(١) . فهناك نقاش طويل عن الكتابة التاريخية ومكانها بين العلم والفن ، وقد افترق فيها المفكرون من الناس شيعتين ، ذهب الأولى منهما إلى أن التاريخ علم ، ويمثلها قول لدكتور « بيورى J. B. Bury » : « التاريخ علم لا أكثر ولا أقل » . ويستند هذا الفريق إلى تعريف العلم بأنه « المعرفة المنظمة ، المبوبة ، المقتنة » ؛ فيدخلون التاريخ فيها . وذهب الفريق الثانى إلى أن التاريخ فن . فالعلم بالغاما بلغ ، لا يعطينا من التاريخ إلا العظام المعروفة اليابسة ، ولا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام ، وبعث الحياة فيها . فإذا ما أحيها الخيال ، فهى بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب النحرير ، حتى تبرز فى الثوب اللائق بها ، وتعرض بحيث تصبح قوة فعالة فى عالمنا هذا . أما ما يتصف به رجل العلم من حياد جافة ، فلا محل له ، ولا يمكن أن يطاق فى مقام المؤرخ الذى يعنى بشئون النفوس الحساسة ، ويبلغ الأمر بالاستأاذ « ترفليان » إلى أن يقول : « من كان فاقد الانفعال والحاسة ، فقلما يؤمن بانفعالات غيره ، ثم هو لا يمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبدا » . وربما كان التعريف القائل بأن « التاريخ هو التدوين القصصى لجرى شئون العالم كله أو بعضه » خيرا ما يغير لنا الطريق إلى تصور التاريخ . فهو تعريف صحيح ، ويشير صراحة إلى أن التاريخ من الفن القصصى ، أحد فروع الكتابة الفنية . أضف إلى ذلك أن التاريخ و نشأته لم يكن علما خالصا فى أية أمة من الأمم ، وإنما كان قصصا تحوطها المبالغة والخرافات ، فهو أقرب إلى الأدب منه إلى أى شىء آخر .

(١) أى عام ١٩٤٩ ، حين قدمت هذه الرسالة للمناقشة .

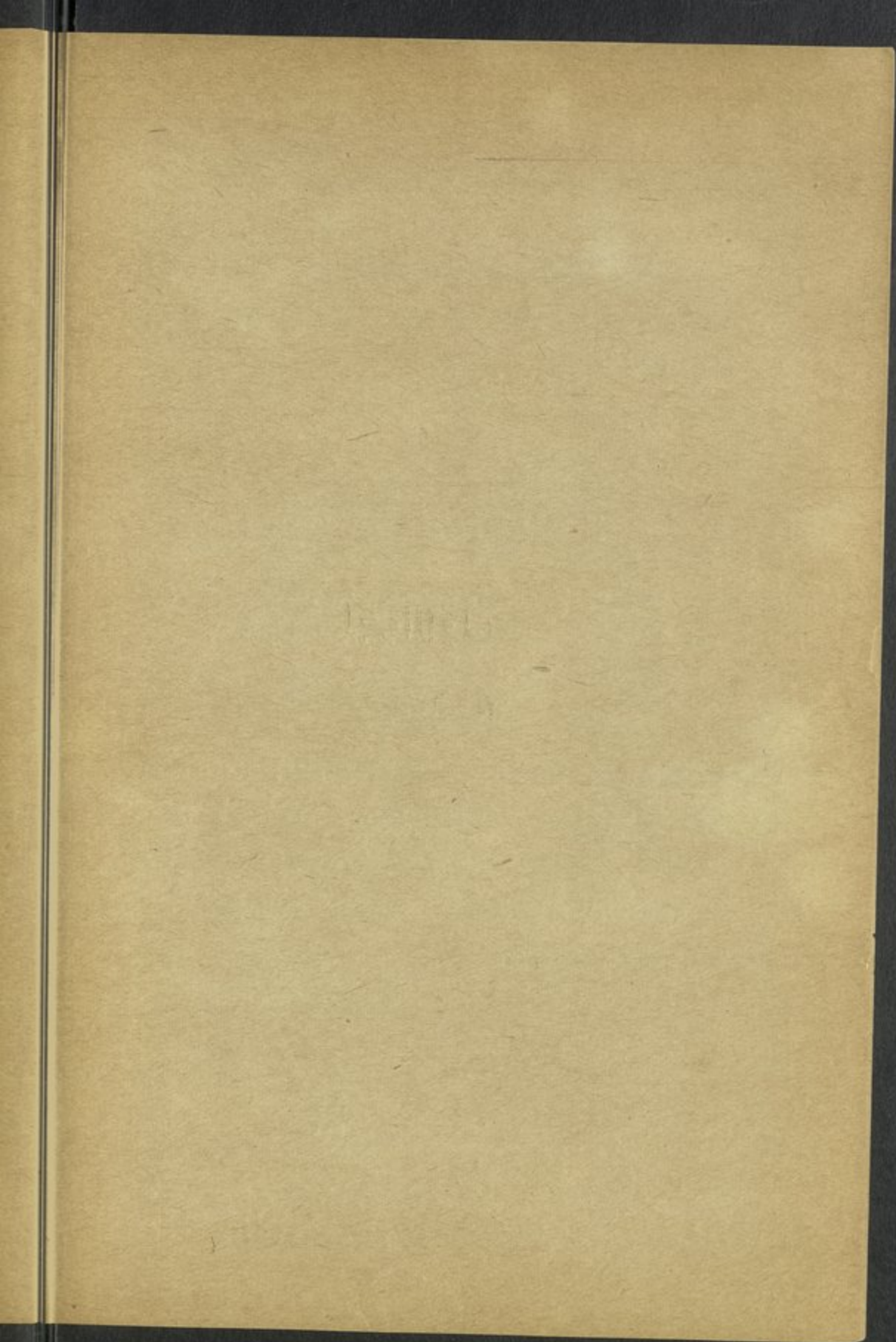
وقد حاولت أن أُلِمَّ إلى المسألة مُوجَّزة شاملة بنشأة هذا النوع من الكتابة عند العرب . ولكنني مع ذلك لم أرني محتاجا إلى تتبع جميع التأليف التي ظهرت فيه ، إذ هناك بعض المؤلفات التي وجدت ولكن لم نعتز إلا على أسمائها ، مثل كتاب « المثالب » لزياد بن أبيه ، وكتاب « نسب الأنصار » لعبد الله بن محمد ابن عمارة الأنصاري ، وهناك - في غالب الظن - كتب وجدت وضاعت ولم تصل إلينا أسماؤها . ورأيت أنه يكفي التعرض للنصوص الموجودة ، وبحوثها ، ومحاولة تعرف خصائصها ، لبيان حركة التطور عامة . أما تلك الكتابات الضائعة فلا حيلة لنا فيها ، ولا نحب الوقوف للتأسف عليها .

وأحببت في رسالتي هذه أن أوثر الحياء المطلق ، وأن أصل إلى الحقيقة العارية والحقيقة وحدها . ولذلك أخليت ذهني - قبل الشروع في البحث - من جميع معارف السابقة عن الكتابة العربية ، وحاولت جُهدى ألا أتحيز لفكرة سابقة ، أو رأي لكتاب آخر . ثم واجهت النصوص الكتابية مباشرة دون التجاء إلى الذين كتبوا عنها شارحين أو محللين أو ناقدين ، كي أجعل هذه النصوص نفسها هي التي تُوحى إليَّ بما أكتبه ، ولا أجعل أحدا واسطة بيني وبينها ، أو بالأحرى متاراً بيني وبينها ، قد يحجب فيما يحجب الحقائق الناصعة ، أو يلونها بما يحب من أطياف . ولكنني كنت بعد أن أستوحىها كل ما يمكنني استيعاؤه منها ، أرجع إلى أكبر قدر ممكن من هؤلاء الشراح والمحللين ، والنقاد والمؤرخين ، لأستمع بهم على إيضاح بعض النقط ، أو معرفة ما لعله غاب عني . وهكذا أظنني على حق حين أقول إن هذه الرسالة ثمرة جهدى الخاص ، وأنها حاولت جُهداً ألا تتأثر بأحد من الأدباء ، وأن تصور الكتابة العربية الفنية في نشأتها صورة صادقة كل الصدق ، واضحة تمام الوضوح .

ورأيت أن الصورة تبرز وتتضح إذا ما قسمت الرسالة حسب الموضوعات لا حسب الأزمان . ولذلك خصصت أبواباً مستقلة للرسائل السياسية والدينية والإخوانية ، وراعت التقسيم الزمني في داخل هذه الأبواب ، حتى يجتمع المنهجان ، وتسلسل الموضوعات دون أن تفصل بينها الفواصل الغريبة عنها ، وإن اتصلت بها بعض الاتصال . وإن يضر ذلك التقسيم بالتطور التاريخي للكتابة الفنية عامة . فإننا عند ما نراعى هذا التطور التاريخي لكل فرع على حدة ، يتيسر لنا معرفة نشأة كل فرع من فروع الكتابة الفنية معرفة دقيقة تتبع الظواهر المختلفة التي تشيع في كل فترة من عصر النشأة تتبعاً دقيقاً شاملاً ، ويتيسر لنا معرفة أسبابها ونماتها معرفة واضحة ماثلة . فإذا اجتمعت لدينا هذه الظواهر الخاصة ، أمكن معرفة ماساد منها جميع فروع الكتابة الفنية وبحثها ، فنستنبط التطور التاريخي للكتابة الفنية عامة ، ونصوّر الخواص التي تعاقبت عليها تصوراً بارزاً صحيحاً . أضف إلى ذلك أني اعتبرت العصور الثلاثة الجاهلي والإسلامي والأموي حقبة واحدة ، هي حقبة النشأة ، ولذلك لا يجرى تقسيمها إلى أقسام صغيرة يعنى فيها بجميع أنواع الكتابة فتزدهم بالخصائص ، ويضيع علينا تسلسل التطور في كل فرع منها . هذه هي المشكلة التي رأيت أن أمثلها موضوعاً لرسالتي ؛ وهذا هو المنهج الذي اتبعته في بحثها ، راجياً أن أصل ، بتوفيق من الله ، إلى تقديم الصورة الصادقة الواضحة لنشأة الكتابة الفنية عند العرب .

الجزء الأول

كتابة الرسائل



الباب الأول

الرسائل السياسية

الفصل الأول

العصر الجاهلي

وصف بلاد العرب الطبيعي :

عندما تلقى نظرة شاملة على مُصَوَّر بلاد العرب نرى شبه جزيرة يتسع جنوبا ويضيق شمالا ، ويغلب عليه اللون الأصفر الذي يحكي رمال الصحراء ، وقد نرى اللون الأحمر الداكن الذي يمثل التلال والجبال ، على أننا لانكاد نرى أثرا للون الأخضر الذي اعتاد الجغرافيون أن يمثلوا به الأراضي الخصبة . فبلاد العرب في جملتها إذن صحراء واسعة تتخللها جبال متفرقة كثيرة ، أو سلاسل جبال متصلة أحيانا من الشمال إلى الجنوب . وأقصى ارتفاع في سطح شبه الجزيرة في ناحية اليمن ، ثم تأخذ في الانخفاض شمالا وشرقا حتى تصل إلى سواحل الخليج الفارسي وسواد العراق وبادية الشام ، فلا تظهر غير كثبان من الرمل ، أو مجموعة من الصخور الصلبة في عمان على الخليج الفارسي . وليس في بلاد العرب أنهار دائمة الجريان ، وإنما تمتلئ أوديتها بالمياه في مواسم المطر ، ثم لا تلبث أن تجف بعد ذلك .

هذه نظرة الطائر لشبه الجزيرة عامة ، دون نظر إلى أقسامها السياسية أو الطبيعية المختلفة ، قد تغرينا أن نقول إنها بلاد صحراوية رملية يسكنها بدو رحل لا يعرفون

للاستقرار معنى . ولسكننا إذا ما تأملنا قليلا ، وجدنا ما يخالف ذلك . فبلاد العرب بها أراض غاية فى الخصب تزرع منذ آلاف السنين ، وفيها المدن والقرى الآهلة بالسكان .

ويمتد الخصب عامة على سواحل شبه الجزيرة . وكانوا يزرعون بنجد واليمامة مقادير وفيرة من القمح تسد حاجة العرب ، بل كانتا لا تقلان فى القرنين السادس والسابع الميلاديين عن أرض أوربا المزروعة اليوم ، وربما بذاتها خصبا فى كثير من البقاع ^(١) . وكانت المراعى الغنية تنتشر على الساحل الغربى ، وفى أواسط بلاد العرب فى أرض نجد المشهورة بمراعيها التى تربى فيها الخيول السريعة . ومن أشهر المناطق الخصبة فى بلاد العرب الأحساء ^(٢) ، مثل حِمَى ضَرِيَّة ، وحِمَى الرَّبَذَةِ ، وحِمَى فَيْد ، وحِمَى النَّهْرِ ، تلك المناطق التى بلغ من خصبها ما دفع بعض القبائل القوية إلى التحكم فيها وقصرها على أنفسهم ، ومنع غيرهم منها ، ومن ثَمَّتْ سُمِّيَتْ الأحساء . ويشبه هذه الأحساء فى خصبها أراضى الدهناء ، والمناطق التى تسمى الدارات ، وهى كثيرة منتشرة فى أنحاء الجزيرة ، وقد ذكر منها البكرى وياقوت عددا كبيرا . وكان الحجاز نفسه تتخلله الأودية الخصبة والآكام التى تسكنها القبائل وتقيم حولها القرى والضياع . وكان ينبت بسفوحه بعض الحبوب والثمار حيث توجد العيون والآبار . ولعل ذكر الطائف يغنيننا عن كل كلام ، فهى بستان مكة المشهور بقواكه المتنوعة الجيدة ، ومصيف أثريائها . وكان ينتشر فى المدينة وحولها الأراضى الخصبة التى استغلها اليهود ^(٣) أحسن استغلال حتى أدخلوا فيها وفى

(١) هل : ثقافة العرب ، ص ٢ .

(٢) انظر البكرى : معجم ما استعجم ، مادة ضرية ، وياقوتا : معجم البلدان ، مادة حِمَى لمعرفة مقدار خصب هذه المواضع .

(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، ١٧ .

مستعمراتهم الزراعية في شمال بلاد العرب ؛ خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى ، أدخلوا فيها أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً حديثة للحراثة والزراعة بالآلات ^(١) .
هذه بلاد العرب ليست صحراء مجربة شاملة كما كنا نحسب دائماً ، وإنما هي صحراء تنتشر فيها المناطق الخصبة الزراعية والمراعى ، حيثما توجد الآبار والأمطار ، أو حيثما يتيسر الحصول على الماء .

الاستقرار :

وكما يخطئ من يظن أن بلاد العرب صحراء جرداء ، لا نبات فيها ولا ماء ، يخطئ الذين يظنون أن أهلها بدو رحل ، لا يقرون في مكان ، ولا يتصلون بالأرض التي يسكنونها اتصالاً وثيقاً كأهل البلاد الزراعية ، وإنما يتربصون مواسم الغيث فيخرجون بكل ما لهم من نساء وإبل يتطلبون المرعى ^(٢) .
ونحن لا نستطيع أن نساير هؤلاء الذين يطلقون القول إطلاقاً ، وخاصة بعد أن رأينا بلاد العرب ليست محرومة الماء والخصب ، بل توجد فيها أراض واسعة تشمل واحات ومستعمرات زراعية ومراعى غنية تتربى عليها ماشيتهم التي هي أعظم ثروتهم . فهل كانت الحياة في تلك المناطق الخصبة حياة رحلة وانتقال أو حياة مكث واستقرار ؟

ما أظن أنى في حاجة إلى الكلام عن حياة إمارتى الحيرة وغانم ، وأن أقول إن الحياة فيهما لم تكن حياة بدوية ، عمادها التنقل وطلب السكلا ،

(١) يذكرنا هذا بمعاملة الرسول الخاصة لليهود وادى القرى وخيبر وما جاورها في غزواته لهم بسبب مهارتهم في الزراعة .
(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٤ .

فما يستطيع أن يقول بهذا أحد ، وما أظنني بحاجة إلى الكلام على قرى الحجاز وشمال بلاد العرب ؛ تلك القرى والمدن التي غلبت عليها الزراعة ، بل أدخلت فيها الآلات الزراعية الحديثة - في ذلك الوقت - من الأقطار الأخرى . وما أظنني بحاجة إلى الكلام على مكة ؛ تلك المدينة التي انتقلت إليها ثروات اليمنيين والرومان والهنود والتي انهمرت عليها الأموال ، فما كانت الحياة فيها حياة رحلة وانتقال ، إلا إذا اعتبرنا الرحلات التجارية رحلات بالمعنى الذي يقصده الباحثون حين يطلقون هذا اللفظ على العرب إطلاقاً .

ولسكن ما شأن الحياة في غير هذه المناطق الزراعية والتجارية ؟

كانت المناطق الأخرى تسكنها القبائل الراحية التي تطلب الغيث والكلأ .
ولسكنها لم تكن تطلبهما أني كانا : في شمال شبه الجزيرة ، أو جنوبه ، أو شرقه ، أو غربه ، وإنما كان لكل قبيلة موطن خاص ، أو مجال خاص لا تتعداه هي ، ولا تتعدى عليه القبائل الأخرى إلا نشبت الحروب ، كما يحدث بين الدول حين تعتدى إحداها على الأخرى . والقبيلة في موطنها هذا حرة الحركة والتنقل ، تتبع مساقط المطر ، ومنابت الكلأ في المراع والمصايف ، فهو موطن دائري ، أو موطن أكبر تدور فيه رحلات موسمية ، كأن تغضى القبيلة صيفها في موضع ، وبيعها في موضع . ولسكن هذه المواضع لا تتعدى حدود إقليمها الأكبر . ويظهر هذا في أشعارهم ، وفي قول العلماء أنفسهم إن قبيلة كذا كانت تسكن كذا ، وقبيلة كذا كانت تسكن كذا^(١) . وقد سجل الشاعر الجاهلي الأخنَس بن شهاب التغلبي مواضع القبائل في قصيدة ، يقول فيها^(٢) :

(١) أحمد أمين : بحر الإسلام ، ٨ .

(٢) المفضليات ٢ : ٣ . والأعلام المذكورة في القصيدة أسماء قبائل ومواضع .

لِكُلِّ أَنَسٍ مِنْ مَعْدِي عِمَارَةٌ
لَكَيْزٍ لَهَا الْبَحْرَانِ وَالسَّيْفُ كُلُّهُ
تَطَابَرُ عَنْ أَعْجَازِ حُوشٍ كَأَنَّهَا
وَبَكَرٌ لَهَا ظَهْرُ الْعِرَاقِ وَإِنْ تَشَأْ
وَصَارَتْ تَمِيمٌ بَيْنَ قُفٍّ وَرَمْلَةٍ
وَكَلْبٌ لَهَا خَبْتُ فَرْمَلَةٍ عَالِجٍ
عَرُوضٌ إِلَيْهَا يَلْجَأُونَ وَجَانِبُ
وَإِنْ يَأْتِيهَا بَأْسٌ مِنَ الْهِنْدِ كَارِبُ
جَهَامٌ أَرَاقَ مَاءُهُ فَهُوَ آتِبُ
يَحُلُّ دُوسَهَا مِنَ الْيَمَاعَةِ حَاجِبُ
لَهَا مِنْ جِبَالٍ مُنْتَأَى وَمَذَاهِبُ
إِلَى الْخُرَّةِ الرَّجْلَاءِ حَيْثُ تَحَارِبُ

... القصيدة .

إذن هذه حياة قد نصيب إذا سميناهنا شبه مستقرة ، وقد نخطئ إذا وصفناها
بعدم الاستقرار .

أما الهجرات الكبرى وإغارة القبائل بعضها على بعض فهذا أمر مشاهد
ماموس حتى في البلاد المتحضرة اليوم . فإنه عندما تشتد السنون بالقبيلة أو يشتد
عليها الضغط السياسي أو الاقتصادي من قبائل أو دول أخرى تضطر إلى ترك
موطنها الأصلي ، آسفة غير قالية . ولا يناقض ذلك الاستقرار ، وإنما يجعلنا ننظر
إليه مخففا . ولا أدل على ذلك من اضطراب القبائل اليمنية المتحضرة المترفة لترك
ديارها والهجرة إلى الصحراء شمالا بعد انهيار سد مأرب ، وسقوط الدول اليمنية
المزدهرة ، ومن اضطراب القبائل العراقية إلى ترك موطنها الخصب الغني والهجرة
إلى صحراء العرب ، وإلى اليمن عندما اشتد عليهم ضغط القبائل الآتية من الشمال .
ولعل الشعر العربي كان من العوامل الدافعة إلى رمى العرب بعدم الاستقرار .
فهذه القصائد العربية تبدأ بالأطلال ، والديار المهجورة ، وذكر الأيام السالفة بها ،
وفراقها طلبا للرعى والسكلا ، وما إلى ذلك ، مما جعلنا ننظر إلى العرب كأنهم

قوم رُحَّل لا يقر لهم قرار . ولكن الشعراء ما أرادوا ذلك ، وإنما أرادوا رحلاتهم القصيرة الصغيرة في موطنهم الكبير ، وانتقالهم بين المصايف والمرايع .

واعلمنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا آخرًا إن العرب عرفوا الاستقرار في المدن والقرى الزراعية والتجارية ، وعرفوا شبه الاستقرار في المراعى المتناثرة ، وعرفوا عدم الاستقرار في صحاريهم الساحلة .

العزلة :

وخذعت بلاد العرب الدارسين خدعة أخرى ، بقبولهم أنها صحراء . إذ الصحارى أراض فقيرة ، لا يتيسر للمتحضرين العيش فيها ، ولا تطمع الدول القوية في استعمارها ، لفقرها وتمنعها على الجيوش الجارة . وفرعوا على ذلك أن سكانها معزولون عزلة نامة عن أم الأرض ، فهم منطوون على أنفسهم في جزيرتهم ، لا يكاد يحس بهم أحد ، ولا يكادون يعرفون من شئون الدنيا الصاخبة بالحياة حولهم شيئاً .

ولكن الحقيقة أن العرب كانوا بعيدين عن العزلة والسكون ، إذ اتصلوا بالحضارات التي قامت حولهم منذ قديم الزمن ، على اختلاف أنواعها ومصادرها . وكانت الطرق الرئيسة التي تسربت الثقافات من خلالها إلى بلاد العرب ، هى :

(١) الاستعمار : فقد أنشأت الأمم المحيطة بالعرب مستعمرات عسكرية على التمخوم بين الجزيرة العربية وبينهم لحراسة الأراضى الزراعية أو المناجم المعدنية . وعلى ذلك قامت الصلة بين العرب والمصريين منذ قديم الزمن في أيام الفراعنة الأولين . إذ سار الفراعنة في أيام الأسرات الأولى باحثين عن النحاس في شبه جزيرة سيناء ، وتوغلوا في السير حتى وصلوا إلى شمال الحجاز وجنوبى سورية ، واستعمروا تلك الجهات ، وأقاموا الخافر التي كان من بينها مستعمرة في موضع

المدينة اليوم . وعرفت الأمم تلك السيطرة المصرية على بلاد العرب حتى كان الآشوريون - البابليون يطلقون لفظ « مُصْرُ أَوْ مِصْر » على القطر المصرى وشمال بلاد العرب وجنوبى سورية أيضا . واستعمل هذا الطريق فى التجارة أيضا ، كما استعمل طريق البحر الأحمر . ويظهر تأثير المصريين فى مشروعات الرى فى الجنوب ، وفى التماثيل والآلهة واللغة فى الشمال .

وحاول العراقيون أيضا استعمار المناطق المجاورة لهم ، فتتابعت حملاتهم منذ عهد سرجون الآشورى عام ٧١٥ « ق م » وربما من قبل وتمسكوا فعلا من إخضاع بعض القبائل فى الجاهلية البعيدة والقريبة . ولم يكن اتصال العراقيين بالعرب حريياً على الدوام ، بل كان سلبياً أيضا عن طريق التجارة والرحلات والهجرات الفردية والجماعية أحيانا ، من الطرفين على السواء . فتسربت الثقافة العراقية إلى العرب ، ويظهر ذلك فى مشروعات الرى والحضارة اليمنية فى الجنوب وفى الديانات واللغات فى الشمال . وكانت هذه الصلة غاية فى الوضوح والشدة قبيل الإسلام .

ومن أبرز الأمثلة على هذا الاستعمار إمارتنا أخيرة وغسان ، اللتان لا نحتاج إلى السكلام عنهما ، وعن الدور الذى أدته فى حمل الثقافات الهلينية والفارسية إلى العرب ، إذ كل من له اتصال بالأدب العربى يعرف ذلك .

(٢) ومن الروابط بين العرب وغيرهم ، التجارة : وقد كانت بلاد العرب من أهم المراكز التجارية فى العالم القديم ، إذ تجمعت فيها تجارة اليمن وحضرموت والبحرين والهند والصين والحبشة ومصر والشام . وكانت توزع هذه الواردات على العالم القديم أجمع ، وخاصة مصر والرومان وفارس . وعرفت بلاد العرب عدة طرق تجارية ، أهمها الطريق المار باليمن والحجاز

إلى الشام . وكان هذا الطريق في أول أمره بيد اليمنيين وحدهم ، ثم اليمنيين والأباط ، ثم الحجازيين وحدهم بعد تدهور الفريقيين الأولين . وكان الحجازيون يخرجون في قوافل كبيرة قد تبلغ خمس مئة وألف بعير . فتشبه الجيش ، كما يقول سترابو . فيتقدمها الرواد لتعرف مافي الطريق ، والهداة يهدون السبيل ، والحراس يخفونها .^(١) وكان لهم رحلتان : صيفية إلى الشام ، وشتوية إلى اليمن .^(٢)

وكان لمسكة مركز خاص في التجارة ، إذ كانت على مفترق عدة طرق تجارية تسير إلى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة ، ومنها إلى أقطار العالم القديم . وكان بنو عبد مناف من قر يش يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة ، فكان هاشم يتوجه إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . وكان تجار قر يش يختلفون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم بسوء .^(٣) وكان كل أخ منهم يأخذ من ملك البلد الذي يقصده أماناً لهم ، فكان هذا أشبه بالروابط والعلاقات بين أمراء مكة وغيرهم من الملوك .^(٤)

وتحضر المسكيون حتى قال عنهم أوليري^(٥) : « من الصعب أن تتخيل شيئاً أبعد عن صورة الحياة العربية المسأورة من هذه المدينة التجارية الغنية التي فقد رجالها كل ميل للحرب ورضوا باستخدام جنود مأجورين (يقصد الأحياء) ، وجعلوا مدينتهم موطناً مستتب الأمن ومركزاً للبيوت التجارية في آسيا الغربية » . ونحن نصدق كل ما ذهب إليه أوليري إلا أن لفظ الأحياء خدعه فظنهم جنوداً مأجورين من بلاد الحبشة . والحقيقة أنهم عرب خلص من بني الهون من خزينة وبني الحارث من كنفانة ، وبني المصطفي من خزاعة ، حالفوا قر يشاً وكانوا من الغلاة

(١) أحمد أمين : جغرافيا الإسلام ، ص ١٦ . (٢) القرآن ، السورة ، ١٩٦ .

(٣) التالي : النوادر ، ص ١٩٩ . (٤) الدكتور حسن إبراهيم حسن :

تاريخ الإسلام السياسي ١ : ٦٤ (٥) أوليري : بلاد العرب قبل الإسلام ، ١٨٤ .

في دينهم . وأطلق عليهم هذا الاسم من تجمعهم وتحالفهم (التخبش : التجمع)
أو من عقدم هذا الحلف على جبل حُبْشَى بجوار مكة ، أو في سوق تهامة القديم
المسمى حُبْكَشَة^(١) ، وفي ختام كلامنا عن التجارة نذكر قول أوليري^(٢) : « وقد
يقول - ونحن آمنون تماما - إن كل مواطن مكى في القرن السابع الميلادى قام
برحلة على الأقل إلى بصرى أو الحيرة ».

(٣) ومن الأمور التي كانت تربط العرب بالعالم الخارجى ، البعوث الدينية :
فقد هاجر اليهود إلى بلاد العرب منذ قديم الزمان كلما اشتد عليهم ضغط الأعداء
أو قست عليهم المجاعات . وانتشرت اليهودية في شمال الحجاز وفي نجران من
اليمين . وكان اليهود واسطة انتقال الثقافة الهلينية لبلاد العرب ، كما عرفوا العرب
بالزراعة والتجارة وصناعة السيوف والدروع والآلات والصياغة وغير ذلك .

وأخذت المسيحية تنسرب إلى بلاد العرب منذ القرن الرابع الميلادى ، وكان
أباطرة الرومان يشجعون هذا الانتشار لأن فيه بسطا لنفوذهم السائر وراء المسيحية .
وعلى الرغم من عدم ملائمة التساهل واللين المسيحيين للخلق العربى ، وعموض
للبادى المسيحية على عقله ، فإن المسيحية انتشرت في الحيرة وغان ووادى القرى
ونجران ، التي كانت مذابحها السبب في استعمار الحبشة للبلاد اليمنية ، وهكذا
يمكننا القول بأن المسيحية نشرت الثقافة الهلينية والحشية في البلاد .

أظننا الآن نستطيع أن ننكر العزلة المدعاة إنكارا شديدا دون أن نخاف
لوم أحد ، فهذه بلاد العرب حركة دائبة من داخل إليها وخارج منها ، داخل آت

(١) انظر تاج العروس ، مادة « حبش » ، وابن الأثير : السكامل ١ : ٤٣٨ ،
٤٤٢ - ٢ : ١٢ ، ١٥٤ ، والأزرقي : أخبار مكة ١ : ٦٦ .
(٢) بلاد العرب قبل الإسلام ١٨٨ .

بثقافات مختلفة ، وخارج يرجع بثقافات مختلفة ، حتى قيل ^(١) : « لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب ، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى إسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنهم أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمن علم بأخبار الأمم جميعا ، لأنها كانت في ظل الملوك السيادة » . ولكن يجب أن نذكر أن معارفهم لم تكن دقيقة صحيحة ، وإنما نالها بعض الاضطراب والتشويه في أثناء قطعها القفار والأقطار إليهم .

الكتابة الخملية :

في هذه الأحوال ، والثقافات تصطرع في بلاد العرب ، عاش العربي تتنازع هذه القوى المختلفة . فن قوى فارسية تغزوه من الشرق ، إلى قوى بيزنطية تنفذ إليه من الشمال الغربي ، إلى أخرى حبشية تحت خطها إلى من الجنوب . ومن يهودية ، إلى مجوسية ، إلى وثنية ، كلها تحيط به ، وتوغل في بلاده ، وفي عقله ، وفي قلبه ، تاركة آثاراً ، قد تعمق وقد لا تعمق ، ولكنها آثار على كل حال .

وكان من هذه الآثار الكتابة أو الخط العربي . وقد ادعى كل من أنصار هذه القوى المختلفة أنه صاحب الفضل في ظهور هذا الحادث الجديد . فالأب لويس شيخو المسيحي يدعيه للمسيحية ^(٢) ، والأستاذ إسرائيل ولفنسون اليهودي ينسبه

(١) أحمد أمين : جغرافيا الإسلام ، ٣٣ .

(٢) لويس شيخو : النصرانية وآدائها بين عرب الجاهلية ٢ : ١٥٢

لليهودية ، ^(١) وعلماء آخرون غيرها يدعونه للحيرة ^(٢) أو لليمن ^(٣) . ولكن هذه الأقوال جميعها تجانب الحق ، وتحيد عن الطريق السوى . فالكتابة العربية ولا ريب وليدة الكتابة النبطية ، التي كانت تعيش في شمال الحجاز وجنوبي الشام ، في القرون الأولى من الميلاد ، تلك الكتابة المتفرعة من الخط الآرامي ، في القرن الأول قبل الميلاد على وجه التقريب . وقد أخذت هذه الكتابة تتطور تطوراً سريعاً ، وتأخذ مسحتها النبطية في الزوال ، وتصطبغ بالصبغة العربية ، في القرنين الثالث والرابع الميلاديين . وفي القرنين الخامس والسادس من الميلاد امتحت الكتابة النبطية ، وزالت تماماً ، ولكنها بعثت في صورة أخرى هي الكتابة العربية .

أما أقوال الكتاب العرب الأقدمين من أمثال الصولي وابن النديم وابن خلدون فلا تستحق العناية أو الجدل إذ لا تستند إلى دعامة قوية ، أو دليل واضح .

لهذا نقول : إن الخط العربي لم يؤخذ من الحيرة أو اليمن أو غيرها ، وإنما ولد ونشأ في بلاد العرب الشمالية « الحجاز » ، لأن الكتابة من الأشياء الضرورية للتجارة ، وأهل الحجاز - كما رأينا - قوام حياتهم التجارة ، وهي مورد رزقهم الأول . وقد رأينا بوضوح تحقق الصلة التجارية بين عرب الحجاز والنبط منذ ظهور هذه الدولة على حدود الشام حتى زوالها ، بل يظن بعض الباحثين أن

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ٢٠ ، البلاذري : فتوح البلدان ٤٧٣ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٦ ، والصولي : أدب الكتاب ٣٠ ، والنويري : نهاية الأرب ٧ : ٣ .

(٣) الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، مادة « حزم » .

التيط بسطوا سلطانهم حقبة من الزمان على الحجاز ، ويستدلون على ذلك بآثارهم في الكتابة واللغة والدين^(١).

وكانت التجارة العامل الأول الذي أظهر الكتابة في بلاد العرب ، ولذلك نجدها منتشرة حيث توجد التجارة ، فهي تدبر في رحال الإبل ، ولعل ذلك سبب رؤيتنا الكتابة العربية ظاهرة كل الظهور في المناطق التجارية ، إذ لم يكن التجار العرب مستطيعين الاستغناء عنها في معاملاتهم الداخلية أو الخارجية ، فالتاجر كان يجمع من أفراد المدينة الواحدة ما يكون به قافلة تجارية واحدة ، ترتحل إلى البلدان المختلفة للتجارة فيها^(٢) . فهو إذن يحتاج لأن يعرف حصة كل من هؤلاء في القافلة وفي أرباحها ، وما كان ذلك ليتيسر له إلا بالكتابة ، وكذلك كان هؤلاء التجار محتاجين للكتابة في العقود وكتب الأمان بينهم وبين القبائل التي تمر تجارتهم بها سواء كانت هذه العقود تجارية فحسب ، أو تجارية وسياسية معا ، فقد عرف العرب الأمرين جميعا ، ولا يقتصر الأمر على هذه المعاملات والعهود الداخلية ، بل هناك العهود الخارجية التي تعقد بينهم وبين الرومان أو الفرس أو اليمنيين أو الحبشيين أو غيرهم لطلب التجارة ، والسماح بالتجارة في تلك البلاد المختلفة . يظهر لنا ذلك في هذا الخبر الذي يرويهِ القائل في ثوابه تحت

(١) من شاء استقصاء هذا البحث فليرجع إلى كتاب « أصل الخط العربي » للامام خليل بن يحيى ناصي الأستاذ المساعد بكلية الآداب .

(٢) انظر موقعة بدر في الجزء الثاني ص ٢٥٧ من سيرة ابن هشام ، يقول مضمين بن عمرو لقرينيه وهو يستنفرها لحرب النبي : اللطيمة ، اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه . . . » وانظر إسلام أبي العاص بن وائل في سيرة ابن هشام ٢ : ٣١٢ . والطبري ٣ : ٢٣٠٥ .

عنوان : « مطلب خروج بنى عبدمناف إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس ،
لأخذ اليهود من ملوكها ، وتأمين السبل لتجار قريش »^(١).

الكتابة وشؤون السياسة :

لم يحتج العرب للكتابة في التجارة وحدها ، بل في السياسة أيضا ، فقد
ذكر الباحثون أن مكة عرفت نوعا من الحكومة الجمهورية في أيامها الجاهلية^(٢) ،
وكان لهذه الجمهورية دار تتداول فيها الرأى في مشاكلها التجارية والسياسية

(١) ص ١٩٩ . قال : « كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لاتعدو مكة ، إنما
تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يبيعونها بينهم ، ويبيعونها على من حولهم
من العرب . فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبدمناف إلى الشام . فنزل بقبصر ...
قال له : أيها الملك ، إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمن تجارتهم
فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندهم فهو أرخص لكم .
فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر به
من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافا - والإيلاف : أن يأمنوا عندهم في
أرضهم بغير حاف ، إنما هو أمان الطريق - وعلى أن قرشاً نحمل إليهم بضائع فكفونهم
حملاتها ، ويؤدون إليهم رءوس أموالهم وربحهم ، فأصبح ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل
الشام حتى قدم مكة ، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ... وخرج المطلب بن عبدمناف إلى
اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر إليهم من قريش ، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم ...
وخرج عبد شمس بن عبدمناف إلى الحبشة ، فأخذ إيلافا كفعل هاشم والمطلب ...
وخرج نوفل بن عبدمناف ... فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش ، وإيلافاً ممن مر به
من العرب ... واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية ، وكثرت أموالها . فبنو عبدمناف
عظم قريش على قريش منة في الجاهلية والإسلام .

(٢) انظر الفصل الذي عقده أوليري عن مكة في كتاب « بلاد العرب قبل الإسلام » ،

والاجتماعية ، وتعقد فيها المعاهدات السياسية ، لدفع العدوان أو تأمين السبل أو تبادل المساعدات العسكرية ، وما إلى ذلك مما يكون بين دول اليوم ، وليس هذا بقول منكر ، فإن ذكر تلك المعاهدات والتحالفات شائع في الأدب العربي^(١) ، وخاصة أيام العرب ووقائعها . وإنا لنذكر دون شك حلف الفضول ، وحلف قریش ضد بنى هاشم بعد ظهور النبي ، وكتابتهم الصحيفة المشهورة ، وتعليقها في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم^(٢) .

وكان لكل نوع من هذه المعاهدات اسم خاص به : فالمهاريق : نوع من الكتب يخص كتب الدين أو كتب اليهود والمواثيق والأمان^(٣) ، والإيلاف : عهد الأمان بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق^(٤) .

بل لعل العرب عرفوا أنواعا أخرى من الكتابة غير هذه العهد التجارية والسياسية . فقد نقل بعض الرواة أن العرب كتبوا المعلقات على القبايطى بماء الذهب ، وعلقوها على جدران الكعبة .

وعند ما نبعث عن المواطن التي انتشرت فيها الكتابة ، لا نطيل البحث في المناطق المسيحية واليهودية ، فن الطبيعي أن تنتشر فيها الكتابة ، وذلك أمر ظاهر لا يحتاج إلى إثبات ، حتى لقد سمي العرب الأميين^(٥) ، وسمى النصارى

(١) قال الحارث بن حلزة في معلقته :

واذكروا حلف ذى الحجاز وما قد م فيه اليهود والكفلاء

حذر الجور والتعدى وهل ينقض ما في المهارق الأهواء

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣٧٩ . (٣) الجاحظ : الحيوان ١ : ٧٠ .

(٤) القالى : النوادر ١٩٩ .

(٥) آل عمران ، الآية ٢٠ ، الجمعة ، الآية ٢ .

واليهود أهل الكتاب^(١) وإذن كانت الكتابة موجودة في الحيرة وغان ونجران والمدينة ، وخاصة أن الحيرة وغان متصلتان أشد اتصال بالتقافات الخارجية ، التي لا شك أنها تدعو إلى تعلم الكتابة وانتشارها ، بل بلغ الأمر في الحيرة إلى حد إنشاء كتاب يتعلم فيه الصبية الكتابة^(٢) . وقصة طرفة والمتلمس مع عمرو بن هند وما كتب لها في الصحيفتين إلى عامله بالبحرين قصة مشهورة في تاريخ هذين الشاعرين . ولكن الكتابة العربية كانت شائعة أيضا في مكة الوثنية ، وذلك بسبب التجارة ، حتى يقال إن مكة كانت تفوق المدينة في عدد الكتاب ، فقد جاء الإسلام وفي مكة سبعة عشر كتابا^(٣) ، وفي المدينة أحد عشر^(٤) ، مع أن المدينة موطن اليهود ، وكان يُظن أن أهلها أكثر معرفة بالكتابة لاتصالهم بهم ، وم أهل كتاب . ولكننا لا نظن هذا التحديد إلا كتحديد الصنفين القدماء أن كذا من الموازين الصرفية لم يأت فيه إلا كذا كلمة ، فهم مغرمون بالإحصاءات التي قد يرفضها الواقع الذي تشهد به المعاجم ، وإن لم يتنبهوا لذلك . فإني أظن أن مكة خاصة كان بها أكثر من ذلك العدد من الكتاب ، وإن لم أستطع أن آتي في ذلك برأى قاطع أو إحصاء دقيق لقلّة المصادر . ولم يقتصر أمر ظهور الكتابة على هذه المواطن المتحضرة ، بل تسربت إلى البادية نفسها^(٥) . فعرفها أكنم بن صيفي حكيم نعيم وخطيبها^(٦) ، وابن أخيه حفظة بن الربيع^(٧) كاتب النبي صلى الله عليه

(١) العنكبوت ، الآية ٤٦ ، والأحزاب ، الآية ٢٦ ، والحديد ، الآية ٢٩ ،

والحر ، الآية ٢ . (٢) أبو الفرج : الأغاني ٢ : ١٠١ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ٤٧١ . (٤) نفس المرجع ٤٧٣ .

(٥) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٤ .

(٦) الميداني : مجمع الأمثال ٢ : ٨٧ . (٧) الجهمشياري : الوزراء والكتاب ١٣ .

وسلم ، والمرقش الأكبر^(١) ، ولبيد بن ربيعة^(٢) . ولعل كثرة تشبيه الشعراء
الأطلال الدارسة بالكتابة يدل على انتشارها ومعرفتهم بها . يقول الأخنس
ابن شهاب التغلبي ، وهو شاعر جاهلي :

لَابِنَةُ حِطَّانَ بْنِ عَوْفٍ مَنَازِلُ كَارَقَشَ الْعُنْوَانِ فِي الرَّقِّ كَاتِبُ
وَيَذْكُرُ مَعَاوِيَةَ بْنَ مَالِكٍ تَجْوِيدَ الْخَطِّ فَيَقُولُ^(٣) :

فَإِنَّ لَهَا مَنَازِلَ خَاوِيَاتٍ عَلَى تَمَلَّى وَقَفْتُ بِهَا الرُّكَابَا
مِنَ الْأَجْزَاعِ أَسْفَلَ مِنْ تُمَيْلٍ كَارَجَعْتَ بِالْقَلَمِ الْكِتَابَا
كِتَابَ مُجَبَّرٍ هَاجٍ بِصِيرٍ يُنَمِّقُهُ وَحَازِرَ أَنْ يُعَابَا

وينسب الحارث بن حِلْزَةَ ، الذي كان يعيش في منطقة النفوذ الفارسي ،
الصحف للفرس فيقول^(٤) :

لَمَنِ الدِّيَارُ عَفْوَنَ بِالْحُبْسِ آيَاتُهَا كَهَمَارِقِ الْفُرْسِ

وكانوا يكتبون على الحجارة البيض ، والعظام ، وفي عُسْبِ النخل ، وفي الجلد
والأديم ، يقول المرقش الأكبر^(٥) :

الدَّارُ قَفَرٌ وَالرَّسْمُ كَا رَقَشَ فِي ظَهْرِ الْأَدِيمِ قَلَمٌ
وَيَقُولُ لَبِيدٌ^(٦) :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا قَمَامُهَا بَيْنِي تَابَدَ غَوْلُهَا فَرَجَامُهَا

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء . ٣٠ . (٢) أبو الفرج : الأغاني ١٤ : ٩٣ .

(٣) المفضليات ١ : ١٥٧ . (٤) المفضليات ١ : ١٣٠ .

(٥) نفس المرجع ٢ : ٣٧ .

(٦) معلقة لبدي ، الوحي : الكتابة . والسلام : الحجارة البيض ، والعظام

والزبر : الكتف

فمدافع الرِّيانِ عُرِّيَ رَشْمُهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوُحْيُ سِيْلَها
وجلا السيولُ عن الطلولِ كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتَوْنَهَا أَقْلَامُها

ولم يكثر ذكر الكتابة في الشعر الجاهلي وحده ، بل جاء في القرآن أيضا ، فالقرآن بحث على تدوين الديون والمعاملات التجارية وغيرها ، مما يدل على أن الكتابة كانت شائعة عندهم ، يقول تعالى ^(١) : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ » . وكذلك يذكر القرآن أدوات الكتابة ، مثل القلم واللوح والقرطاس والصحف ، فيقول جل شأنه ^(٢) : « ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » ويقول ^(٣) : « وَالطُّورِ ، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ، فِي رِيقٍ مَّنْشُورٍ » . ولعلنا نشعر بتعظيم القرآن لهذه الأدوات في قسمه بها . ومما يدل على شيوع الكتابة أيضا دوران لفظ الكتابة في القرآن في المواضع المختلفة ، والمعاني المتنوعة التي تنفرع عن لفظ الكتابة بمعنى التدوين والتثبيت ، مثل قوله تعالى ^(٤) : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ » . وقوله عز ذكره ^(٥) : « كُتِبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » . وغير ذلك من الآيات التي توحى بانتشار الكتابة منذ زمن غير قليل .

هذه الكتابة التي عرفها العرب في جاهليتهم . ولكن ما يزال يهيجس بنفسى خاطر وهو يعاودنى كلما حاولت دفعه ويلج على ، ذلك أن بعض العرب الحجازيين عرف غير الكتابة العربية أنواعا أخرى من الكتابات ، أعنى أنهم ربما عرفوا الحِمْيَرِيَّة ، أو النبطية ، أو الفارسية ، أو الرومانية ، أو الحبشية . أما الحميرية

(١) البقرة ، الآية ٢٨٢ . (٢) القلم ، الآية ١ . (٣) الطور ، الآية ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) البقرة الآية ٢١٦ . (٥) المجادلة ، الآية ٣١ .

فَيُرَجِّحُ أَنَّهُمْ أَخَذُوهَا بِاتِّصَالِهَا بِالْيَمِينِ ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْمَرْقُشَ الْأَكْبَرَ كَانَ يَعْرِفُهَا ^(١) . وَأَمَّا النَّبْطِيَّةُ فَلَا يَدَّ أَنْهُمْ عَرَفُوهَا ، لِأَنَّهُمْ اشْتَقَوْا كِتَابَتَهُمْ مِنْهَا ^(٢) . وَأَمَّا الْفَارْسِيَّةُ فَقَدْ عُرِفَتْ فِي الْخَيْرَةِ خَاصَّةً ، وَيُقَالُ إِنَّ «عَدَى بْنَ زَيْدٍ» كَانَ مِنْ تَرَاجِمَةِ أَبِرُونِز... [و] أَنَّ أَبَاهُ ... كَانَ ... شَاعِرًا خَطِيئًا وَقَارًا كِتَابَ الْعَرَبِ وَالْفَرَسِ ^(٣) . وَأَمَّا الرُّومَانِيَّةُ ، فَيُرَجِّحُ أَنَّهَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً لَدَى الْعَسَاسَةِ . وَأَمَّا الْحَبَشِيَّةُ فَيُظَنَّ أَنَّهَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً فِي الْيَمِينِ . وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ الْحِجَازِيِّينَ عَرَفُوا هَذِهِ الْكِتَابَاتِ عَنْ طَرِيقِ الْإِتِّجَارِ مَعَ أَهْلِهَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعُوا عَقْدَ الْعُهُودِ وَالْمُحَافَظَاتِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ ، وَالَّتِي أَلَمَعْنَا إِلَيْهَا آتَفًا . بَلْ لَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَاتِبَهُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ بِتَعْلُمِ الْكِتَابَةِ الْعِبْرِيَّةِ وَالسَّرْيَانِيَّةِ ، ^(٤) وَقَدْ فَعَلَ ، كَمَا يُقَالُ إِنَّهُ تَعَلَّمَ الْفَارْسِيَّةَ وَالْحَبَشِيَّةَ ^(٥) . وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى فِي هَذَا الْحَدِثِ إِيمَاءَةً أَوْ إِشَارَةً بِإِحْتِمَالِ وَقُوعِ أَمْثَالِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، الْقَرِيبَةِ مِنَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَقْل . وَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَلِّهِينَ وَالْمُتَحَفِّظِينَ مِنْ أَمْثَالِ وَرَقَةِ بْنِ نُوْفَلٍ وَأُمِيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ عَرَفُوا هَذِهِ الْكِتَابَاتِ ، مَا دَامَ يُقَالُ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ قَرَأُوا فِي كُتُبِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ ^(٦) ، وَإِنْ كَانَ هَذَا لَا يَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ ، لِأَنَّهُمْ رُبَّمَا قَرَأُوا هَذِهِ الْكُتُبَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ سَمَاعِنَا بِمِثْلِ هَذِهِ التَّرْجُمَاتِ .

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢٠ .

(٢) خليل يحيى نامى : أصل الخط العربى ١٠٤ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ : ٢٦٥ .

(٤) ابن عبد البر : الاستيعاب ١ : ١٩٤ ، وعبد الحى الكتانى : التراتيب

١ : ١٢٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٦ .

(٦) سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ ، ٢٠٣ ، ٢٣٨ .

الكتابة الفنية :

اضطررنا أن نقطع كل هذه الرحلة السابقة في بيداء الصحراء الجاهلية منقبين باحثين ، بسبب قلة النقوش العربية اللغة التي نعرفها ، وعدم وصول نصوص عربية مكتوبة إلينا ، كي نستطيع أن نجيب عن السؤال التالي : هل عرف العرب الكتابة الفنية ؟ وهل كانت هذه الأحوال التي درسناها تستلزم وجود هذا النوع من الكتابة ؟ أم تستلزم عدم وجودها ؟

أما القول ببداوة العرب وفطرية حياتهم وتفقاهم وعدم تحضرهم فقد أثبتنا بطلانه ، وأثبتنا أن العرب عرفوا حياة مستقرة متحضرة ، حياة فيها من الاستقرار والتحضر ما لا ينافي وجود كتابة فنية . وأعني بذلك أن حال العرب في العصر الجاهلي القريب من ظهور الإسلام لم تستلزم عدم وجود الكتابة الفنية . ولكن هل يعني هذا أنها تستلزم وجودها ؟ ذلك ما أشك فيه . فالعرب عرفوا الاستقرار والتحضر ، ولكنهم لم يصلوا في ذلك الاستقرار إلى الدرجة التي تستلزم ظهور الفنون التي تنشأ في الحضارات العريقة . إذن فعرب الشمال لم يبعد عهدهم بالحضارة أو لم يطل أمد الحضارة عليهم حتى يتمكنوا من إيجاد فنون تعتمد على تراث غني من الحضارة ، فلا نجد عندهم الرسم ولا النحت ولا ما شابههما من الفنون إلا بدرجة بدائية نستطيع أن نفرض النظر عنها . وكذلك كان حال الكتابة الفنية ، إذ تباينت فيها الآراء ، واشتجرت العقول ، فن مؤيد لوجودها ، ومن نافي لظهورها ، ولكن الجميع — على الرغم من هذا الخلاف الكبير — يتفقون على عدم وصول أية كتابة فنية جاهلية حقيقية إلينا ، وعلى الشك في الرسائل القليلة التي تباغ العشر أو فوقها بقليل ، ووصلت إلينا في الكتب المختلفة ^(١) . فنحن إذن أمام آراء نظرية

(١) جمع هذه الرسائل الأستاذ أحمد صفوت في صدر الجزء الأول من

لا تسندها مواد أو وثائق تذهب بنا إلى تأييد أحد الفريقين ورفض الآخر .
لكن نظرنا في أحوال العرب في جاهليتهم أدى بنا إلى القول بأن ظروف حياتهم
لم تكن تستلزم عدم وجودها ، فالحالة بين بين . ولا نستطيع أن نقول بوجود الكتابة
الفنية اعتماداً على وجود القرآن ، كما قال بعض الدارسين ، لأننا من جهة أخرى
إذا نظرنا إلى رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم نجدها من البساطة والسهولة بحيث
تجعلنا لا نحكم بوجود أطوار من الكتابة قبلها . فكيف إذن ننظر إلى القرآن
ولا ننظر إلى كتابات النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين .

وهكذا تظل الحالة مائة ، لا نحكم بوجود كتابة فنية ، لأننا لم تصل إلينا أية
وثائق منها ، كما لا نحكم بأن حياة العرب كانت تستلزم عدم وجودها ، ولكننا
أشد ميلاً إلى رفض وجود هذا النوع من الكتابة في ذلك العصر ، وخاصة بعد
دراستنا لكتابات النبي البسيطة . وسواء ملنا مع هؤلاء أو هؤلاء فإننا لن نستفيد
من هذا الميل شيئاً ، فلن نعرف خصائص هذه الكتابة الفنية ، أو شيئاً عنها ،
ما دام لم يصل إلينا شيء منها .

الفصل الثاني

صدر الإسلام

انبثق نور الإسلام على يد محمد النبي الأمي الذي لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، وكان القرآن معجزته الكبرى يتنزل عليه آيات آيات في أغلب الأحيان ، واحتاج النبي إلى حفظه من الضياع ، ومن الطبيعي أن الطريق إلى حفظه هو التدوين . فاضطر النبي صلى الله عليه وسلم إلى اتخاذ الكتّاب أول ما أمكنته الفرصة . ونحن عندما ننظر إلى أوائل المؤمنين بالإسلام نجد كثيرا منهم كتابا ، مثل الخلفاء الأربعة ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعامر بن فهيرة ، ومُعَيقِب بن أبي فاطمة ، وحذيفة بن اليمان وغيرهم . وذلك أمر غير غريب ، فإن الكتاب أو الذين يحسنون الكتابة هم مثقفو العرب ولا ندهش إذا آمن بالدعوة الجديدة المثقفون من العرب ، وإنما ندهش لو حدث غير ذلك . وهكذا تبسّر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجد حوله جماعة من الكتاب يدونون له ما يمليه عليهم من آي . واشتهر جماعة من الصحابة بكتابة الوحي ، على رأسهم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، فإن غابا كتب أنس بن كعب ، وزيد بن ثابت^(١) ، كما اشتهر بها أيضا معاوية بن أبي سفيان^(٢) ، وكان يكتب له

(١) الجهمياري : الوزراء والكتاب ١٢ . ويقول ابن عبد البر : الاستيعاب

١ : ٢٦ « كان زيد أنرم الصحابة لكتابة الوحي » .

(٢) شرح الزرقاني على المواهب ٣ : ٣٢٢ .

أيضا عبد الله بن سعد بن أبي مَرْح ، ثم ارتد ولحق بالمشرّكين^(١) ، فإن لم يشهد أحد هؤلاء الكتاب كتب غيرهم ، من أمثال جابر بن سعيد بن العاص ، وأبان ابن سعيد ، والعلاء بن الحضرمي ، وحَنْظَلَة بن الربيع^(٢) .

وكان الكتاب السابقون يكتبون للنبي ، ولكن كان هناك من يكتبون لأنفسهم ، وقد وثق بهم فيما بعد زيد بن ثابت عند جمعه للقرآن ، في زمن أبي بكر الصديق ، إذ يقال إنه لم يكن يأخذ الآية من أحد إلا إذا كان معه شاهدان . وكانت الكتابة معتبرة أحد الشاهدين^(٣) . ويذكرون في هذا الصدد اسم أبي خُرَيْمَة ابن ثابت على أنه كان لديه آخر سورة التوبة مكتوبا^(٤) .

ونشأ عن هذا ظهور المصاحف المختلفة التي تُنسب لكثير من الصحابة فهذا مصحف علي ، وهذا مصحف أبي ، وذاك مصحف ابن مسعود ، وذلك مصحف سالم مولى أبي حذيفة ؛ وُجِدَت كل هذه المصاحف إلى جانب المصحف الرسمي الذي جمعه زيد بن ثابت بأمر أبي بكر من الصحابة المختلفين والمواضع المتعددة ، وكتبه في القراطيس . وظل هذا الأمر مختلفا متداربا ، حتى اختلف معه القراء وتداربوا ، فقام عثمان بعمله الموفق ، ووجد كتابة القرآن في مصحفه الإمام ، وحرق المصاحف الأخرى^(٥) .

تلك هي قصة كتابة الوحي نرويهها لا لأنها كتابة فنية ، ولكن لأنها مظهر من مظاهر انتشار الخط بين العرب عند ظهور الإسلام ، ولأنها ظاهرة تبين لنا

(١) الجهم شيارى : الوزراء والكتاب ١٣ .

(٢) عبد الحى الكتاني : الترتيب الإداري ١ : ١١٥ .

(٣) السيوطي : الإتقان ١ : ٥٨ . (٤) نفس المرجع .

(٥) السيوطي : الإتقان ١ : ٥٩ .

حاجة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده إلى الكتابة والحث عليها . أما الوحي ذاته أو القرآن فلا شك أنه كتابة فنية ، ولكنه نوع من الكتابة فريد لا يتصل بما قبله من كتابة ، ولا بما بعده هكذا نظر إليه القدامى والمحدثون ، فالوليد بن المغيرة ، العربي الصميم ، يقول « ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ^(١) » . ويذهب البلاقون إلى أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج من المعبود من نظام جميع كلامهم [كلام العرب] ومباين للألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه من أساليب الكلام المعتاد ^(٢) . ويرى الدكتور طه حسين أن « القرآن ليس نثراً ، كما أنه ليس شعراً ؛ إنما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم .. لأنه مقيد بقيود خاصة به ، لا توجد في غيره ^(٣) » . ولا يتصل القرآن بما قبله إذ رأينا أنه لم توجد هذه الكتابة الفنية الراقية التي تقارب القرآن ، بل لم نجد أمثلة تجعلنا نوقن بوجود كتابة فنية على الإطلاق . ولا يتصل بما بعده من كتابة فنية ، لأن المسلمين آمنوا بإعجازه وباللعنة التي تلاحق من يحاول تقليده . فظلووا يعجبون به ، ولكنهم بعيدون عن تقليده أو التأثير به ، فبقى وحيداً فريداً في بابه ونوعه . أضف إلى ذلك أنه تفرد له الأبحاث الخاصة ، ولذلك لن أتعرض له في رسالتي هذه .

كتابة الحديث

هناك نوع آخر شبيه بهذا من الكتابة ، هو كتابة الحديث الشريف . فعلى الرغم من تحرُّج النبي صلى الله عليه وسلم من كتابته ، ونهيه عن ذلك ، كي لا يختلط

(١) تفسير الطبري والزحشرى لسورة المدثر ، وسورة ابن هشام ١ : ٢٨٩ .

(٢) الباقلافي : إعجاز القرآن ٥١ ، (٣) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ٣٩ .

بالقرآن ويلتبس الأمر عليهم ، خاف بعضهم أن يضع ماسمعه من أحاديث فدونها لنفسه . وشاهدنا على ذلك ما روى عن اليعنى الذى طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب له الحديث الذى سمعه ^(١) ، وما روى عن صحيفة عبد الله ابن عمرو بن العاص التى استأذن النبي فى كتابتها ، فأذن له النبي ، وكان يسميها الصادقة ^(٢) .

الرسائل السياسية

أدت حاجة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكتاب - كما رأينا - إلى العناية بالكتابة وحث المسلمين عليها . وتكفى الإشارة إلى ما حدث لأسرى بدر من إطلاق سراح المتعلم منهم إذا علم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة ^(٣) ، كما تكفي الإشارة إلى المواضع المتعددة التى ذكر فيها القرآن الكتابة بالتعظيم ، وحث العرب على تدوين معاملاتهم كتابة حتى لا يكثر النزاع ، ويتضح وجه الحق . اجتمع كل هذا إلى حاجة المسلمين لقراءة القرآن فى صلواتهم وخلواتهم ، وإلى ما أحدثه الدين الجديد من حركة فكرية ، فجعل الكتابة أمراً ضرورياً لكل فرد يحس فى نفسه شيئاً من أمل ومن طموح . ولكن العامل الأكبر فى إظهار الكتابة وبها فى الأرجاء ، هو بزوغ الدولة العربية ، فما يخفى على أحد ما تستلزمه الدول من علاقات وروابط داخلية وخارجية ، لا يمكن التعبير عنها والاتفاق عليها إلا بالمراسلات . وهكذا كان إنشاء النبي صلى الله عليه وسلم للدولة العربية الإسلامية داعياً إلى إنشاء نظام من المراسلات الداخلية والخارجية أيضاً .

(١) صحيح البخارى : باب كتابة العلم . (٢) ابن سعد : الطبقات الكبيرة الجزء الرابع من القسم الثانى من ٨ . (٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ١٧١ .

وأحب أن أقول إنى لا أعنى بذلك أن الرسائل والمعاهدات لم تظهر إلا بعد تكون الدولة ، بل ظهرت فى أثناء تكونها ، وقبل تكونها أيضاً ، حتى إنهم يروون لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ شرحبيل بن حسنة كاتباً فى مكة ، بل قالوا إن الدارين أتوا للرسول وهو فى مكة ، وطلبوا منه أن يقطعهم أرضاً بالشام إن فتحها الله عليه ، فأقطعهم بيت عینون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم ، وكتب لهم بذلك كتاباً من خط شرحبيل . ولـكننا نشك شكاً قوياً فى صحة هذه الرواية ، ولا نصدق إلا الإقطاع الثانى الذى تم فى السنة التاسعة بعد الهجرة ، وكتبه الإمام على بن أبى طالب بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتفظ به الداريون وقتاً طويلاً^(١) ، إذ لم تكن الجماعة الإسلامية فى مكة دولة من الدول ، لها كيان سياسى أو نظام إدارى ، ولم يكن الرسول قد بدأ يفسكر فى غزو الأمم المجاورة للعرب ، حتى يقطع أرضاً بها .

أما الأمر الذى لانشك فيه فهو ظهور فكرة الدولة منذ بيعتى العقبة ، وماتلاهما من هجرة إلى المدينة . وكان من أول أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم بها كتابه الذى نظم به التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود^(٢) . وهو يعتبر المعاهدة الأولى فى الإسلام . وهكذا نرى الوثائق السياسية الإسلامية تبدأ بالمعاهدات . ثم تظهر الرسائل فى الإسلام بالرسالة التى كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لعبيد الله بن جحش فى سرية المعروفة^(٣) . وتواتر بعد ذلك المعاهدات والأحلاف بين الرسول والمشركون ، كما تواتر الرسائل بينه وبين قواده وأمرائه ، وبينه وبين كبراء المشركون

(١) الحيدر أبادى : مجموعة الوثائق السياسية ٤٤ والسكتانى : الترتيب

الإدارية ١ : ١٤٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ . (٣) نفس المرجع ٢ : ٢٥٢ .

وبينه وبين ملوك الدول المجاورة ، فارس والروم ومصر والحبشة ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

وثائق الرسول السياسية

تناول المستشرق الألماني اشبيرتر^(١) Sperlber هذه الوثائق بالبحث ، وقسمها إلى أربعة أقسام تبعاً لتاريخها : ما قبل العام الخامس الهجري ، ومن العام السادس إلى فتح مكة سنة ٥٨ هـ ، ومن فتح مكة إلى غزوة تبوك سنة ٥٩ هـ ، وما بعد غزوة تبوك . وأفرد قسماً خاصاً بنفسه - غير هذه الأربعة - لرسائله صلى الله عليه وسلم إلى عرب الجنوب . وتناول هذه الوثائق بالبحث أيضاً الأستاذ أنيس المقدسى^(٢) أستاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الأمريكية ، وجعلها في ثلاثة أقسام . ورأى الرسائل في الدور الأول الذي يمتد منذ الهجرة إلى وقعة الخندق ، خلواً من التاريخ ، وكله سياسى يصبو إلى مخالفة القبائل ، وهى على حالها من الشرك ، للاستعانة بهاعلى إضمار قريش ، مثل حلفه مع نعيم بن مسعود^(٣) ، وبني غفار^(٤) ، وبني ضمرة^(٥) . أما الدور الثانى الذى يشمل الفترة ما بين السنة الخامسة وفتح مكة ، فبرى النبي صلى الله عليه وسلم أقوى مركزاً ، وأنفذ كلمة ، فلا يتجلى فى كتبه ما كان يتجلى قبل من الميل إلى مخالفة المشركين ، بل أصبح يشترط الإسلام أو الجزية مثل رسالته لبني

(١) العدد ١٩ من مجلة Mitteilungen des Seminars fur Orientalische

Sprachen .

(٢) أنيس المقدسى : تطور الأساليب النظرية ١١ .

(٣) الحيدر أبادى : مجموعة الوثائق ١٤٥ . (٤) نفس المرجع ١٤٤ .

(٥) أحمد صفوت : جمهرة رسائل العرب ١ : ٧٠ .

الجرمز^(١)، ورسالته لابنى الجلندى^(٢). وأخيراً الدور الثالث بعد غزوة تبوك، وقد بلغ الرسول أعلى درجات القوة، وأخذ يستغل مركزه الحربى والدينى، فصار لا يكتفى بقبول الإسلام أو الجزية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، ففرض الزكاة على القبائل الداخلة فى الإسلام، وبعث العمال والأمراء على الصدقات، ومنها كتبه إلى ملوك حِمير^(٣)، وإلى همدان^(٤)، وإلى بنى كلب^(٥).

ولكن هذه الأقسام لاتعطينا كثيراً لأنها تنظر إلى الناحية التاريخية أكثر مما تنظر إلى الناحية الأدبية. نعم، ينبغى ألا ننسى ما للناحية التاريخية من أثر فى الناحية الأدبية، ولكن كان أثرها الأول فى شروط المعاهدات، لافى أسلوبها وصياغتها الفنية.

ومن حسن الحظ أن كثيراً من هذه الرسائل لا يزال باقياً إلى يومنا هذا، على خلاف الحال مع خطبه صلى الله عليه وسلم، إذ ضاع أكثرها، ولم يكد يصل إلينا إلا القليل النادر. ولكن هذه الرسائل لم يصل إلينا إلا أصل اثنتين أو ثلاث منها هى كتابه إلى المقوقس الذى وجده المستشرق الفرنسى بارتلمى فى كنيسة قرب إخميم^(٦)، وكتاب به إلى المنذر بن ساوى الذى نشره المستشرق فلايش^(٧)، وكتاب به إلى الفجاشى الذى وجده المستشرق الإنجليزى دنلوب^(٨). ولذلك قد يشور بنا الشك فيها، أو فى لغتها. ولكن يجب أن نتنبه إلى أن العناية بهذه الوثائق قديمة

(١) الحيدراًبادى : مجموعة الوثائق ١٤٤ .

(٢) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٤٦ .

(٣) نفس المرجع ١ : ٥٣ . (٤) نفس المرجع ١ : ٥٦ .

(٥) نفس المرجع ١ : ٥٢ . (٦) الحيدراًبادى : مجموعة الوثائق ١ .

(٧) نفس المرجع ١ . (٨) نفس المرجع ١ .

جداً . إذ كانت القبائل والأمر تحفظ كتبه صلى الله عليه وسلم إليها تبركا بها ، كما يروى عن الدارين ^(١) . وكذلك اهتم بها المؤلفون القدامى ، فنقرأ عن عناية عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ ، وعناية عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم المتوفى حوالى عام ١٣٠ هـ ^(٢) . وقد عني بها من بعدهم من المؤرخين عناية شديدة ، كما نرى الحال عند الزهرى وابن إسحاق ، أضف إلى ذلك عناية المحدثين بها . كل هذا يجعلنا نطمئن إلى هذه الوثائق ، وخاصة إذا ما استبعدنا الوثائق التى تذكر أشياء لم توجد فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو التى تختلف مع الوقائع التاريخية ، أو فيها فخر قبيلة على أخرى . ومع ذلك يسلم لنا بعد كل هذا كثير من الوثائق ، نطمئن إليها كل الاطمئنان أو معظمه ، مثل كتب الأمان أو العهود العادية ، التى قد يكون فى بعضها ما لا يوافق رغبات المسلمين كصلح الحديبية .

خصائصها

تألف كتب الرسول صلى الله عليه وسلم من معاهدات وكتب أمان ، ورسائل ، وكتب قسمة للغنائم ، وإقطاعات . وتشترك كلها فى بعض الخصائص العامة ، كما يختص كل منها بخصائص لا توجد فى غيره .

فالمعاهدات تفرد بنوع من الإسهاب الذى يتناول كثيراً من التفاصيل ، ولكنه لا يعم جميع المعاهدات ، وإنما يخص المهمة منها ، مثل معاهدته مع ثقيف ^(٣) ، ومعاهدته مع أهل نجران ^(٤) ، بالإضافة إلى معاهدة المدينة التى

(١) الكتاتنى : التراتيب الإدارية ١ : ١٤٣ .

(٢) هوروفتس : كتب المعازى الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ، ٣٧ .

(٣) الحيدرابادى : مجموعة الوثائق ١٥٩ .

(٤) أحمد صفوت : الجهرة ١ : ٧٩ .

ذكرناها قبل^(١) . وكذلك نجدها مقسمة إلى مواد شبيهة بمواد المعاهدات في وقتنا الحاضر . وتبدأ المعاهدات في الغالب بالبسملة^(٢) ، إلا معاهدة الحديدية التي تبدأ بعبارة « باسمك اللهم » إرضاء لقريش^(٣) . ثم يذكر في آخر المعاهدات الشهود والكتاب ، وقد لا يذكر^(٤) . وما أقل ما يقتبس فيها من القرآن .

أما كتب الأمان فقصيرة موجزة ، بل قد تبلغ في القصر حداً لا تبلغه إلا الإقطاعات ، كما قد تطول في النادر . وتشابه كتب الأمان جميعاً على الرغم من اختلاف كتابها ، بل نجد فيها بعض العبارات التي تسكاد تتكرر على الدوام ، كأنها طابع لا بد أن تطمع به مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لَا يُحَاقُّهُ فِيهَا أَحَدٌ »^(٥) و « من حاقه فلا حق له ، وحقه حق »^(٦) « وما بَلَّ بحر صوفة »^(٧) وغيرها . وكان يبدوها أحياناً بالبسملة^(٨) ، وأحياناً أخرى يتركها^(٩) ، وأحياناً يبدوها بقوله : « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان »^(١٠) ، ولها عدة صور أخرى أيضاً .

ولكن الرسائل لا تتمتع بهذا التشابه ، فيختلف بعضها عن بعض ، تبعاً لوقتها والمرسل إليه . وعلى الرغم من هذه الاختلافات يغلب عليها بعض الخصائص .

-
- (١) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ . (٢) أحمد صفوت : المجهرة ١ : ٢٥ .
 (٣) الحيد رأبادي : مجموعة الوثائق ١٣ .
 (٤) يذكر الشهود والكتاب في صلح الحديدية ، ولا يذكر أحد في معاهدة المدينة الأولى . (٥) الحيد رأبادي : مجموعة الوثائق ٧٣ ، ٧٤ ، ١٤٩ . حاقه : خاصمه وادعى أنه أولى بالحق منه . (٦) نفس المرجع ١٤٣ ، ١٤٥ .
 (٧) نفس المرجع ١٣٠ ، ١٤١ . الصوفة : هنا الإسفنجة .
 (٨) نفس المرجع ٢٢ ، ١١٨ ، ١٢٠ .
 (٩) نفس المرجع ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ .
 (١٠) نفس المرجع ١٢٢ .

إذ تبدأ بالبسملة ثم « من محمد رسول الله إلى فلان ^(١) » أولا يأتي بالبسملة ويبدأ الرسالة باسمه مباشرة ^(٢) ، أو يقول « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان ^(٣) » أو « إلى فلان ^(٤) » مباشرة . وكان يأتي في صدور كتبه بالسلام فيقول المسلم : « سلام عليك ^(٥) » وغير المسلم « السلام على من اتبع الهدى ^(٦) » وربما قال « سلام على من آمن ^(٧) » كما كان يبدأ كتبه إلى من يدعوهم إلى الإسلام بقوله : « سلم أنت أو أتم ^(٨) » ، وربما أسقط السلام ^(٩) . وكان يأتي أيضا بالتحميد بعد السلام فيقول : « فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ^(١٠) » وربما تركه ^(١١) . وقد يأتي بالتشهد ^(١٢) ، وقد لا يأتي به ^(١٣) . وكان يبدأ أحيانا بعبارة « أما بعد ^(١٤) » .

(١) الحيدر أبادي : مجموعة الوثائق ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ . وتروى قصة طويلة عن البسملة ، وكيف وصل الرسول إلى معرفتها ، فيقولون إنه كان يفتح رسائله مثل العرب بقوله : « باسمك اللهم » فلما نزلت الآية « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » كتب « بسم الله الرحمن » ولما نزلت الآية « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » كتب بالبسملة كاملة ، انظر الجهمشيارى : الوزراء والكتابات ص ١٤٠ . ولكنى لم أجد في كتبه التي وصلت إلينا ما يؤيد ذلك ، إذ ليس فيها هذه الأطوار ، وإنما البسملة كاملة أو محذوفة برمتها . كاملة أو محذوفة برمتها ، بدلا من هذه الأطوار الأولى ، ما دامت هي الصورة الأخيرة التي ارتضاها النبي . ولم تذكر « باسمك اللهم » إلا في كتب المشركين من العرب ،

- وفي صلح الحديبية بأمر من قریش .
 (٢) نفس المرجع ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ .
 (٣) نفس المرجع ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ .
 (٤) نفس المرجع ٣١ ، ٦٢ .
 (٥) ٥٨ ، ٥٦ .
 (٦) نفس المرجع ٢٦ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٥٠ .
 (٧) نفس المرجع ٣٢ .
 (٨) نفس المرجع ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٩ .
 (٩) نفس المرجع ٣٠ ، ٤٠ .
 (١٠) نفس المرجع ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٦ .
 (١١) نفس المرجع ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ .
 (١٢) نفس المرجع ٢٦ ، ٥٤ ، ٥٦ .
 (١٣) نفس المرجع ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٠ .
 (١٤) نفس المرجع ٢٩ ، ٤٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

أما كتب أمرائه إليه فتشبهه كتبه في بداياتها وخواتيمها وأسلوبها ، غير أنها عند ما تذكر اسمه صلى الله عليه وسلم تبدأ به فتقول : « لمحمد النبي رسول الله من فلان ^(١) » ويبدو أن كتب المشركين من العرب كانت تبدأ بعبارة « باسمك اللهم ^(٢) » ، أو تتركها ^(٣) . وهي أيضا شبيهة برسائله صلى الله عليه وسلم في الأسلوب . وإذا قرأنا كتب الملوك الأعاجم إلى الرسول ، وجدناها تشبه كتبها في خصائصها ولغتها ، ولكننا لا نعتمد على ذلك كثيراً ، فإنها - في غالب الظن - مغيرة تغييراً كبيراً على يد الأدباء والمؤرخين المسلمين ، بل لعلها موضوعة لأن كثيراً منها لا يوافق الواقع التاريخي ، وبه نزعة إسلامية ظاهرة ، مثل كتب نجاشي الحبشة ^(٤) .

وإذا ما تركنا صدور الرسائل ونظرنا إلى أعجازها وجدناها أكثر اختلافاً . إذ ينتهي كل منها بحسب موضوعه ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعتمد بعض الخواتم أحياناً كالسلام مثلاً ، وله عدة صور : السلام العادي إذا كان المكتوب له مسلماً ، أو غير مسلم أحياناً ^(٥) ، وربما دعا له بعد السلام ، فيقول : « والسلام ورحمة الله ، يغفر الله لك ^(٦) » . فإذا كان غير مسلم قال في السلام : « والسلام على من اتبع الهدى ^(٧) » أو « والسلام عليكم إن أطعتم ^(٨) » . وكان السكاكيب في بعض الأحيان يدون اسمه في خاتمة الرسالة ، فيقول : « وكتب فلان ^(٩) » .

(١) نفس المرجع ٧١ . (٢) نفس المرجع ٩ .

(٣) نفس المرجع ١٦ ، ٨ .

(٤) الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٥) نفس المرجع ٥٢ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ . (٦) نفس المرجع ٥٨ .

(٧) نفس المرجع ٢٤ ، ٣١ ، ٦٤ . (٨) نفس المرجع ٣٢ .

(٩) نفس المرجع ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ١١٤ .

أما أسلوب هذه الرسائل فأسمى عادة من أسلوب الأنواع الأخرى من كتب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا السمو لا يخرج بها إلى مرتبة الصنعة ، وإنما إلى مرتبة فصاحة لغة الخطاب العادية . ويلاحظ في بعض الرسائل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضع نصب عينيه المكتوب إليهم ، فيكلمهم بما يقرب من لهجاتهم . ولعل هذا سبب كثرة الألفاظ الغريبة في رسالتيه لوائيل بن حُجر الحضرمي^(١) ولطيفة النهدي^(٢) مثلاً ، مما جعل بعض المُحدثين يشك فيها ، ويظن أنها من وضع بعض المتكلفين ، معتمداً في ذلك على الخبر القائل بأن ابن الأثير أهل ذات مرة نقل مكتوب منسوب للنبي صلى الله عليه وسلم وقال : « تركنا ذكره لأن رواته نقلوه بألفاظ غريبة وبدلوها وصحفوها »^(٣) . ويمتاز بعض رسائله أيضاً بتتابع الجمل القصيرة دون عاطف أو بعاطف ، ولكنها غير متصلة المعاني ، ولا يربط بينها غير الجو العام ، وهو النصيحة الدينية . يتضح هذا تمام الوضوح في عهده صلى الله عليه وسلم لعمر بن حَزْم الأنصاري حين ولاه على اليمن^(٤) . وتمتاز كتبه إلى الملوك الأعاجم ، وخاصة من أهل الكتاب ، بالافتباس من القرآن ، أو النظر إليه في مفرداتها ، بل قد تكون الرسالة كلها آيات قرآنية ، مثل كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل^(٥) . وكان الرسول ذا نظر بعيد في رسائله ، فإذا ما أرسلها إلى مسيحي أكثر من الآيات النازلة في حق عيسى ، كرسالته إلى النجاشي^(٦) ، وإذا

(١) نفس المرجع ١٢٨ .

(٢) نفس المرجع ٨٩ .

(٣) نفس المرجع بط .

(٤) نفس المرجع ١٠٤ .

(٥) نفس المرجع ص ٢٩ .

(٦) نفس المرجع ص ٢٥ ، ٢٦ .

ما أرسلها لأحد اليهود ربط بين نفسه وموسى عليه السلام ، مثل كتابه إلى يهود خيبر ^(١) .

وإذا ما تركنا الرسائل إلى كتب المقاسم والإعطاء ^(٢) ، نجد أننا انتقلنا نقلة كبيرة . إذ ليست هذه الكتب إلا إحصاءات ، لا يمكن للفن أن يتسرب إليها من طريق ، ولا تتعلق بالأدب بأى سبب ، ولذلك لا أتسكلم عنها فى هذا المقام .

الخصائص العامة

الآن وقد انتهى الكلام عن الخصائص التى يمتاز بها كل نوع من أنواع كتب الرسول ، لم يبق أمامنا إلا أن نعرف الخصائص العامة التى تصطبغ بها الكتب جميعاً . ولعل أوضح ميزة هى البساطة التى تنزل بها إلى مستوى لغة التخاطب الفصيحة لدى العرب فى ذلك الزمن ، وإن وشاها فى بعض الأحيان الجمال الطبيعى ، ولكنه لا يخرج بها عن مستوى لغة الحديث ، فما كانت تهدف إلا إلى إفهام المرسل إليهم مضمونها . تتضح هذه الميزة فى قوله فى معاهدة المدينة الأولى : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إسم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رباعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط

(١) نفس المرجع ص ١٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٧ ، ٢٢ .

بين المؤمنين ... الخ^(١) .

والميزة الثانية : الإيجاز الذى يدلنا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤدى ما يريد من المعانى بأقل ما يمكنه من لفظ ، وهذا ما اعتاده العربى العادى فى حديثه ، نرى هذا فى جميع رسائله تقريباً .

والميزة الثالثة : التزام بعض التعابير الخاصة مثل : « ما كان أحد مكانه » و « ما بل بحر صوفة » أى على الدوام ، وبعض التعابير التى ذكرناها آنفاً . ومن ذلك أيضاً استعمال بعض العبارات الغريبة مثل قوله : « من أطلع أهل مقنا بخير^(٢) » و « إن لهم سعاية فلان^(٣) » و « الليل مد والنهار شد^(٤) » .

والميزة الرابعة أننا نرى فيها التشبيه كثيراً ، والجاز ، والجمل التى تشبه الأمثال التى ذكرناها فى الميزة الثالثة . أما الاستعارة فقليلة ، لأنها تحتاج إلى بعض الصنعة الفنية . فنراه يقول فى رسالته لهوذة بن على : « واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والخافر^(٥) » ويقول لابنى الجندى : « وخيلى تحل بساحتكما^(٦) » أى تزيل ملسككما وتستولى على بلادكما .

- (١) نفس المرجع ص ١ . رباعة الرجل : شأنه وحاله التى هو رابع عليها ، أى ثابت مقيم . ويقال : تركناهم على رباعتهم : أى على أمرهم الذى كانوا عليه . والتعاقل من عقل القتيل ، أى إعطاء دينه ، والمعاقل : جمع معقلة « بضم القاف » وهى الدبة ومعنى يتعاقلون معاقلهم الأولى : أى يكونون على ما كانوا عليه فى الجاهلية من أخذ الديات وإعطائهما ، أو على مراتب آبائهم ، وأصله من ذلك . والعانى : الأسير . والقسط : العدل . (٢) الحيد رأيا دى : مجموعة الوثائق ٣٩ ، ومعناها : من أسدى إليهم معروفًا ومقنا: موضع . (٣) نفس المرجع ٤٩ ، والمعنى : إن لهم صدقة وزكاة (٤) نفس المرجع ٢٢ ، والمعنى : يشتد العهد كل ليل ونهار قوة ، فلا ينقص منه شيء . (٥) نفس المرجع ٦٥ . (٦) أحمد صفوت : الجمهرة ١ ٤٦٠ .

وأخيراً تخلو كتبه صلى الله عليه وسلم من الصنعة والحسنة، ومن العمل والتروى، وإن وجد فيها أحياناً شيء من توازن العبارات أو الازدواج أو السجع، الذى لا يخرج عما تأتى به الفطرة السليمة والطبع القوى .

كتاب الرسول

لعلنا الآن وقد انتهى بنا الحديث عن كتب النبي، فى حاجة لمعرفة كتابه صلى الله عليه وسلم . ونحن عند ما نحاول معرفة هؤلاء الكتاب، لا نجد الأمر بسهولة كما كنا نتوقع، إذ لم تصلنا جميع كتبه صلى الله عليه وسلم، ولم يكن جميع الكتاب يضعون أسماءهم فيما كتبوه من رسائل . ولذلك نرى الأقوال تتضارب فى عدتهم وأسمائهم . فيذهب الحافظ ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » إلى أنهم ثلاثة وعشرون، ولكنه يقرر فى « بهجة المحافل » أنهم خمسة وعشرون . ويوافق على هذا رأى ابن عبد البر فى « الاستيعاب » . ويقول القرطبى فى تفسيره إنهم ستة وعشرون . وهناك من يذهب بعيداً فيرى أنهم أربعون (الشبراملسى فى القضاء) أو اثنان وأربعون (أبو الوفا نصر المهورى فى مطالعه) أو ثلاثة وأربعون (البرهان الحلبي فى حواشى الشفا^(١)) . وذكر الجهشيارى بعضهم ولم يبين عدتهم . وقد حاولت أن أجمعهم، فعثرت بعد البحث على قريب من خمسة وأربعين كتاباً . ولا يخامرني الشك أنهم ليسوا جميع من كتب للرسول، إذ لا بد أنه قد فاتتنا أسماء كثيرة فى الإحصاء، كما يرجح أن ذكر كثيرين منهم ضاع فيما ضاع من كتب . ولعل اختلاف المؤلفين فى عددهم يرجع إلى أن منهم من لم يواظب على الكتابة للنبي صلى الله عليه وسلم إلا مرات قليلة، فأهل بعضهم ذكره .

(١) السكتانى: التراتيب ١ : ١١٥ .

تخصيص الكتاب

هل اختص كل واحد من هؤلاء الكتاب بنوع من الكتابة ؟

أشرت من قبل إلى الكتاب الذين اشتهروا بكتابة الوحي ، ولست في حاجة إلى تكرار الحديث عنهم . ويقال أيضا إن « خالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية ابن أبي سفيان [كانا] يكتبان بين يديه في حوائجه ^(١) » . وإنه « كان يكتب له للبوادي معاوية ^(٢) » وإن « المغيرة بن شعبه والحُصَيْن بن مُنِير [كانا] يكتبان ما بين الناس ^(٣) » أو « يكتبان في حوائجه ^(٤) » أو « المدائبات والمعاملات ^(٥) » و « ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا ^(٦) » وإن « عبد الله بن الأرقم بن عبد يَفُوث ، والعلاء بن عُبة [كانا] يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياهم ، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء ^(٧) » وإنه « ربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك ^(٨) » وإنه « كان حُذَيْفَةُ بن اليمان يكتب خَرُص ثمار الحجاز ^(٩) » وأن « زيد بن ثابت [كان] يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي ^(١٠) » وإن كاتب النبي « المواظب على الرسائل والأجوبة ، والذي كتب الوحي كله ، زيد ابن ثابت ^(١١) » وإنه كان كاتبَ سِرِّ النبي صلى الله عليه وسلم ^(١٢) ، وإن أبا بن

-
- (١) الجهمياري : الوزراء والكتاب ١٢ . (٢) السكتاني : الترايب ١ : ١٢١ .
 (٣) الجهمياري : الوزراء والكتاب ١٢ . (٤) السكتاني : الترايب ١ : ١٢٣ .
 (٥) نفس المرجع ص ١٢٤ . (٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٥ .
 (٧) الجهمياري : الوزراء والكتاب ١٢ . (٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٦ .
 (٩) نفس المرجع ٣ : ٦ . الخرص القدر . (١٠) الجهمياري : الوزراء والكتاب ١٢ .
 (١١) السكتاني : الترايب ١ : ١١٧ . (١٢) نفس المرجع ١١٩ .

كعب وزيد بن ثابت « كانا يكتبان بين يديه صلى الله عليه وسلم ، ويكتبان كتبه للناس ، وما يُقَطَّع وغير ذلك ^(١) » وإن « مُعَيْقِبُ بن أبي فاطمة . . . كان يكتب مغائم رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) » وإنه « كان حَنْظَلَةُ بن الربيع . . . خليفة كل كاتب من كتّاب النبي إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكتّاب ، وكان يضع عنده خاتمه ^(٣) » ، وإن كاتبي اليهود هما علي بن أبي طالب وعامر بن فُهَيْرَة ^(٤) ، وإن « الزبير بن العوام وجههم بن الصلت [كانا] يكتبان أموال الصدقات ^(٥) » وإن « شرحبيل بن حسنة [كان] يكتب التوقيعات إلى الملوك ^(٦) » .

حين ننظر إلى هذه الأقوال نجد الأقدمين — على الرغم من اختلافهم — شعروا بشيء من التخصص بين كتّاب النبي . وذلك أمر غير غريب ، إذ أن كل امرئ لا بد أن تبرز ناحية من نواحيه على النواحي الأخرى ، فيخصص له ما يلائم هذه الناحية . وكذا الأمر مع هؤلاء الكتّاب . ولو أنعمنا النظر في الأقوال السابقة وأحببنا أن نخرج منها بأشياء واضحة ، ليس فيها ظلام الاختلاف ، لا مكفنا ذلك بالنسبة لبعض الكتّاب . فحذيفة بن اليمان كاتب خَرَص الحجاز ، وزيد ابن ثابت كاتب الملوك ، فإن غاب ناب عنه عبد الله بن الأرقم ، ومُعَيْقِب بن أبي فاطمة كاتب المغائم ، ومعاوية بن أبي سفيان كاتب البوادي ، والزبير بن العوام وجههم بن الصلت كاتب أموال الصدقات ، وعلى بن أبي طالب كاتب المعاهدات ، فإن غاب كتبها عامر بن فُهَيْرَة أو غيره .

(١) نفس المرجع ١٢٠ .

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتّاب ١٢ .

(٣) نفس المرجع ١٢ . (٤) السكتاني : التراتيب ١ : ١٢٣ .

(٥) نفس المرجع ١٢٤ . (٦) نفس المرجع ١٢٤ .

ويجب أن ننظر إلى هذا التخصص نظرة هيئة لينة ، فهو ليس بالنظام الصارم الواجب اتباعه ، وإنما هو نظام يُحاول مراعاته ، فإن غاب أحد السكتاب « أمر [الرسول] من حضر أن يكتب له ^(١) » . ونحن إذا حصرنا الرسائل الموقع عليها باسم كاتبها ، وحاولنا معرفة تخصص صاحبها نجحنا في تعيين بعض الكتاب ، مثل عليّ كاتب المعاهدات ، وأخفقنا في تعيين بعضهم الآخر . وآخر ما نقول إنه وجد نظام خفيف من التخصص ، ولكنه أهمل كثيراً لعدم مواظبة الكتاب على الحضور إلى مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ لم يكن الحضور فرضاً عليهم ، ولم يكونوا معينين كتاباً له صلى الله عليه وسلم .

وقد صنفتُ الرسائل التي كتبها كتاب مختلفون في موضوع واحد ، رجاء أن أجد ما يدل على شخصية كل كاتب من المزايا الخاصة ، فتبين لي أن رسائل الأمان التي كتبها علي بن أبي طالب ، والتي كتبها المغيرة بن شعبة ، والتي كتبها معاوية ، وغير هؤلاء من الكتاب ، كلها متشابهة شبيهاً يكاد يكون تاماً . وكذا الأمر في أنواع الكتب والوثائق الأخرى . فشخصية الكاتب غير ظاهرة في هذه الرسائل . أما السبب فواضح ، فهذه الرسائل كلها من إملاء الرسول نفسه ، وهذا الإملاء أمر معروف غير محتاج إلى إثبات . والشئ الوحيد الذي أشار إليه المؤرخون هو أن عبد الله بن الأزرق كان يستقل أحياناً بكتابة بعض الرسائل ، بأمر النبي صلى الله عليه وسلم . وكان الرسول يميز ما كتب ^(٢) . وأظن أن الكتاب ، في مثل هذه الحالة ، كان يحتذى فيما يكتب على مثال رسائل النبي ، وكأنه يملئ عليه ، فتخرج رسالته على نمط رسائل الرسول . ولذلك غلبت هذه الصفات العامة على جميع الرسائل

(٢) السكتاني : التراتيب ١ : ١٢٠ .

(١) نفس المرجع ١٢٠ .

في عهد النبي . ومن الأسباب الأخرى لهذه الحالة ، أن الكتاب كانوا يكتبون دون روية وتفكير ، ودون محاولة للافتنان — إذا كانوا استقلوا بأنفسهم — وإنما قصارى غايتهم إفهام المكتوب إليه ما يريدون من معان ، بأقرب طريق وأسهل أسلوب ، ولذلك تشابهت لهجاتهم في كتبهم . وإذا فنحن لا نستطيع أن نتبين شخصية خاصة أو أسلوباً معيناً ، لأحدهؤلاء الكتاب في مجموع كتب الرسول .

هذه هي حال الكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل يمكننا أن نطلق عليها اسم الكتابة الفنية ؟ أعتقد من الواضح الذي لا شك فيه ، بعد كلامنا الطويل ، أننا لا يمكننا ذلك ، فإنها ليست إلا كتباً مرتجلة ، سريعة ، مملاة بلغة سهلة هي لغة الحديث ، لا يُوشَّيها شيء من عمل أو جمال ، غير فصاحة لغة الحديث عند العرب ، بل تهبط لغتها كثيراً عن لغة الخطابة التي كان لها تقاليد المرعية ، وقواعدها الأدبية ، منذ العصر الجاهلي ، ولم تكن تسمو إليها إلا في بعض الرسائل .

ديوان الرسائل

هل وجد ديوان للرسائل في عهد النبي ؟

إذا رجعنا إلى آراء الأقدمين في ذلك ، وجدنا القلقشندي يقول ^(١) : « اعلم أن هذا الديوان [ديوان الرسائل] أول ديوان وضع في الإسلام ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكتبونه ، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، وبعث إليهم رسله بكتبه ... وهذه المكتوبات كلها متعلقة بديوان الإنشاء ، بخلاف ديوان الجيش ، فإن أول من وضعه ورتبه عمر بن الخطاب في خلافته » .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٩١ .

ولكن هذا القول لا يعتمد على أساس قوى ، فلا تلازم بين ديوان الإنشاء وهذه الكتابات ، إذ قد توجد هذه ، ولا يوجد هذا الديوان الذى يتألف من كتاب مُتَرَوِّين مُحَسَّبِينَ متحملين ، متأنقين متفنين . ولم يوجد فى عهد الرسول مثل هذا الصنف من الكتاب الذين يخلون بأنفسهم ، ويكتبون من عندهم ، وإنما وجد كتاب مُتَمَلَّى عليهم كتبهم ، فيكتبونها كما يملئ الرسول . وقد بالغ القلقشندى فى هذا الادعاء ، مبالغته التى تراها فى ادعائه بأن ديوان الجيش والدواوين الأخرى وضعت فى عهد الرسول أيضاً ، ولكنها لم تكن فى شهرة ديوان الإنشاء^(١) ، وخاصة أن من قبله لم يذكروا جود هذا الديوان فى العهد النبوى . ولذلك لا يمكننا تصديق هذا الخبر ، بل نقول إن هذا الديوان لم يوجد حتى فى عهد الخلفاء الراشدين أنفسهم . وكل ما يمكن قوله هو وجود الأساس الذى سَيُسَيِّدُ عليه فيما بعد ديوان الرسائل .

عهد أبى بكر

لا يتغير الحال كثيراً حين نأخذ فى عرض تاريخ الكتابة فى عهد أبى بكر الصديق . فالكتاب هم الكتاب^(٢) ، والكتب نفس الكتب ، والأسلوب هو بعينه أسلوب الكتابة فى عصر النبي . والأمر الجديد الذى نلاحظه هو اندلاع نيران الحروب فى أنحاء شبه الجزيرة بين المسلمين وللمرتدين أولاً ، ثم امتداد الالهب إلى الحدود الخارجية

(١) نفس المرجع ٩١ .

(٢) يقول الجهم شيارى : الوزراء والكتاب ١٥ : إن عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم وحنظلة بن الربيع كتبوا لأبى بكر . وما أشك كثيراً فى أن الأحياء من كتاب النبي قد كتبوا أيضاً لأبى بكر ، أو ترأسوا معه فى الأحداث الإسلامية الجديدة .

وأراضى العراق والشام ، مما جعلهم يكثرون من الكتابة في شأن هذه الحروب من وصايا للقواد^(١) ، ومماهدات^(٢) ، ودعوات للإسلام^(٣) ، وما إلى ذلك من الأمور التي تتصل بالحروب من قريب أو بعيد . وكما يبرز خالد بن الوليد قائداً ، كذلك يبرز كاتباً ، فنراه يكتب أغلب الكتب في عهد الصديق ، كما يؤخذ من مطالعة كتابي الوثائق السياسية وجمهرة الرسائل . ولا أعنى بذلك أن خالدا كتب جميع هذه الرسائل بيده ، بل كان له كتابه أيضاً ، إذ ذكروا أن حنظلة بن الربيع كتب له كتابين^(٤) . وظهر أمر جديد آخر هو عهد الولاية ، أعنى بذلك عهد أبي بكر لعمر^(٥) .

ولا نحتاج للإكثار من الكلام عن هذه الفترة ، إذ ينطبق عليها ما قيل عن فترة الرسول كل الانطباق ، وخاصة أنها لم تستغرق غير وقت قصير امتلاً بالأحداث التي شغلتهم عن كل جديد . وقد شعر بذلك الأقدمون حتى قال القلقشندي^(٦) : « وكانت [رسائل الصديق] تفتتح بلفظ : من أبي بكر خليفة رسول الله^(٧) صلى الله عليه وسلم إلى فلان ، وباقي الكتاب من نسبة كتب النبي صلى الله عليه وسلم ، من التصدير بالسلام ، والتحميد ، والتخلص بأما بعد ، والاختتام بالسلام ، وما يجري هذا الجرى » .

وهاك شاهداً من كتب أبي بكر إلى المثنى^(٨) بن حارثة :

-
- (١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ١١٧ ، ١٢٤ . (٢) نفس المرجع ١٢٠ ، ١٣٢ .
 (٣) نفس المرجع ١٤٠ . (٤) الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق السياسية ، الوثيقتان رقم ٢٢١ ، ٢٢٦ . (٥) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ١٥٥ .
 (٦) صبيح الأعشى ٦ : ٣٨٤ . (٧) كتب أبو بكر أيضاً : أمين رسول الله . انظر كتابه إلى الدارين في مجموعة الوثائق السياسية ٤٧ .
 (٨) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ١٣٠ .

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ،

فإن صاحبك العجلى كتب إلى يسألني أموراً ، فكتبت إليه أمره بلزوم
خالد حتى أرى رأيي . وهذا كتابي إليك ، أمرك ألا تنبرح العراق ، حتى يخرج منه
خالد بن الوليد . فإذا خرج خالد منه ، فالزم مكانك الذي كنت به ، فأنت أهل
إسكل زيادة ، وجدير بكل فضل .

والسلام عليك ورحمة الله ، ، ، »

عمر عمر

إذا ما قلبنا هذه الصفحة من كتاب التاريخ ، ونظرنا إلى صفحة عمر بن الخطاب
وجدنا الطريقة لم تكد تتغير ، والإملاء لا يزال موجوداً^(١) . ولسكننا على الرغم
من هذا يجب أن نعطي الخبر التالي أهميته الجديرة به . يروى الجهمشباري^(٢)
بعض أخبار زياد بن أبيه ، ثم يبين أن عمر بن الخطاب أراد اختباره ككاتب ،
فيقول : « ثم دعا [عمر] زياد فقال له : ينبغي أن تكتب إلى خليفتك بما
يجب أن يعمل به . فكتب إليه كتاباً ، ودفعه إلى عمر . فنظر فيه ثم قال : أعد .
فكتب غيره . فقال له : أعد . فكتب الثالث . فقال عمر : لقد بلغ ما أردت
في الأول ، ولسكنني ظننت أنه قد رَوَّى فيه ، ثم بلغ في الثاني ما أردت ، فكرهت
أن أعلمه ذلك ، وأردت أن أضع منه ، لئلا يدخله العجب فيهلك » . فإنما عندما

(١) الجهمشباري : الوزراء والسكرات ١٩ . (٢) نفس المرجع ١٦ .

نتأمل في هذا الخبر نستطيع أن نرى فيه ما كانوا يطلبونه من السكاتب في ذلك العصر . فهل طلب عمر من زياد صحة كتابة ، وحسن خط ، أم طلب منه شيئاً آخر ؟ من الواضح أنه أعطاهم وضوعاً وطلب منه أن يصوغه بأفكاره والمأظله . وإذا فهم لم يكونوا يطلبون من السكاتب إصغاء للعمل ، وتدويناً لما يملأ فحسب ، بل كانوا يطلبون منه أيضاً أن يحسن الكتابة من عنده أيضاً . ولعل في هذا دليلاً واضحاً على أن السكاتب كان يطلب منه أحياناً أن يكتب بعض الرسائل بنفسه دون إملاء . وإذا هو مستطيع أن يتروى - كما خاف عمر - وأن يتأنق بعض التأنق الذي تسمح به طبيعة عصر عمر . ومن المؤسف حقاً ألا نروى لنا هذه الرسالة التي اتهمها عمر بالتروى ، حتى يمكننا أن نوازن بينها وبين الرسائل التي وصلتنا من هذا العصر . ولكن يغلب على الظن أنها لا تفترق عنها كثيراً ، إلا و ظهور طابع زياد الفصيح عليها .

وهذه الظاهرة لها أهميتها العظيمة ، فإننا إذا كنا قلنا عن عبد الله بن الأرقم إنه كان يحاكي كتب الرسول في رسائله التي كتبها منفرداً ، فإننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن زياد وعمر ، وإذا قلناه ، فإنه يكفيننا أن نلاحظ أن السكاتب بدأ يكتب بمفرده ، بل بدأ يتروى أيضاً في زمن مبكر جداً ، ألا وهو أوائل صدر الإسلام .

ولم يتغير الأسلوب السكاتبى عما قبل ، يقول الفاروق شندى^(١) : « كان [عمر] يكتب في كتبه : من عمر بن الخطاب خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان^(٢) .

(١) صبح الأعشى ٦ : ٣٨٦ .

(٢) لم أجد هذه العبارة فيما بين يدي من رسائل عمر .

فلما تلقب بأمر المؤمنين أثبت هذا اللقب في كتبه ، وزاد في ابتدائها لفظ «عبدالله» قبل اسمه ، ليكون اسمه نعتاً له ، فكان يكتب : « من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى فلان »^(١) . وباقي الكتاب على ما صر في كتب النبي صلى الله عليه وسلم والصديق . غير أننا نلاحظ في كثير من هذه الرسائل ظهور شخصية عمر أصدق ظهور . ولعل ذلك هو الذي يميز كتب عمر عن كتب النبي والصديق . فيظهر فيها شيء من الشدة التي اشتهر بها عمر ، والإكثار من أسلوب التحذير والإغراء ، يقول في كتابه لسعد بن أبي وقاص^(٢) : « وإياكم والضحك : والوفاء الوفاء » ويقول في كتابه لأبي موسى الأشعري^(٣) : « الفهم الفهم فيما يتجلى في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة ... وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم » ، ويكثر أيضاً من الجمل القصيرة المنفصلة ، التي تدل على انفعال متدفق مطلق لا يكبحه زمام ، ونفس شديدة مندفة لا تخاف لومة لائم ، ويكثر أيضاً من الأوامر والنصائح ، فتمثل شخصيته كأنه يتكلم بنفسه ، فقارئ رسائله يتخيله أمامه . هذا إلى جانب شخصيته في الأفكار التي تجول في رسائله . ويتضح كل هذا تمام الوضوح في مراسلاته مع سعد بن أبي وقاص ، وفي رسالته المشهورة في القضاء إلى أبي موسى الأشعري^(٤) .

ومما هو جدير بالذكر ظهور الدواوين في عهد عمر^(٥) . إذ احتاج المسلمون عندما فتحت الأقطار ، وتدقت الأموال ، إلى السكينة والحسبة ، فأنشؤا الدواوين ، مثل ديوان الخراج ، وديوان الجند^(٦) . أما ما يروى عن وجود هذه

(١) الحيد رابادي : مجموعة الوثائق ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، وغيرها .

(٢) الحيد رابادي : مجموعة الوثائق ٢٢٨ . (٣) نفس المرجع ٢٤١ .

(٤) نفس المرجع ٢٤٠ . (٥) ابن الأثير : السكامل ٣ : ٣٥ .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٩١ .

الدواوين في عهد الرسول فلا دليل عليه ، ولا يمكن أن تثق به (١) . ولكننا لن نعطي هذه الدواوين كثيراً من الأهمية لأنها مجرد إحصاءات وأرقام لا تتصل بالكتابة الفنية عن قرب أو بعد ، بل كان بعضها يكتب باللغات المحلية . فكان ديوان الخراج يكتب بالفارسية في فارس ، والرومية في الشام ، والقبطية واليونانية في مصر ، إلى أن عُرِّبت هذه الدواوين في العصر الأموي (٢) . أما أهمية هذه الدواوين فهي دلالتها على تقدم المصالح في الدولة ، وأخذ الحكومة في تخصيص فروع مختلفة للمسائل المتنوعة ، مما يدل على أخذ النظام الإداري في الاستقرار والنضج .

ويهمنا أن نلفت النظر أيضاً إلى تعدد الدواوين في الأمصار المختلفة في عهد عمر ، فديوان للخراج بالعراق ، وآخر بالشام ، وثالث بمصر . وليس الأمر مقصوراً على هذا الديوان ، بل نجد دواوين أخرى متعددة للجند ، إذ يذكرون أن أبا جبير ابن الضحاك كان على ديوان الكوفة (٣) ، وأن عبد الله بن خلف الخزازي كان على ديوان البصرة (٤) ، ويقصدون بذلك ديوان الجند ، كما سنرى . يضاف إلى ذلك ابتكار نظام البريد مما ييسر المراسلات .

ونلفت النظر أيضاً إلى ظاهرة أخرى هامة ، هي اتخاذ الولاة والأمراء للكتاب الخاصين ، كما روى أن زياد بن أبيه كان كاتباً للمغيرة بن شعبة ، ثم لعبد الله بن عامر ابن كرز ، ثم لعبد الله بن عباس ، ثم لأبي موسى الأشعري (٥) ؛ وأن للمغيرة بن

(١) نفس المرجع ٩١ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ١ : ٣٤٧ .

(٣) الجهمشياري : الوزراء والكتاب ١٦ . وابن عسك ربه : العقد

الفريد ٣ : ٧ .

(٤) ابن عسك ربه : العقد الفريد ٣ : ٧ . (٥) نفس المرجع ٩

شعبة كان كاتباً لأبي موسى الأشعري أيضاً ، وأن عبد الرحمن بن أبيزى كان كاتباً لنافع بن الحارث وإلى مكة ^(١) .

وهذه الظواهر كلها هامة تدل على حركة داخلية في ميدان الكتابة ، إذ ستخلق طبقة خاصة من الكتاب ، ليسدوا حاجة هذه الدواوين المختلفة ، والأمراء الكثيرين . وهذه الطبقة الخاصة من الكتاب هي التي ستسير بالكتابة إلى مرحلة الفن .

عهد عثمان

حين يتولى عثمان الخلافة نرى ظاهرة جديدة هامة أيضاً ، إذ يبعث للمنشورات إلى النواحي المختلفة من الدولة العربية يبين فيها سياسته الجديدة ، فكتاب لعماله ، وآخر لأمراء الأجناد ، وثالث لعمال الخراج ، ورابع للعامة ^(٢) . ولا تختلف لغة هذه الكتب عن لغة الكتب السابقة في عهد الخلفاء الراشدين ، ولكنها تقرب من كتب عمر أ كثر مما تقرب من كتب النبي والصديق ، فهي في العهد الأخير تسير نحو التروى والتجمل . بل نجد في كتب عثمان نوعاً من المجاز والعمل لا نجده عند من قبله . ويظهر هذا المجاز في الميل إلى التشخيص ، فهو يقول في رسالته إلى معاوية حين قام أبوذر بدعوته في الشام : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها ، فلم يبق إلا أن ترتب ، فلا تنسكأ القرح » ^(٣) . ويقول لأهل الكوفة عند ما عزل عنهم سعيد بن العاص : « والله لأفرشكنكم عرضي » ^(٤) ، وغير ذلك كثير في كتبه . والخطوة الثانية إلى التجمل

(١) نفس المرجع ٩ . (٢) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٨٩ — ٢٩٣ .

(٣) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٩٦ . الخطم : جمع خطام ، وهو الزمام .

(٤) نفس المرجع ٣٠٦ .

هي تحلية رسائله بالقرآن ، بل تكاد تكون رسالته التي بعثها مع ابن عباس ليقرأها في الحج قرآنا كلها ^(١) . والخطوة الثالثة تحلية رسائله بالشعر ، نرى ذلك في رسالته وهو محصور إلى علي ^(٢) ، وفي رسالة مروان بن الحكم إلى معاوية ويَعْلَى بن مُثَنِيَة يستصرخهما من أجله ^(٣) ، إذ قال في آخرها : « فِجْدًا فِي طَلَب مَا أَتَمَّا وَلِيَّاء ، وَعَلَى ذَلِكَ فَلْيَكُن الْعَمَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكُتِبَ فِي نَهَائِيهَا :

وَمَا بَلَغْتُ عُمَانَ حَتَّى تَحْمَطَتْ رِجَالُ وَدَانَتْ لِلصَّغَارِ رِجَالُ
لَقَدْ رَجَعْتُ عَوْدًا عَلَى بَدْءِ كَوْنِهَا وَإِنْ لَمْ تَجِدْهَا فَلْمَصِيرِ زَوَالُ
سَيُبْدِي مَكْنُونِ الضَّمَائِرِ قَوْلُهُمْ وَيُظْهِرُ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَالُ
... الأبيات »

ولسكننا يجب ألا نأقْبِلَ القول على عواهنه ، فنثبت هذه الظواهر ، ونترك الأمر يمر سهلا هينا ، بل يجب أن ننبه إلى أننا وصلنا إلى مرحلة مخوفة بالأخطار . فنذ قِيَامُ الفتنَةِ كَثُرَتِ المحترقات والمذحولات التي لم يستطع رجال الأدب والتاريخ تبين زيفها من صدقها حتى اليوم . ولذلك يجب أن نسير بحذر ، وألا نقبل كل ما روى لنا إلا بعد فحص وتميز ، وأن نثبت هذه الظواهر على أنها أمور ظنية لا يقينية ، خشية أن يكون بعض ماورد من النصوص في هذه المدة قد صنعه منتحلوه في زمن متأخر .

(٢) نفس المرجع ٣١٢ .

(١) نفس المرجع ٣١٥ .

(٣) نفس المرجع ٣٣٥ .

عشر على

إذا كنا نشك بعض الشك في رسائل عثمان ، فإن الشك في رسائل علي يحيط بقا من جميع الأنحاء . وقد نسب إلى علي ما يؤلف المجلدات من رسائل وخطب ، وما نستطيع أن ثبت له واحدة بيقيناً . وقد بلغ الأمر في تغيير هذه الرسائل إلى درجة أننا نرى الرسالة الواحدة في الطبرى وفي نهج البلاغة . ولاكتهما لا يمت بعضهما إلى بعض بصلة من شدة الخلاف . روى الطبرى أن علياً حين خرج من الحجاز في إثر عائشة ، حتى نزل الرَبْذَة ، كتب إلى أهل الكوفة : « إني اخترتكم على الأمصار ، وفزعتُ إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً ، وأيدُّونا وأنصُرُوا إلينا ، فالإصلاح ما نريد ، لتعود الأمة إخواناً ، ومن أحبَّ ذلك وآثره ، فقد أحبَّ الحقَّ وآثره ، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحقَّ وغمصه ^(١) » . وتروى هذه الرسالة في نهج البلاغة كما يلي : « من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، جبهة الأنصار ، وسنام العرب ،

أما بعد ، فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمُّه كميانه ، إن الناس طعنوا عليه فكنتُ رجلاً من المهاجرين أكثر استمْتَابَه ، وأقلَّ عتابَه ، وكان طلحة والزبير أهونُ سيرهما فيه الوجيف ، وأرفقُ حُداهما العنيف ، وكان من عائشة فيه فلتة غضب . فأنيحَ له قوم فقتلوه ، وبايعني الناسُ غيرَ مستكرهين ولا مُجبرين ، بل طائعين مُحبِّرين .

واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وأقلعوا بها ، وجاشت جيش المِرْجَل ،

(١) الطبرى : تاريخ ١ : ٣١٤٠ . غمص : احتقر .

وقامت الفتنة على القطب ، فأُسْرِعُوا إلى أميركم ، وبادِرُوا جهادَ عدوكم ، إن شاء الله . فحَسْبِي بكم إخوانا ، وللدين أنصاراً ، فأنفروا خِفَافاً وثِقَالاً ، وجَاهِدُوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله لعلكم تفلحون^(١) .

ولعلنا رأينا الرسالة الثانية تدور حول ما دارت عليه الرسالة الأولى ، وخاصة في عَجَزِهَا ، ولسكنها تزيد عليها في اعتذارها لعلی ، وإلقاء اللوم على طلحة والزبير وعائشة . ولعل هذا من وضع الشيعة ، أو كان في رسالة أو خطبة أخرى لعلی وألحقها الشريف الرضي بهذه الرسالة ، لأنه كان يهدف إلى جمع البليغ من كلام على وكفى ، يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة معلقاً على إحدى رسائل على إلى معاوية : « إن هذه الخطبة — يريد الرسالة — قد ذكرها نصر بن مزاحم في كتاب صفين ، على وجه يقتضي أن ما ذكره الرضي — رحمه الله — منها قد ضُمَّ إليه بعض خطبة أخرى . وهذه عادته ، لأن غرضه التقاط الفصيح والبليغ من كلامه^(٢) » .

ولا تقتصر هذه الروايات المتعددة على عهد على وحده ، بل وجدت أيضاً في عهد عمر ، وشاهدنا على ذلك الرسائل المتبادلة بين عمر وعمر بن العاص التي تذكرها جمهرة رسائل العرب فيما بين صفحتي ٢١٣ و ٢٢٨ من الجزء الأول . وتعرقل تلك الروايات المختلفة بحثنا عن خصائص الرسائل ، بل قد تؤدي بنا إلى الخطأ .

هذا إلى جانب الرسائل الكثيرة الموضوعة على هذا العهد من الأنصار

(١) الرضي : نهج البلاغة ٣ : ٢ ، وابن أبي الحديد : شرح النهج ٣ : ٢٩١ . الوجيف : العدو .

(٢) ابن أبي الحديد : نهج البلاغة ٣ : ٤١٢ -

والخصوم . ولذلك نرى أنفسنا ، حين نؤرخ للكتابة في عصر عليّ ، سائرين على أرض غير مطمئنة ، إذ لا نستطيع أن نقطع في الرسائل برأى جازم ، وإنما هي ظنون واحتمالات .

والأمر الأول الذي نلاحظه كثرة الرسائل كثرة ملحوظة ، وذلك راجع إلى النزاع بين علي وخصومه ، طلحة والزبير وعائشة ، فعاوية وعمرو ، فالخوارج ، وأنصار كل من هؤلاء ، وإلى تأليب عليّ عليهم ، وحته قواده إلى استنفار الناس لهم ، وإلى مقابلتهم له بمثل عمله . وهذا الأمر يذهب بكتابة الرسائل إلى الأمام خطوات .

ونلاحظ أيضاً أن الرسائل أخذت تطول ، ولا تقتصر على المسحة الدالة ، أو الإيماء الموجزة . وهذا أمر لم يكن معروفاً من قبل ، ولعل من أسبابه ذلك النقاش السياسي بين علي وخصومه .

والأمر الثالث أنها تسير على خطّ رسائل عثمان من استشهاد بالقرآن والشعر بل كانوا يذكرون القصيدة الكاملة في الرسالة الواحدة في بعض الأحيان ، كما نرى في كتاب عياض الثمالي إلى شرحبيل بن السمط السكندى ^(١) ، وفي بعض كتب معاوية إلى علي ^(٢) ، وفي الكتب المتبادلة بين الوليد بن عقبة ومعاوية ^(٣) وغيرها . وهذا نوع من التجميل ولا شك يحسب عند بيان تطور الرسائل . ونرى في بعض الرسائل عملاً وصنعة ، من تألق في اختيار الألفاظ والجل ، وسجع أحياناً ، وما إلى ذلك .

(١) أحمد صفوت : الجهرة ١ : ٣٩٤ . (٢) نفس المرجع ١ : ٣٩٨ .

(٣) نفس المرجع ١ : ٣٩٠ - ٣٩٣ .

وما نستطيع أن نثبتته هو أن هذه الرسائل أخذت تسير في سبيل الفصاحة الطبيعية ، بل بلغت الغاية في بعضها ، وإن لم يكن السكاتب قد استقل تماماً عن الإملاء^(١) ، فما يزال الوليد بن عقبة يقول لمعاوية^(٢) :

فَإِنْ كُنْتَ تَفْوِي أَنْ تُجِيبَ كِتَابَهُ فَقُبِّحَ مُمْلِيهِ وَقُبِّحَ كَاتِبُهُ

الخلاصة

وخلاصة القول أن كتابة الرسائل في عهد النبي والخلفاء الراشدين كانت ناشئة مبتدئة ، ليست لها تقاليد مرسومة أو قواعد محكمة . ولكن الرسول كان على ما يخطر على باله دون تَرَوٍّ أو نظر ، ولا يستوحى غير عقله وقلبه وما يريد من قصد . ولذلك كانت لغته بسيطة خالصة صريحة لا ترتفع في شيء عن لغة الحديث إذ تقصد اللغتان إلى مجرد الإفهام .

أما ما اتبعه من نُظُم في أوائل الرسائل وخواتيمها ، فإن هي إلا أمور اقتضتها الدعوة التي يبشر بها . فلما جاء خلفاؤه ساروا على منواله ، ولم يخلوا بنظمه ، وهنا نستطيع أن نقول إن هذه النظم أصبحت تقاليد مرعية . ولكن يجب أن ننظر إلى هذا الرأي نظرة سهلة غير متشدة ، إذ أن الخلفاء كانوا يتبعونها اتباعاً دينياً لأديبا ، فهم يعتبرونها سنة من الرسول . ولذلك نرى رسائل علي التي يرسلها إلى معاوية يدعوه فيها إلى الطاعة والانطواء تحت لوائه تشبه كتب الرسول إلى الملوك ورؤساء العرب شهما كبيراً . وإذن فهذه تقاليد دينية ، لا تقاليد أدبية ، يمكن أن نعتبرها تقاليد فنية . ولم تتطور لغة الرسائل كثيراً في هذه الفترة ،

(١) انظر وصية علي لكتابه في الوزراء والكتاب ، ٢٣ .

(٥) احمد صفوت : الجمهرة ١ : ٣٩٢ .

إذ لا تزال تهدف إلى مجرد الإفهام ، وإن كنا نرى فيها بعض آثار نبي . عن
تنبههم الداخلي ، أو عن إحساسهم المبهم بالتجمل في كتبهم . نرى ذلك في الرسائل
المتأخرة ، وخاصة عند عثمان ، وعلى . وعلى الرغم من شيوع نظام الإملاء فإن
بعض الكتاب تحرروا من سيطرة المملى حتى في عهد النبي ، وذلك أمر له أهميته
في الفن ، يفسح الطريق لإبراز شخصية الكاتب ، ولتجويده وتحبيره وتفننه .

وقد ظهرت عدة ظواهر تدل على أن كتابة الرسائل تعاني حركة داخلية وانفعالا
عنيفاً يشير إلى تطور هذه الكتابة وسيرها إلى الأمام . ومن هذه الظواهر
شيوعها ، وكثرتها ، ووجود الدواوين ، وانتشار هذه الدواوين في الأمصار المختلفة ،
وظهور الكتاب الخاصين بالأمراء والولاة ، والإطناب بدل الإيجاز ، والتجمل
بالاقتباس من القرآن والاستشهاد بالشعر ، والميل إلى التشخيص ، وما إلى ذلك
من التجمل الطبيعي ، الذي لا يبلغ حد الصنعة . أما الرسائل التي نرى فيها هذه
الصنعة ، مثل رسالة عمرو بن العاص في وصف مصر فلا يمكن أن نطمئن إليها .
وآخر القول إن هذه الكتابة لم تكن فنية بالمعنى المصطلح عليه ، ولسكنها كانت
تسير نحو الفن بخطا حثيثة .

الفصل الثالث

عهد الأمويين

بدأ الأمويون صفحة جديدة من التاريخ الإسلامي ، تغاير الصفحات السابقة كبير مغايرة . فقد قامت تلك الدولة على أسس دينوية تغاير أسس العهد السابق ، وأحسن قول نعتت به أنها نحات من خلافة إلى ملكية وراثية ، تشبه ملكية فارس والروم ، كما قال كثير من العرب أنفسهم . ولعل من القول للمعاد أن نقول إن العرب اطلعوا على أقطار جديدة بالفتوح الإسلامية ، وإن لواء الأمويين أطل عناصر غير عربية الجنس ، ولكنها أخذت تتقبل دين العرب ، وفقهم وأدبهم . ومن القول للمعاد أن نقول إن هذه العناصر المستعربة مخالفة للعرب في مزاجها ، وتفكيرها ، وثرائها . ومن القول للمعاد أن نقول إن هذا الاختلاط كانت له آثار في جميع نواحي الحياة العربية ، من اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية وثقافية وفنية ، وخاصة الناحية التي تهجنا وهي الأدبية . وكان من أوائل الآثار التي ترتبت على نشوء الدولة والاتصال بالأجانب ، ظهور ديوان الجند على يد عمر بن الخطاب . ثم تالت الآثار بعد ذلك ، وخاصة في العصر الأموي الذي لم يعد يوجد فيه تخرج الصحابة والخلفاء ، وخوفهم من كل جديد لم يعرفه عصر الرسول . هذه الدولة التي ثبتت دعائمها في العهد الأموي ، والثالث عليها الأموال والغنائم من الأقطار المفتوحة ، لا بد أن تأخذ بما أخذت وتأخذ به غيرها من الدول ، من تحضر وتمدن ، وما يتبعهما من ترفه وتجميل . وهذا التحضر يتبعه تعقد في الحياة ، وتشابك في المصالح ، وحاجة إلى التفاهم والتواصل . وهذا مما يطور كتابة الرسائل وينميها

وذلك ما حدث فعلاً . فقد رأينا من قبل كتابة الرسائل يغلب عليها الإملاء من الخليفة ، والنسخ من السكاتب . ولكننا لا نلبث في هذا العهد أن نرى الشواهد تترى دالة على انفراد السكاتب بنفسه ، وكتابه الرسائل دون إملاء .

يقول الجهمشياري ^(١) : « وذكُر أن زياداً دخل يوماً ديوانه ، فوجد فيه كتاباً ، وفيه : ثلاثة دنانير . فقال : من كتب هذا ؟ فقيل : هذا الفتي . فقال آخر جوه من ديواننا لئلا يفسده ، وأُمح هذا واكتب : آدُنْ . فهذا الخبر يدل على أن السكاتب كان يكتب بنفسه ، ولولا ذلك ما استفسر عنه زياد ، وما كتب هذا اللفظ الذي لم يرض عنه زياد .

وكذلك يروى الجهمشياري خبراً ^(٢) عن يزيد بن معاوية الذي اضطرب حين سمع بخروج الحسين إلى العراق ، وأراد أن يوليه رجلاً يستطيع أن يكتبه . فأشار عليه سرجون السكاتب بتولية عبيد الله بن زياد ، فسكره ذلك يزيد . فأخرج له سرجون عهداً من معاوية لعبيد الله بولاية السكوة ، كان كتبه معاوية قبل أن يموت . فرضى يزيد بهذا العهد ، وأنفذه إلى عبد الله . يقول الجهمشياري : « فقال [يزيد] له [لسرجون] : فأنفذه إليه » . ثم يستمر الجهمشياري في رواية الخبر فيقول : « وكتب معه عن يزيد إليه : أما بعد ، فإن الممدوح مسبوبٌ يوماً ما . . . » ونحن نتأمل في العبارة السابقة « وكتب معه عن يزيد إليه » قد نحار في معناها : من الذي كتب ؟ وكتب مع من ؟ وإلى من ؟ واعتقد أن السكاتب هو سرجون ، وأنه كتب مع العهد الذي من معاوية ، وأنه إلى عبيد الله ، أي أن سرجون أرسل إلى عبيد الله بن زياد عهد معاوية ، ومعه رسالة كتبها بنفسه نيابة

(٢) نفس المرجع ٣١ .

(١) الوزراء والكتاب ٢٥ .

عن يزيد ، ولو أراد أن سرجون « كتب مع يزيد الكتاب » فقال : وكتب مع يزيد إليه . وعلى هذا التفسير نرى العبارة تصرح بأن سرجون كتب « عن يزيد » ، وهذا تصریح لا غموض فيه بأن الكاتب كتب بنفسه على لسان الخليفة . وهذا أمر كبير الأهمية ولا شك ، إذ فيه دلالة واضحة على أن شخصية الكاتب بدأت تظهر وتنفرد في رسائلهم ، كما قلنا في الكلام عن عهد عمر . وإذن كان الكاتب حراً في بعض الأحيان ، وخاصة حين يثق به الخليفة ، فكان يكتب دون إملاء . ويسر له هذا التروى والتجوير . ولكننا قبل أن نترك هذا الشاهد يجب أن نلاحظ عليه أنه بليغ ، فيه عمل وصنعة ، وتحسين وتجميل ، فيه ما لا أظن أن سرجون بن منصور الرومي الذي كان يتقلد ديوان خراج الشام بالرومية ^(١) ، يستطيعه أو يبلغه من العربية ، في ذلك العهد المبكر . وإذن فهذه الرسالة أظنها موضوعة على سرجون ، ولا يمنعنا ذلك من تصديق الخبر ، أو على الأقل الشعور بأن القدماء كانوا يعتقدون بأن الكتاب كانوا أحراراً في كتابتهم أحياناً .

وهاك شاهداً ثالثاً على انفراد الكاتب برسائله . روى الجهمشيارى : ^(٢) « أن كاتباً كان لمصعب بن الزبير كتب : « من لمصعب » ، فقال مصعب : ما هاتان الزائدتان ؟ يعني الألف واللام » . فهذا التعريف الذي أدخله الكاتب على اسم مصعب ، بغير رضى الأخير ، يدل على أن مصعباً لم يكن يمليه ، وإلا أملاه بدون الزائدتين .

وشاهدنا الرابع على تخلص الكاتب من الإملاء رسالة عبد الرحمن بن الأشعث

(١) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ٤٠ . (٢) نفس المرجع ٤٦ .

إلى الحجاج التي بصرحون بأن ابن القريّة كتبها له عنه (١) . يقول الدينوري :
« فقال له [لابن القريّة] عبدُ الرحمن [بن محمد بن الأشعث] : إني أريد أن
أكتب إلى الحجاج كتاباً مُسَجَّعاً أعرفه فيه سوء فعّاله ، وأبصره قبح سريره » .
وهناك شواهد أخرى لاداعي للإطالة في ذكرها (٢) .

ولسكن يجب أن نقول إن كل هذا لا يدل على اختفاء الإملاء اختفاء تاماً ،
بل لازال موجوداً ، وإن يزال كذلك حتى في العصر العباسي ، وخاصة حين يستفز
الخليفة فيرى أن يجيب بنفسه (٣) .

ويتطور الأمر في أواخر العصر الأموي حتى نرى قبيصة بن ذؤيب يفحص
السكتب الواردة على عبد الملك بن مروان ، ويقرؤها قبل عرضها على الخليفة .
يقول الجهمشيارى (٤) : « وكان يكتب لعبد الملك قبيصة بن ذؤيب بن حنّلة بن
عمرو الخزاعي ، ويكنى أبا إسحاق . وكان خاصاً به ، وبلغ من لطافة محله منه أن
كان يقرأ السكتب الواردة على عبد الملك قبل أن يقرأها عبد الملك » . ثم يروي
قصة تؤيد ذلك القول . ويُعد ذلك خطوة هامة في تاريخ تطور كتابة الرسائل ،
والعلاقة بين السكتب والخلفاء .

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ٣٢٣ . وابن قتيبة : الإمامة والسياسة ٢ : ٢٦٠
وأحمد صفوت : الجهرة ٢ : ٢١٩ . (٢) الجهمشيارى : الوزراء والسكتب ٦٢ .
(٣) الجهمشيارى : الوزراء ٥٥ ، ٦٩ . وأحمد صفوت : الجهرة ٢ : ٢٥٣ .
وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٨ .
(٤) الجهمشيارى : الوزراء والسكتب ٢٤ .

ديوانه الرسائل :

والمسألة التي أمامنا هي متى ظهر ديوان الرسائل ؟ لا نجد تصريحاً في شتى المراجع التي لدينا عن تاريخ إنشاء هذا الديوان ، فيما عدا ذلك القول في صبح الأعشى للقلقشندي ، وقد رفضناه من قبل .

وإذا ما قلبنا صفحات «الوزراء والسكرتار» ، وطالعنا أسماء كتاب الرسول والخلفاء الراشدين من بعده ، وجدناه يقول عن الواحد منهم : « كان فلان يكتب كذا ^(١) » أو « يكتب له ^(٢) » أو « كان يكتب لفلان فلان ^(٣) » أو « فلان كتب له ^(٤) » أو « استكتب فلان فلان ^(٥) » . ونستمر نرى هذه العبارات وحدها طوال أيام الخلفاء الراشدين ، غير أننا نراه يقول عن أبي جيميرة بن الضحاك [في عهد عمر] : « وكتب له على ديوان السكوفة ^(٦) » وهكذا يصفه بأنه « على الديوان » فأى ديوان نراه يقصد ، ديوان الجند ، أو الخراج ، أو الرسائل ، أو غيرها ؟ إذا استمررنا في تصفح نفس السكرتار نراه يعطينا الجواب ، إذ يقول عن بعض الخلفاء : « و يكتب له على الديوان سرجون بن منصور النصراني ^(٧) » . والمعروف أن سرجون كان على ديوان الخراج ^(٨) تولاه لعبد الملك بن مروان ولمن تقدمه من الخلفاء ^(٩) . فنستطيع من هذا أن نرجح أن كلمة « الديوان »

(١) نفس المرجع ١٢ ، ١٣ . (٢) نفس المرجع ١٣ ، ٢١ ، ٢٣ .

(٣) نفس المرجع ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ . (٤) نفس المرجع ١٥ ، ١٦ .

(٥) نفس المرجع ١٧ . (٦) الجهمشيارى : الوزراء والسكرتار ١٦ .

(٧) نفس المرجع ٣٢ ، ٣٣ . (٨) نفس المرجع ٣١ .

(٩) نفس المرجع ٤٠ .

المطلقة عند الجهمشياري تعنى ديوان الخراج . ولكننا نعرف أن هذا الديوان كان يكتب بالفارسية في العراق ، وبالرومية في الشام ، وباليونانية والقبطية في مصر . يقول الجهمشياري ^(١) : « ولم يزل بالسكوفة والبصرة ديوانان ، أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم ، وهذا الذي كان عمر قد رسمه ، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية . وكان بالشام مثل ذلك ، أحدهما بالرومية والآخر بالعربية » . ومن الطبيعي أن العرب لم يكونوا هم الذين يتولون هذا الديوان الفارسي أو الرومي ، ديوان الخراج أو ديوان وجوه الأموال ، كما يقول الجهمشياري ، وإنما كان يتولاه الموالى الفرس والروم . وإذن لم يكن أبو جَبيرة بن الضحاك على ديوان الخراج ، بل على الديوان الآخر العربي ، ديوان إحصاء الناس وأعطياتهم ، وذلك هو ديوان الجند أو العطاء . يؤيد ذلك أن ديوان الخراج يُشك في وجوده في عهد عمر ، وأن الجهمشياري وصف عبد الملك بن مروان بأنه كان « يكتب له [لعثمان] على ديوان المدينة » ^(٢) . والمدينة لم يكن بها ذلك الديوان الذي يقصد منه تدوين ما يؤخذ من الأراضي المفتوحة من الجزية والخراج ، وإنما كان بها بدلا عنه بيت المال ، وبها أيضاً ديوان العطاء . ويقطع بذلك تفريق الجهمشياري بين الديوانين . حين ذكر إن علي بن أبي طالب استعمل زياد بن أبيه على « الخراج والديوان » ^(٣) . وإذن عندما يطلق الجهمشياري كلمة « الديوان » يعنى بها ديوان الجند أحيانا ، وديوان الخراج أحيانا أخرى . ونرى من هذا أن أبا جَبيرة بن الضحاك كان على ديوان العطاء ، وأن ديوان الرسائل لم يرد ذكره طول عهد الصدر الأول من الإسلام . وما يكاد يهل العصر الأموي حتى نرى عبارة جديدة تظهر عند الجهمشياري ، وهي وصفه عبيد الله بن أوس بأنه « كان يكتب لمعاوية على الرسائل » ^(٤) ،

(١) نفس المرجع ٣٨ . (٢) نفس المرجع ٢١ .

(٣) الجهمشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٣ . (٤) نفس المرجع ٢٤ .

ويقول أيضاً عن زياد بن أبيه « ويكتب له على الرسائل عبد الله بن أبي بكره وجبير بن حية^(١) ». فما معنى هذه العبارة الجديدة ؟ هل تفيد أن السكاتب تخصص بكتابة الرسائل فحسب ؟ ما أظن ذلك ، لأن كثيراً من السكاتب السابقين كانوا كذلك ، فلم يطلق عليهم هذا اللفظ . وإذن فما معناه ؟ هل تفيد أن السكاتب كان يكتب معاوية أو لزياد على « ديوان » الرسائل ؟ هذا ما أرجحه ، أرجح أن معاوية أنشأ ديوان الرسائل فيما أنشأ من دواوين^(٢) . ومما يؤيد ذلك أن هذه العبارة ظلت تستعمل بعد إنشاء ديوان الرسائل بزمن ، إذ أطلقها الجهمشيارى في عهد عبد الملك بن مروان على عبد الله بن أبي قرة ، كاتب مصعب ابن الزبير^(٣) ، وعلى يحيى بن يعمر كاتب يزيد بن المهلب^(٤) ، وأطلقها في عهد هشام بن عبد الملك على رُشد بن كاتب يوسف بن عمر وإلى العراق^(٥) ، على الرغم من إيقاننا بوجود ديوان الرسائل قبل ذلك العهد كما سيتضح فيما بعد . وقد ظلوا يستعملون أيضاً عبارة « وكان يكتب لفلان » بعد إنشاء ديوان الرسائل^(٦) . ويؤيد ذلك أيضاً أن لفظ « على » يرتبط عند الجهمشيارى في أغلب الأحيان بلفظ « ديوان » .

ثم يصرح الجهمشيارى بوجود الديوان تصريحاً لاغموض فيه في عهد عبد الملك ابن مروان ، إذ يقول : « وكان يكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل أبو الزعترعة مولاه^(٧) » ، ويصرح أيضاً بأن سليمان بن سعد الخشعي كان ينقلد لعبد الملك

- (١) نفس المرجع ٢٦ . (٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ١ : ٥٣٠ . والدكتور شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الفتر العربي ٣٤ .
(٣) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ٤٤ . (٤) نفس المرجع ٤١ .
(٥) نفس المرجع ٦٤ . (٦) نفس المرجع ٦٤ .
(٧) نفس المرجع ٣٥ .

ديوان الرسائل^(١) . ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يصرح الجهشيارى بوجود ديوان للرسائل لدى الولاة ، من أمثال الحجاج^(٢) ، ويزيد بن المهلب^(٣) . ولعل يعدد هذه الدواوين يجعلنا نرجح وجودها من قبل هذا العهد بزمان كاف ، مما تطمئنا إلى ما قلناه من ظهورها في عهد معاوية بن أبي سفيان .

وهكذا نرى أن ديوان الرسائل ظهر في أوائل العصر الأموى ، في أيام معاوية ابن أبي سفيان ، وتطور سريعاً حتى انتشر في الولايات المختلفة . فسمعنا عن ديوان العراق^(٤) ، وديوان خراسان^(٥) في عهد عبد الملك بن مروان . ونرى أيضاً أن أوائل الكتاب الذين تقلدوا هذا الديوان كانوا عر باخلصا ، مثل عبيد الله ابن أوس^(٦) ، وعبد الله بن أبي بكرة^(٧) ويحيى بن يعمر^(٨) ، وقبيصة بن ذؤيب^(٩) ، وزوج بن زنباع^(١٠) ، ويدل هذا على أن ديوان الرسائل عربى النشأة ، وليس بالفارسى ولا اليونانى ، كما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين . وهذا أمر طبيعى فى الرسائل العربية التى يطلب فيها الخلفاء الفصاحة والإجادة اللتين لم تتوافرا للأعاجم فى ذلك اوقت . ولكننا لانلبث أن نرى الأعاجم ينافسون العرب فى هذا الميدان ، منافستهم لهم فى جميع الميادين الأخرى ، وربما كانت منافستهم لهم فيه أسرع منها فى الميادين الأخرى . إذ نجد منهم علماء عربىة وبتقنونها ويستطيعون التعبير بها تعبيراً فصيحاً جميلاً بليغاً . فنرى أبا الزعزعة مولى عبد

- | | |
|---------------------|-------------------------------------|
| (١) نفس المرجع ٤٠ . | (٢) نفس المرجع ٤٢ . |
| (٣) نفس المرجع ٤١ . | (٤) نفس المرجع ٤٢ . |
| (٥) نفس المرجع ٦٣ . | (٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٢٤ . |
| (٧) نفس المرجع ١٦ . | (٨) نفس المرجع ٤١ . |
| (٩) نفس المرجع ٣٤ . | (١٠) نفس المرجع ٣٥ . |

الملك بن مروان على ديوانه ولا يزال الأمر في تطور حتى نرى ديوان الرسائل في يد الموالي في عهد هشام بن عبد الملك . إذ يتقلده مولاه سالم وابنه وتلاميذه ، الذين يعتبر عبد الحميد الكاتب ، وهو من الموالي أيضاً ، أنبغهم . فديوان الرسائل نشأ نشأة عربية خالصة ، ولكنه في أثناء سيره أمدته روافد فارسية ويونانية على يد هؤلاء الموالي الذين أتقنوا اللغة العربية ، وعبروا بها شعرا ونثراً .

ولا يخامرنا الشك في أن هؤلاء الكتاب طوروا الكتابة تطويراً كبيراً ، إذ اتخذوها مهنة لهم ، يحدون فيها ويحسنون ، حتى يبلغوا أعلى المراتب . وما كان الكتاب منهم مستطيعاً أن يتقلد ديوان الرسائل إلا إذا أظهر هذه البراعة ، وأبان عن جمال في كتابته ، وتفنن في أسلوبه . وهكذا تصل الكتابة إلى الفن الصحيح عندهم ، ونستطيع دون وجل أن نطلق على كتابتهم اسم « الكتابة الفنية » . ومما يدل على ميلهم إلى التجميل والتزين ، أننا نرى الوليد بن عبد الملك يأمر بكتابة رسائله في الصحف ، يقول الجهمشباري : « وكان الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير ، وأمر بأن تُعظم كتبه ، ويُحْمَل الخط الذي يُكتب به . وكان يقول : « تكون كتبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض »^(١) . فهذا الخليفة يطلب التخصص والتجمل في الورق والخط ، والابتعاد عن مشابهة كتب الناس . ولا شك أنه لا يكره التجمل في الأسلوب والأفكار ، بل يحبه ويطلبه من كتابه أيضاً . وقد عمل بذلك الخلفاء من بعده ، اللهم إلا عمر بن عبد العزيز المتقشف الزاهد « الذي كان . . . يأمر كتابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير »^(٢) .

(١) نفس المرجع ٤٧ . الطوامير : الصحف ، الواحدة طومار وطامور .

(٢) الجهمشباري : الوزراء والكتاب ٥٣ .

ومن الظواهر التي تدل على اهتمام الأمويين باللغة العربية ، وتغريب الأشياء الأجنبية ، تحويلهم دواوين الخراج من الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان . ولا شك أن ذلك أمر له أهميته ، إذا عرفنا أن الموالي اضطروا إلى تعلم العربية كي يستعيدوا الوظائف التي انتزعها منهم العرب بهذا التحويل . فلما تعلم الموالي اللغة العربية وأجادوها كي يستطيعوا منافسة العرب في وظائفهم ، أخذوا يحاولون أن يظهروا التفوق عليهم في التعبير بهذه اللغة . وكانت ثمرة هذا التنافس السير بالكتابة إلى طريق الفن ، إذ أخذوا يتجملون في أساليبهم ويتأقنون حتى يتفوقوا على العرب . ولا شك أن العرب قابلوا هذا الصنيع بالمثل ، مما سمى بالكتابة إلى الدرجات العلى في هذه الفترة المبكرة من تاريخها . فنحن نرى أن كتابة الرسائل في العربية كانت سريعة التطور ، لم يسايرها في ذلك فرع آخر من فروع الأدب .

خصائص الرسائل الأموية

إذا ألقينا نظرة عامة على رسائل العصر الأموي ، رأينا فيها استمراراً لرسائل الفترة السابقة ، ولكنه يصل في النهاية إلى طور يمايز أوائل الفترة الأولى مغايرة تامة . فليست لغتها بلغة الخطاب العادي ، ولكنها لغة مهذبة مجمّلة ولا شك . لكن على الرغم من هذا التهذيب لاتصل إلى ميدان الصنعة وكد الذهن ، وإنما هو نوع من التروى والتجويد . وقد لاحظنا من قبل أن ذلك التروى بدأ منذ أواخر الصدر الأول من الإسلام . فالكتابة كانت تسير سيراً حثيثاً نحو الفن والجمال . وإن المرء منا حين يقرأ رسالة يزيد بن معاوية لأهل المدينة ^(١) ، وهي التي يقول

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٩٤ .

فيها : « وإلى والله قد آتيتكم فأخلفتكم ، ورفعتكم على رأسي ، ثم على عيني ، ثم على فمي ، ثم على بطني ، وأتم الله لئن وضعتمكم تحت قدمي لأطأ نسكم وطأة أقل بها عددكم ، وأترككم بها أحاديث ، ننتسخ أخباركم مع أخبار عاد وشمود . »
لا شك أن المرء حين يقرأ هذه الرسالة يشعر بما فيها من تحبير وتجويد . فهذا هو الأسلوب التصويري « الرمزي » شيع في هذه الرسالة ، ليبين لأهل المدينة إكرام الخليفة لهم ، وسعيهم فيما يحطهم في عينه ، وأنه إن لم ينتهوا سيسحقهم سحقاً ، فلا يبقى منهم باقية . ولا يستولى علينا الدهش حين نقول الأسلوب التصويري ، لأن بعض أنواع هذا الأسلوب من الأساليب الفطرية التي تظهر مبكرة في الفنون ، وقد رأينا أمثلة منه في عهد عثمان .

ويظهر هذا الأسلوب أيضاً في رسالة الحجاج عند وفاته إلى الوليد ، يقول ^(١) :
« أما بعد ،

فقد كنت أرمي غنمك ، أخوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه .
فجاء الأسد فبطش بالراعي ، ومزق المزعى كل ممزق » .

وتبين هاتان الرسالتان أن لغة الكتابة قد ارتفعت إلى لغة الخطابة ، بل أخذت تستعير منها عبارات ، تضيفها إلى نفسها ، فتظهر كأنها منها لحماً ودماً ، إذ لا فرق بين العارية والأصيل . ولا شك أننا نعرف أن لغة الخطابة كان لها ترانها القديم ، وأنها كانت تترفع عن لغة الكتابة من قبل .

ومن ظواهر التعبير والتروى ذلك السجع الذي فشا في رسائل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وخاصة رسالته إلى أنصاره من الشيعة . فقد قال في رسالته إلى سليمان بن صرد بعد محاربتة عبيد الله بن زياد ^(٢) :

(١) نفس المرجع ٢٩٢ . (٢) نفس المرجع ١٢٣ .

« أما بعد ،

فإن الله أَعْظَمَ لكم الأجر ، وَحَطَّ عنكم الوزر ، بِمُفَارَقَةِ القَاسِطِينَ ، وَجِهَادِ
المُحِلِّينَ ، إنكم لم تنفقوا نفقة ، ولم تقطعوا عَقَبَةً ، ولم تحطوا خطوة ، إلا رفع الله
لكم بها درجة ، وكتب لكم بها حسنة ... »

وكان المختار مولعاً بالسجع في حديثه وخطابته وكتابته ، ومغرمًا بمحاكاة
القرآن وفواصله ، والاستعارة من معانيه وأخيلته . يقول في رسالته إلى الأحنف
ابن قيس ^(١) :

« أما بعد ،

فَوَيْلُ أُمِّ رَيْمَةَ مِنْ مُضَرٍّ ، فَإِنَّ الْأَحْنَفَ مُورِدُ قَوْمِهِ سَمَرٍ ، حَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ
لَهُمُ الصَّدَرُ ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ مَا خُطَّ فِي الْقَدَرِ ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنْتُمْ تَسْمُونِي كَذَابًا ،
وَإِنْ كُذِّبْتُ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي ، وَلَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ » .
كل ذلك لا لرغبة فنية ، ولكن لتأييد ما يدعيه من نزول الوحي عليه ، ومن
ادعاءات أخرى غريبة ليس هنا موضع ذكرها ^(٢) . والأمر الذي يعنيننا في هذا
أن ندرك أن السجع كان يرتبط لدى العرب بالسكّهانة والعرافة ، ولذلك يقال إن
العرافين من العرب القدماء في الجاهلية كانوا لا يقولون تنبؤاتهم إلا سجعاً . وندرك
كذلك أن السجع ارتبط بالأمور الدينية ، ولذلك نجد بظهره يأخذ في التموه في
حلقات الوعظ في السكوفة والبصرة .

وقد ظهر السجع أيضاً في بيئة أخرى غير دينية ، وأعني بذلك ظهوره في دائرة

(١) نفس المرجع ١٣١ .

(٢) تاريخ الطبري عام ٦٦ هـ وما بعدها .

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . روى الدينوري ^(١) أن عبد الرحمن أمر ابن القرية عند ما خرج على الحجاج ، بكتابة رسالة مُسَجَّعة إليه يخاع فيها طاعته ، ويعرفه فيها سوء فعله ، ويبصره قبج سريره فسكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الحجاج بن يوسف :

سلام على أهل طاعة الله وأوليائه ، الذين يحكمون بعدي ، ويوفون بعهدي ، ويجاهدون في سبيله ، ويتقوِّرون لذكرك ، ولا يسفكون دما حراما ، ولا يعطلون للرب أحكاما ، ولا يدرسون له أعلاما ، ولا يتفككون المنهج ، ولا يُزيمون السبي ، ولا يسارعون في الفتي ، ولا يدلُّون الفجرة ، ولا يتراضون الجورة ، بل يتمسكون عند الاشتباه ، ويتراجعون عند الإمامة .

أما بعد ،

فإني أحمد الله حمداً بالغاً في رضاه ... »

وكان رد الحجاج عليه مسجوعاً أيضاً . ونحن لو صدقنا هاتين الرسالتين لقلنا بأن السجع تعدى الدوائر الدينية ، ووصل إلى الدوائر الفنية الدنيوية أيضاً ، بل نقول إن السجع في الإسلام فن عرني صرف ، لأن ابن القرية عرني خالص من

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ٣٢٣ . أحب أن أعبر عن شكى الشديد في هذه الرسالة وأخنها رسالة الحجاج ، وقد يكون من أسباب هذا الشك - غير انتشار السجع والتجبير فيها - شك العلماء في وجود ابن القرية نفسه . يقول الأصمعي (الأغاني ٣: ٢) « رجلا ن ما عرف في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون . بنى عامر وابن القرية ، وإعما وضعهما الرواة » . ويقول عوانة بن الحكم الأخباري (الأغاني ٢ : ٩) : « ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا : ابن أبي العقب صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية ، ومجنون بن عامر » . وما يحتاج الأمر مني إلى الكلام عن الأصمعي وضبطه ودقته .

البادية كما يقول مترجموه ، هذا إلى جانب وجود السجع في كلام السكمان العرب منذ جاهليتهم . وارتبط بالسجع الازدواج ، فكان الكتاب في كثير من رسائله يتخلص من أولها إلى الثاني .

وتمر الكتابة في تطورها بمرحلة غريبة عنها ، بل غريبة عن العقل العربي النخلص ، لم يعرفها من قبل .

تلك هي مرحلة الإطالة في الكتابة . وقد تكلمت قبل عن طول الرسائل في عهد الفتنة ، وأرجعت ذلك إلى الجدل السياسي بين الأحزاب المختلفة ، ولكننا في هذا العصر نجد الطبري يصرح بأن عمرو بن نافع كاتب عبيد الله ابن زياد أول من أطال في السكتب^(١) . وكانت هذه الظاهرة من الغرابة عن العرب النخلص ، بحيث لم تستطع أن تسيطر عليهم وتفزو شعرهم ، وإنما تغلبت على الكتابة التي يلعب فيها العقل والثقافة الدور الأكبر . وقد أخذت هذه الظاهرة تتطور وتفشو ، حتى إننا نجد عبد الحميد في آخر هذا العصر يكتب رسالة يقال إنها استوعبت مجاميع ضخمة من الصحف^(٢) .

وانجبه التجويد والتحسين وجهة أخرى ، إذ يرى يحيى بن يعمر العدواني كاتب يزيد بن المهلب أن الجمال في الإغراب اللفظي ، وتقع الألفاظ النادرة الاستعمال .
رووا أن يحيى بن يعمر كتب عن يزيد إلى الحجاج ينبئه بأحد الفتوح ، فقال :
« إنا لقينا العدو ، فقتلنا طائفة ، وأسرنّا طائفة ، ولحقت طائفة بعرّائر الأودية ، وأهضّام الغيطان . وبنّا بعرّة الجبل ، وبات العدو بحضيضه^(٣) » . فلما أتى

(١) الطبري ٢ : ٢٧٠ . (٢) ابن نبة المصري : سرح العيون ١٢٨ .

(٣) المبرد : السكامل ١ : ١٣٣ . عرّائر الأودية : أسافلها . والأهضام : جمع

هضم ، وهو المظمن الواسع من الأرض . وعررة الجبل : أعلاه . والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

الكتاب إلى الحجاج استدعى يحيى وأخذ يسأله عن فصاحته . ويدل هذا الخبر على أن بعض الكتاب كانوا يتأقنون في اختيار ألفاظهم ، بل يبحثون عنها ولا يرضون بما يأتهم عفواً . وكان هذا الإغراب اللفظي ثمرة لبيئة العراق التي اجتمعت فيها القبائل العربية ، وواصلت حياتها القبلية التي كانت تحياها قبل الإسلام ، أو قريباً منها .

وأخذ الكتاب يعنون بصدور رسائلهم ويتجهلون فيها . فهذا كاتب المهلب يعنى بالتحميد ويطيله على غير ما اعتاد العرب فيقول ^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه ، المعجل النعمة لمن بغاه ، الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه ، حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد . . . »
ويظهر في هذا التحميد الأساس السجعي الذي سيقيم عليه هذا الفن . وقد رأينا هذا أيضاً في سلام رسالة ابن القريّة التي ذكرناها آنفاً . ونرى في هاتين الرسالتين وغيرهما بداية ذلك الفن الذي سيُراعى فيما بعد ، إذ تطال التحميدات والصدور ، ويراعى فيها موضوع الرسالة ، فيكون التحميد مُشعراً بذلك الموضوع . وعلنا لا حظنا ذلك في رسالة المهلب السابقة التي أرسلها مبشراً ببعض انتصاراته على الخوارج ، وفي رسالة ابن القريّة أيضاً .

وسيفنى بهذا الفن عبد الحميد الكاتب ، فيطيل فيه ويتفنن ، ويعطيه قواعد النهائية التي يسير عليها الكتاب فيما بعد ، وخاصة

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ١٨٧ .

تحميداته في الفتوح^(١) . وقد أدى ذلك ببعض الأدباء إلى أن يقول إنه أول من استعمل التحميدات في فصول الكتب^(٢) . وقد رأينا الآن إنه ليس أول من فعل ذلك ، بل سبقه بعض الكتاب الأمويين . وربما كانت هذه التحميدات من أثر كتب النبي والصحابة وخطبهم ، فقد كانت تبدأ بالحمد . ولكنه كان حمداً قصيراً موجزاً ، فلما أتى كاتب الملهب أطاله قليلاً ، ولما أتى عبد الحميد أسهب وأطنب فيه . وربما كان عبد الحميد متأثراً في تحميداته المطولة بخطب علي بن أبي طالب ، التي كان يحفظها ، ويقول عنها إنها سبب بلاغته . وهالك أحد تحميدات عبد الحميد^(٣) :

« الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برّهاته ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته ، الناذية قضاؤه ، الصادق وعده ، الذي قدر على خلقه بملكه ، وعزّ في سماواته بعظمته ، ودبر الأمور بعلمه ، وقدرها بحكمه ، على ما يشاء من عزمه ، مُبتدعاً لها بإنشائه إياها ، وقدرته عليها ، واستصغاره عظيمها ، نافذاً لإرادته فيها ، لا تجرى إلا على تقديره ، ولا تنتهي إلا إلى تأجيله ، ولا تقع إلا على سبيل من حتمه . كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وحّيه ، لا معذل لها عنه ، ولا سبيل لها غيره ، ولا يعلم أحدٌ بخفاياها ومعادها إلا هو ، فإنه يقول في كتابه الصادق « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

(١) نفس المرجع ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ .

(٢) المسعودي : روج الذهب ٣ : ١٧٨ .

(٣) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٥٥١ .

ونرى في هذا التحميد سجعاً ، وزواجاً ، وعبارات متزنة موسيقية ، واقتباساً من القرآن ، وغير ذلك من الخلق اللفظية والأسلوبية .

وعلى الرغم من ميل الكاتب في هذا العصر إلى التحسين والتجميل ، يحمل بنا أن نقول إن ذلك لم يخرج بهم إلى مرتبة التكلف ، أو السعى وراء السجع أو البديع ، وإنما كانوا يأتون رسائلهم في أسلوب جميل فصيح بليغ توشيه بعض الجمل المتوازنة ، التي قد تتزوج أحياناً ، وتسجع أحياناً ، وتسير طبيعية في غالب الأحيان ، ويحملها أيضاً شيء من تشبيه واستعارة وكناية . ولكننا إن تخدعنا تلك الرسائل التي نرى السجع يفشو فيها ، وتنسب إلى ذلك العصر ، فإنها مما حُمل عليه ، ووضع على أسنة أدبائه ، وقد أكثرنا آنفاً من التنبيه إلى عدم اطمئناننا إلى ما يروى عن هذه الفترة من التاريخ ، التي كثرت فيها العدا ، واختلطت المصالح ، سواء كان ذلك في عهد ما بعده ، واستباح كل امرئ من هؤلاء الخصوص والأولياء أن ينسب لأدبائهم أوجالها ما يؤيد حجته .

إذن نحن نجد كتابة الرسائل الرسمية تطورت تطوراً سريعاً ، رمى بها إلى أحضان الفن ، منذ أوائل العصر الأموي ، وكان ذلك ممهداً للصورة الأخيرة التي ستأخذها عند عبد الحميد الكاتب وأستاذه . فقد كان هؤلاء الكتاب حلقة ذات ثقافة أجنبية أثرت في الكتابة تأثيراً جليلاً ، وأخذت بيدها إلى الصورة البسيطة الجميلة من الفن .

البَابُ الثَّانِي

الرسائل الإخـوانية

الفَصِيلُ الأوَّل

صدر الإسلام

ليس هذا العنوان بغريب على قراء الأدب العربي ، ولكني أحب أن أشير إلى أنه يطلق على جميع الرسائل غير الديوانية . ونحن — وقد عرفنا حال الكتابة في الجاهلية — لا نستبعد وجود هذا الفرع من الكتابة في ذلك العصر . ولكن البحث المنقب لم يؤد بنا إلى شيء من هذه الرسائل . وأما ما جمعته جبهة رسائل العرب ^(١) فقصاصد شعرية ، يقال إنها أرسلت إلى المكتوب إليهم ، ولا يدخل في نطاق بحثنا هذا غير الرسالتين المذسوبتين إلى أكنم بن صيفي . ويرى الناظر فيهما أنهما عبارة عن مجموعة من الحكم والأمثال ، تُجمع بعضها إلى جانب بعض دون رابطة أو تآلف . ونحن نرجح أنهما من جمع بعض المتأخرين المحبين للنوادر والشوارد اللغوية ، وخاصة أن من المعروف أن حكماء العرب ، بل حكماء العالم أجمع ، قد نُحِل عليهم الكثير من الأقوال . وهكذا نرى أنفسنا وليس أمامنا مانسة طبع أن نسميه إخوانيات الجاهلية .

فإذا بحثنا في الصدر الأول من الإسلام عن رسائل إخوانية لم نكد نجد شيئاً، فهم لا يرون لنا للنبي غير رسالة إخوانية واحدة، يعزى فيها مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ في ابن له مات، يقول^(١):

« من محمد رسول الله إلى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ :
سلامٌ عليك ، فإني أُحَمَّدُ إِلَيْكَ اللهَ الذي لا إله إلا هو .
أما بعد ،

فَعَظَّمَ اللهُ لَكَ الْأَجْرَ ، وَأَلْهَمَكَ الصَّبْرَ ، وَرَزَقَنَا وَإِيَّاكَ الشُّكْرَ . نَمَّ إِن
أَنْفُسَنَا وَأَهْلِيْنَا وَمَوَالِيْنَا مِنْ مَوَاهِبِ اللهِ السَّيِّئَةِ ، وَعَوَارِفِهِ الْمُسْتَوْدَعَةِ ، نُمَتِّعُ بِهَا
إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ ، وَتَقْبِضُ لَوْقَتٍ مَعْلُومٍ . نَمَّ افْتَرَضَ عَلَيْنَا الشُّكْرَ إِذَا أُعْطِيَ ،
وَالصَّبْرَ إِذَا ابْتُلِيَ .

وَكَانَ ابْنُكَ مِنْ مَوَاهِبِ اللهِ السَّيِّئَةِ ، وَعَوَارِفِهِ الْمُسْتَوْدَعَةِ ، مَتَّعَكَ بِهِ فِي
غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ ، وَقَبَضَهُ مِنْكَ بِأَجْرِ كَثِيرٍ : الصَّلَاةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهُدَى ، إِنْ صَبَرْتَ
وَاحْتَسَبْتَ . فَلَا تَجْمَعَنَّ عَلَيْكَ يَا مُعَاذُ خَصْلَتَيْنِ : أَنْ يُحْبِطَ جَزْعُكَ صَبْرُكَ ،
فَتَنْدَمَ عَلَى مَا فَاتَكَ ، فَلَوْ قَدِمْتَ عَلَى ثَوَابِ مُصِيبَتِكَ ، قَدْ أَطَعْتَ رَبَّكَ وَتَنَجَّزْتَ
مَوْعُودَهُ ، عَرَفْتَ أَنَّ الْمُصِيبَةَ قَدْ قَهَرَتْ عَنْهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَزْعَ لَا يَرُدُّ مِيتًا ، وَلَا
يُدْفَعُ حُزْنًا ، فَأَحْسِنِ الْجَزَاءَ ، وَتَنَجَّزْ الْمَوْعُودَ ، وَلْيَذْهَبْ أَسْفَاكَ مَا هُوَ نَازِلٌ بِكَ ،
فَكَأَنَّ قَدْ^(٢) .

ومن يتأمل في هذه الرسالة ير - إذا كانت حقيقية ولم يغير فيها الرواة -

(١) نفس المرجع ٦٥ .

(٢) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٦٥ . العوارف : جمع عارفة ، وهي العروف .

نفس النمط الذى تسير عليه كتب الرسول السياسية ، ويرى نفس أفكاره صلى الله عليه وسلم ، بل قد تتضح فيها روح الرسول وعاطفته الدينية أكثر من غيرها . وذلك أمر لا غرابة فيه ، لأنها رسالة إخوانية يصدر فيها كلام النبي عن عواطفه وأحاسيسه ، التى قد لا تظهر فى المعاهدات أو كتب الأمان أو غيرها من الكتب السياسية . ونرى فى هذه الرسالة أيضا نوعاً من الفصاحة والبلاغة يعلو بعض الشيء عن كتبه صلى الله عليه وسلم السياسية ، ولعل السبب ما ذكرته آنفاً ، ويلاحظ فيها أيضاً الصلة الشديدة بينها وبين أقواله فى الوعظ والإرشاد ، ولعل ذلك أيضاً من أسباب السمو بأسلوبها . وستظل هذه الملاحظة تنطبق على كثير من إخوانيات صدر الإسلام ، وبعض إخوانيات العصر الأموى ، فلا يستطاع الفصل بين الرسائل الإخوانية والرسائل الدينية فصلاً تاماً ، إذ كان الغالب على الرسائل الإخوانية التى حفظت لنا روح الوعظ والإرشاد . ومن أوضح الأمثلة على ذلك رسالة عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله ^(١) :

« أما بعد ،

فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكّل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه . فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نيّة له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا مال لمن لا رفق له ، ولا جديّد لمن لا خلق له .

وأحب أن أعبر عن بعض الشك فى هذه الرسالة التى رواها جماعة متأخرون ، منهم صاحب زهر الآداب ، ومجمع الأمثال . ولا يخفف من هذا الشك إلا أن أسلوبها المسجع ، وعباراتها المتوازنة ، تشبه أسلوب أحاديث الرسول الوعظية ،

والخطاب الدينية ، وهي لا تحتوى إلا على ذلك ، حتى انستطيع أن نضعها في باب الرسائل الدينية دون أن نخشى لوماً . ومن أمثلة هذه الصلة بين الرسائل الإخوانية والدينية الرسائل المتبادلة بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي ، التي توجد في جمهرة الرسائل ، وفي حلية الأولياء ^(١) . يقول سلمان في إحدى رسائله ^(٢) :

« أما بعد ،

فإنك لن تنال ما تُرَبِّد إلا بترك ما تشتهي ، وإن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تسكره ، فليكن كلامك ذِكْراً ، وصمتك فِكْراً ، وظَرْك عِزّاً . فإن الدنيا تنقلب ، وبهجتها تتغير ، فلا تغتر بها ، وليكن بيتك المسجد .
والسلام »

ويقول أبو الدرداء :

« سلام عليك .

أما بعد ،

فإن أوصيك بتقوى الله ، وأن تأخذ من صحتك لِسَمِّكَ ، ومن شبابك لَهَرَمِكَ ، ومن فراغك لَشُغْلِكَ ، ومن حيائك لَمَوْنِكَ ، ومن جفائك لَمَوَدَّنِكَ . واذكر حياة لا موت فيها ، في إحدى المزلتين : إما في الجنة ، وإما في النار ، فإنك لا تدرى إلى أيهما نصير » .

ونرى في هاتين الرسالتين سجماً ، وزواجا ، وطباقا ، وجعلا متوازنة ، وذلك — كما قلنا قبل — هو أسلوب المواعظ الدينية ، مواعظ الرسول أو الخلفاء

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٣٢٤ - ٣٢٥ . وأبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ١ : ٢١٤ ، ٢١٦ .

(٢) انظر النص المطول في حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

الراشدين أو الصحابة ، بل هو أسلوب خطب الجمعة في المساجد حتى اليوم . وقد أخذت هذه الرسائل ذلك الطابع من أحاديث الرسول ومواعظه ، التي كان يغلب عليها - فيما يظهر - الأسلوب المتوازن ، الذي قد يسجع أحياناً ، وقد يزاوج كثيراً . ونرى من هذا أن السجع ليس بغريب عن الأوساط الدينية . يؤيدنا في ذلك أقوال السكهان في الجاهلية ، والقرآن والأحاديث النبوية في صدر الإسلام ، وآثار المختار ووعاظ الشوارع والمساجد في المدن الإسلامية في العصر الأموي ، وما بعده . وينبغي أن يقر في أذهاننا أن ليس هذا هو الأسلوب الشائع في الرسائل الإخوانية في هذا العصر ، وإنما تغلب عليها البساطة والسهولة والصرامة ومحاولة الإفهام لا غير ، كما هو الحال في الرسائل السياسية . ويظهر هذا في رسالتى أبي الدوداء وسلمان الفارسي التاليتين . كتب أبو الدرداء من الشام إلى سلمان في العراق^(١) :

« سلامٌ عليك .

أما بعد ،

فإن الله رزقني بعدك مالا وولداً ، ونزلت الأرض المقدسة » .

فأجابه سلمان :

« سلامٌ عليكم .

أما بعد ،

فإنك كتبت إلى أن الله رزقك مالا وولداً . فاعلم أن الخير ليس بكثرة المسال والولد ، ولكن الخير أن يكثر حملك ، وأن ينفعك علمك . وكتبت إلى

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٣٢٤ .

أنك نزلت الأرض المقدسة ، وإن الأرض لا تعمل لأحد . اعْمَلْ كَأَنَّكَ تَرَى اللَّهَ ،
واعدّد نفسك من الموتى » .

وتظهر البساطة والصرامة في الرسالتين التاليتين المتبادلتين ، بين عبد الله
ابن عمر و غلام له ^(١) ، كتب إليه غلامه :

« أما بعد ،

فقد أُعْطِيتُ بِفَضْلِ مَائِ ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، بعدما أُرْوِيتُ زَرْعِي وَنَحْلِي وَأُضْلِي .
فإن رأيت أن أبيّته وأشتري به رقيقاً ، أَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي عَمَلِكَ ، فعلتُ » .
فأجابه عبد الله :

« قد جاء في كتابك ، وفهمتُ ما كتبتَ به إليّ ، وإني سمعتُ رسول
لِلَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ لِيَمْنَعَ بِهِ فَضْلَ كَلْبٍ ، مَنَعَهُ اللَّهُ
أَفْضَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فإذا جاءك كتابي فاسْقِ نَخْلَكَ وَزَرْعَكَ وَأُضْلَكَ ، وما فَضَّلَ
فَاسْقِ جِيرَانَكَ ، الْأَقْرَبَ فَلِأَقْرَبَ .

والسلام » .

وفيما عدا هذه الرسائل التي لا تتجاوز عدد الأصابع ترى عصر الرسول ،
وعصر الخلفاء الراشدين ، يمر مسرعاً أو مبطئاً ، دون أن يصل إلينا شيء منه .
ولا يعني هذا أنه لم تسكن توجد إخوانيات كثيرة ، بل لقد كانت ، وكانت أيضاً
في تطور سريع ، حتى وجد نظام البريد في عهد عمر . وكان سبب وجوده حب
عمر في الاتصال السريع الدائم بعماله . يؤيد ذلك قصة نصر بن حجاج الذي نفاه
عمر من المدينة إلى البصرة ، لجلاله وخوف عمر على النساء أن تفتتن به . يقول الخبر :

(١) نفس المرجع : ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

« وأبزر د عمر بريداً إلى عتبة بن أوى سفیان بالبصرة فأقام بها أياماً ، ثم نادى منادى عتبة : من أراد أن يكتب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً فليكتب ، فإن بريد المسالعين خارج . فكتب الناس ، ودس نصر بن حجاج كتاباً^(١) . . . » .
ولاشك أن هذا النظام كان عاملاً هاماً فى الرقى بالرسائل الإخوانية وغيرها ونشرها .

ولسكننا لم يصل إلينا غير هذه الرسائل القليلة من ذلك العهد ، فما السر يا ترى ؟ السر فى ذلك — كما أعتقد — أن الأدباء العرب لم يعنوا بهذه الرسائل الإخوانية ، بل ما كانوا يعنون بها فى الأزمنة المتأخرة ، إلا إذا كانت آية فى البلاغة أو نهاية فى الجمال والصنعة . وما كان ذلك ليتوافر رسائل هذا العهد المبكر . وإذن فسبب ضياع إخوانيات الجاهلية والصدر الأول من الإسلام ، بل ضياع كثير من رسائل الأزمنة المتأخرة ، أن الأدباء ما كانوا يهتمون بهذا النوع من الكتابة ، وما كانوا يعتبرونه فناً من الفنون ، وخاصة أنه يتصل بالشئون الخاصة للأدباء . والأدب العربى — الأسف — مصاب بمرض إهمال تلك الأمور ، فى نثره أو شعره . ويرجع ذلك إلى أنه أدب قصور ، يعيش على موائد الملوك ، ولا يصل إلينا منه إلا ما اقترب منهم واتصل بهم . ولعل هذا المرض لم يصب به الأدباء ، وإنما أصيب به النقاد والمؤرخون ، وتلك هى الحقيقة . فما كان نقدنا — رحمهم الله — يقدرون ويستحسنون غير شعراء البلاط وكتابه ، فيخلدونهم فى كتبهم وموسوعاتهم . أما الشعراء الخاصون والكتاب الخاصون ، أو الأدباء الذين يعيشون لأنفسهم ، فلم يحفلوا بهم إلا قليلاً . ولذلك لم نجد عنهم غير أخبار نادرة تنساقط إلينا منزوية منكشة . وهكذا ضاع شعر كثير جميل ، وكتابة كثيرة جميلة ، وعاش ذلك المديح

وشعرافه ، وتلك الكتابة الديوانية وكتابها . ولو وصلت إلينا آثار أولئك الأدباء المنطوين على أنفسهم ، لوجدنا كنوزاً أدبية تفيض بالعاطفة ، ولتفتحت أمامنا ميادين فسيحة للبحث والدرس ، ولعثرنا على مذاهب فنية تقوم على قوام الأدب من أفكار وانفعالات وأخيلة ، لا على الصنعة والتصنيع والتصنع ، التي أولع بها كتاب القصور وشعراؤها . ولعلنا نعذر هؤلاء النقاد والمؤلفين ، إذا عرفنا أنهم كانوا يؤلفون كتبهم للملوك والأمراء ، فيملأونها بأخبارهم ، ويسقطون منها ما يعتبرونه أخبار الشعب والسوقة . والسبب الثاني لضياع إخوانيات العصر الجاهلي والإسلامي عدم سمو هذه الرسائل إلى مرتبة الفن ، فما كان ذلك الفرع الناشئ من الأدب ليتخطى حدود الزمان والمكان ، ويضرب إلى الفن .

أما الذي حفظ لنا الكتابة السياسية ، التي لم تصل إلى مرتبة الفن ، فارتباطها الشديد بالتاريخ . ولذلك نجد لها مدونة في كتب التاريخ لا في كتب الأدب . ولن يعنى الأدباء بها إلا عندما تصير فناً جميلاً خليقاً بعنايتهم . وأما الذي حفظ الرسائل الإخوانية السابقة - في ظني - فهي المواعظ التي تشتمل عليها . ولعلها لم يبق بصورتها القديمة ، وإنما نالها أيدي الرواة بالتحبير والتحسين ، ومن هنا جاء الفرق بين الرسائل الحبرة التي فيها وعظ ، والرسائل العاطلة التي لا مواعظ فيها .

الفصل الثاني

العصر الأموي

في مستهل هذا العصر يتولى الخلافة معاوية بن أبي سفيان ، فيعنى بالبريد وتنظيمه ، حتى يشتهر أنه أول من وضع البريد ^(١) ، وليس ذلك بصحيح ، فإن واضعه هو عمر بن الخطاب ، كما تقدم . ولكن العصر الأموي لم يكن بأحسن حظا من الفترة السابقة عليه ، إذ ضاع أكثر رسائله الإخوانية أيضا ، ولم نستطع العثور إلا على قريب من عشرين رسالة . وهي في النصيح والعتاب والاعتذار والتعزية والشفاعة والرجاء وتبادل الآراء والمعارف العلمية ، وما إلى ذلك من الأمور التي تقع بين الأصدقاء . ولا نسكاد نصل إلى عبد الحميد حتى نراهم يأنون له بنحو خمس رسائل إخوانية ، بل يؤلف رسالة طويلة في الإخاء ذاته .

ونرى هذه الرسائل في بادئ أمرها بسيطة اللغة ، صريحة الأسلوب ، لا نرمي إلا إلى الإفهام ، دون تجميل أو تحبير ، كما نرى في رسالة محمد بن الحنفية إلى أخيه الحسين ، حين افترقا متغاضبين ، وأراد محمد الصلاح ^(٢) :

« من محمد بن علي إلى أخيه الحسين بن علي ،

أما بعد ،

فإن لك شرفا لا أبُلَّغه ، وفضلا لا أدركه ، فإن أمي امرأة من بني حنيفة ، وأُمك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو كان مِلء الأرض نساء مثل أمي

(١) المكتاني : التراثيب ١ : ١٩٢ . (٢) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٤ .

ما وَفَّينَ بِأَمْرِكَ ، فإذا قرأتَ رُقعتي هذه ، فالْبَسْ رداءَكَ ونعلَيْكَ ، وسِرْ إلى لترصيفي ، وإياكَ أن أسبقَكَ إلى هذا الفضل الذي أنت أولى به مِنِّي .

والسلام .

أما رسالة معاوية إلى ابنه يزيد في عتابه ، التي يقول فيها ^(١) :

« من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية ،

أما بعد ،

فقد أدت ألسنة التصريح إلى أذن العناية بك ، ما جفع الأمل فيك ، وباعد الرجاء منك ، إذ ملأت العيون بهجة ، والقلوب هيبة ، وترامت إليك آمال الراغبين ، وهمم المتنافسين ، وشجّت بك فتیان قريش وكهول أهلِكَ ، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجِرَّةِ المهُومَةِ ، والكفِّ الجشِّ .

اقتحمت البوائق ، وانقذت لمة اير ، واعتصمتها من سمو الفضل ورفيع القدر . فليتك - يزيد - إذ كنت لم تكن ، سررت يافعا ناشئا ، وأثكلت كهلا ضالعا ، فواحرزناه عليك ، يزيد ! وياحر صدر المشكل بك ، ما أشمت فتیان بنی هاشم ! وأذل فتیان بنی عبد شمس ، عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فمَن لصالح ما أفسدت ، ورتق ما فتقت ؟ هيهات ! حَمَشَتِ الدربةُ وجهَ التصبر بك ، وأبت الجناية إلا تتحدرا على الألسن ، وحلاوة على المناطق ، ما أريج فائدة نالوها ، وفرصة انتهزوها ! ... ^(٢) »

(١) نفس المرجع ٦٩ .

(٢) « أدت ألسنة التصريح ... الأمل فيك » : أي أفضت بأنبائك ألسنة الرقباء عليك إلى مسامع أبيك ذي العناية الشديدة بشأنك ، وصرحت له بما تقارفه من المنكرات . الجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية . وهو عه ما أكل : قيام إياه ، والمراد أنهم يستقلون ذكرك . كظه الطعام كظاً : ملأه حتى لا يطيق النفس والجش : الكثير . والبوائق : =

أما هذه الرسالة فأشك فيها شكاً قوياً، بسبب ما فيها من العبارات التي تحط قدر يزيد، وتبلغ منه ما يرده خصمه، مما لا يصح أن يصدر عن أبيه الذي يرشحه لولاية العهد. ولعل أسلوب هذه الرسالة يساعد على هذا الشك، إذ نرى فيها شيئاً من السجع، وكثيراً من الألفاظ الغريبة التي لم نعتد وجودها بهذه الكثرة عند معاوية، كما نرى فيها مجازاً بعيداً عن عصر معاوية مثل قوله «فقد أدت أسنة التصريح إلى أذن العناية بك ما فجع الأمل فيك» وقوله «خشت الدربة وجهه التصبر فيك». وما يزيد من حدة هذا الشك أنها وصلت إلينا من رواية متأخرة، أعنى كتاب صبح الأعشى^(١).

وتظهر هذه البساطة أيضاً في الرسائل التي يتبادل فيها العلماء المعلومات. يقال إن عروة بن الزبير وعبد الملك بن مروان كانا يتبادلان الرسائل العلمية. يقول الطبري^(٢): «ثنا هشام بن عروة، عن عروة، أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان: «أما بعد،

فإنك كتبت إلى نسائي عن خالد بن الوليد، هل أغار يوم الفتح؟ وبأمر من أغار؟ وإنه كان من شأن خالد يوم الفتح أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم. فلما ركب النبي بطن مرّ، عامداً إلى مكة، وقد كانت قريش بعثوا أبا سفيان وحكيم بن حزام يتلقيان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم حين بعثوهما لا يدرون أين يتوجه النبي صلى الله عليه وسلم: إليهم، أم إلى الطائف، وذلك أيام الفتح؟ واستتبع أبو سفيان وحكيم بن حزام بدّيل بن ورقاء، وأحبا أن يصحبهما،

= جمع بائقة، وهي الداهية. والمعاير: العايب. والدربة: المادة والجرأة على الأمر، والمعنى دربتك على اقتراف المعاصي والسيئات.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٦: ٣٨٧. (٢) ١: ١٦٣٤.

ولم يكن غير أبي سفيان وحكيم بن حزام وبديل . وقالوا لهم حين بعثوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نُؤْتِيَنَّ من ورائكم ، فإننا لا ندري مَنْ يريد محمد : إيانا يريد ، أو هوازن يريد ، أو ثقيفا ؟ وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش صلح يوم الحديبية وعهد ومدة ، فكانت بنو بكر في ذلك الصلح مع قريش . فاقتتل طائفة من بني كعب ، وطائفة من بني بكر ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش في ذلك الصلح الذي اصطلحوا عليه « لا غلال ولا إسلال » . فأعانت قريش بني بكر بالسلح ، فاتهمت بنو بكر قريشا ، فنها غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة . وفي غزوته تلك لقي أبا سفيان وحكima وبديلا بمر الظهران » .

ولا يبقى أمر هذه البسطة طويلا ، إذ لا يلبث قارئ هذه الرسائل أن يشعر بأن كتابها كانوا يطلبون من أنفسهم إحكامها ، حتى لا يفلت من بين أصابعهم شيء ، ويطلبون إنجازها ، حتى لا ترى فيها موصفا لإطراب ، فأنت تشعر فيها بنوع من الدقة والتحرز والحرص . يظهر هذا في رسالة عبد الملك بن مروان إلى ولده يعاتبه فيها^(١) :

« أما بعد ،

فإني أمرُك بأمرٍ فأنيت غيره ، ووصيتك وصية فأنيت إلا عصيانتها ، وخفتُ أنك بمنزلة الصبي الذي إذا أمر بشيء أباه ، وإذا نهى عن شيء أتاه ، فيحتملُ له فيما ينفعه بأن يُنهى عنه ، وفيما يضره بأن يُؤمر به ، ويا سؤءَ قى لمن هذه حاله !

والسلام »

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٤٢ .

وتظهر في هذه الرسالة ثمرة التفكير الطويل في طريقة العتاب ، وإيلاء المعائب بما لا يخرج عن الأدب ، بعكس الحال في رسالة معاوية . فهي عتاب ساخر مصور ، يشبه الرسم « الكاريكاتوري » ، لا سباب فيه ولا شتم .

ونرى ظاهرة أخرى في رسالة بشر بن مروان ، التي يعتذر فيها لأخيه عبد العزيز^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

نولا المفقوة لم أحتج إلى العذر ، ولم يكن لك في قبوله مني الفضل . ولواحتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لذت فيه ، وبقية الأكابر على الأصاغر من شيم الأكارم ، ولقد أحسن مسكين الدارمي حيث يقول :

أخاك أخاك إن من لا أخاله كساع إلى الهيجاء بغير سلاح
وإن ابن عم المرء - فاعلم - جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح »

إذ نرى في هذه الرسالة ، إلى جانب الإيجاز والإحكام والاهتمام بالأسلوب وتوازن الألفاظ في الأكابر والأصاغر والأكارم ، نرى فيها إلى جانب كل هذا تفكيراً عقلياً يخرج بها إلى حد الغموض القليل ، ونرى فيها أيضاً نوعاً آخر من التحلية ، أعني الاقتباس من الشعر .

وتأخذ هذه الرسائل الإخوانية في التقدم ، إلا أنها تصاب بنكسة عند عمر ابن عبد العزيز ، فترجع إلى حالها الأول لا ترمي إلا إلى الإفهام ، ولا تأبه لزينة أو جمال ، وإنما تصدر عنه بسيطة خالصة صريحة . يظهر هذا في رسالته إلى عمر ابن عبد الله بن عتبة يعزيه في أبيه^(٢) :

(١) أحمد صفوت : الجهرة ٢ : ٢٧٠ . (٢) نفس المرجع ٣٥٦ .

» أما بعد ،

فإننا قومٌ من أهل الآخرة سَكَنَّا الدنيا ، أمواتُ أبناءِ أموات ، فالمعجب كل العجب لميت ، يكتب إلى ميت ، يعزيه عن ميت .

والسلام »

ويظهر هذا أيضا في رسالته إلى مؤدب ولده ، وإن كانت أعلى من الأولى أسلوبا ^(١) :

» من عبد الله عز أمير المؤمنين إلى سهل مولاة .

» أما بعد ،

فإني اخترتُك على علمٍ مني بك لتأديب ولدي ، فصرفتهم إليك عن غيرك من موالِي وذوي الخاصة بي ، فخذهم بالجفاء فهو أَمَعَن لإفدائهم ، وترك الصعوبة ، فإن عادتِها تُكسِبُ الغفلة ؛ وقلة الضحك ؛ فإن كثرتِهُ تُميت القلب . وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغضُ المَلاهي التي بدؤوها من الشيطان ، وعاقبتُها سخط الرحمن ، فإنه بلغني من الثقات من أهل العلم أن حضورَ المعازف ، واستماع الأغاني ، واللهجَ بها يُنبِتُ النفاقَ في القلب ، كما ينبت العشبُ الماء ، ولعمري لتَوَقَّى ذلك بتركِ حضورِ تلك المَواطِنِ ، أيسرُ على ذِي الذهنِ من الثبوتِ على النفاقِ في قلبه . . . »

وتظهر هذه النسخة في رسائله جميعها على اختلاف أنواعها ، ولكنهم لا تنمى
شخص عمر ، فهذا الحسن البصرى ، في عهده . ، يتصل به أن مكحولاً فقيه الشام
توفى فيحزن عليه ، ثم يتصل به بطلان ذلك فيفرح ، ويكتب إليه ^(١) :
« أما بعد ، أبا عبد الله ،

كان الله لنا ولك في المحيا والممات ، وقضى لنا ولك بخير في الدنيا والآخرة ،
ويستر لنا ولك حسن المال والمنقلب .

فإيه أتنا عنك ما راعنا ، ثم أنى بعده ما كذب به ، فلعمرو الله لقد سررنا
وإن كان السرور بما سررنا به وشيك الانقطاع ، ذاهباً عما قيل إلى الخير الأول .
فهل أنت - عاهك الله ووفقنا وإياك لصالح العمل - كرجل ذاق الموت ، وعين
ما بعده ، وسأل الرجعة فأجيب إليها وأعطى ما سأل ، بعد أن عاين ما فاته ،
فتأهب في نقل جهازه إلى دار قراره ، لا يرى أن له من ماله إلا ما قدم أمامه
ومن عمله إلا ما كتب له ثوابه .

والسلام »

فهذه الرسالة على الرغم من اختلافها عن رسائله الأخرى الدينية ، تخالف
كتب عمر بن عبد العزيز ، فهي تتدفق بالشعور الجميل ، الذي يغدق على الألفاظ
جمالاً ، ويكسب الأسلوب فصاحة وبلاغة .

ويرجع الإيجاز والإحكام في التعبير ، والتفكير العقلى إلى الظهور ثانية في رسالتي
سالم مولى هشام . وهالك رسالته إلى بعض إخوانه :

« أما بعد ،

فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك ، جسيم الرّجاء فيا بلى عندك ،

قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك ، وجعل ماسلف إلى منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك ^(١) .

ويلاحظ على هذه الرسالة توازن جملها وتقابلها ، بل تقابل ألفاظ كل جملة بألفاظ الجملة التي تليها .

وإلى جانب هذا الإيجاز تيار آخر ، هو تيار الإطناب ، الذي يظهر عند عقال ابن شبة وعبد الحميد الكاتب . فقد كتب عقال إلى خالد بن عبد الله القسري في شفاعته : « إن الله انتخبك من جوهرة كرم ، ومنبت شرف ، وقسم لك خطراً شهرة العرب ، وتحدث به الحاضرة والبادية ، وأعان خطرَكَ بقدره مبسوطه ، ومنزلة ملحوظة ، فجميع أكتافك من جواهر العرب يعرف فضلك ، ويسرّه ما خار الله لك ، وليس كلهم أداله الزمان ، ولا ساعده الحظ ، وأحق من تعطف على أهل البيوتات ، وعاد لهم بما يبقى لهم ذكره ، ويحسن به نشره ، مثلك .

وقد وجهت إليك فلانا ، وهو من دينية قرآني ، وذوي الهيئته من أسرتي وعرف معروفك ، وأحببت أن تلبسه نعمتك ، وتصرفه إلي ، وقد أودعنتي وإياه ما تجده باقياً على الشئ ، جميلاً في الغيب ^(٢) .

فهذه الرسالة فيها إطناب ، آت من ترادف الجمل ، الذي تعمد به الكاتب ليوفر لرسالته نوعاً من التوازن ، الذي يحدث جرساً موسيقياً عند القراءة ، وفيها أيضاً فكر يحسن التصرف في الشفاعه ، يبدأ بمدح للشفوع إليه وبيان خطره ، وينتهي بالشفع فيه وجدارته ، ويختتم بالأثر الحميد لقضاء هذه الشفاعه .

أما الإطناب عند عبد الحميد فيظهر في رسالته إلى أخيه يعرفه بمولوده الجديد ^(٣) :

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٤٣١ . مؤتلف : مستأنف .

(٢) نفس المرجع ٤١٦ . انتجب : اختار . والخطر : القدر وأدال : نصر . والغيب : العاقبة .

(٣) نفس المرجع ٥٤٩ .

« أما بعد ،

فإني ما أنعمتُ من مواهب الله نعمة خُصِّصَتْ بِمِزْنِهَا، وَأَصْفِيَتْ بِخُصِّيَّتِهَا
كانت أسرتُ من هبة الله لي ولداً سمَّيته «فلانا»، وأملتُ ببقائه بعدى حياة ذكري،
وحسن خلافة في حُرْمَتِي، وإشراكه إياي في دَعَائِي، شافعاً لي إلى ربه عند
خَلَوَاتِهِ في صَلَاتِهِ، وَحَبْنَهُ، وكلَّ موطنٍ من موطن طاعته . فإذا نظرتُ إلى
شخصه تحرك به وَجْدِي، وظهر به سروري، وتعطف عليهِ مني أنسة الولد، وتولتُ
عني به وَحْشَةُ الْوَحْدَةِ، فأنا به جَذَلٌ في مَغْيَبِي وَمَشْهَدِي، أحاول مسَّ جَسَدِهِ
بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يعذله عندي عظيماتُ الفوائد،
ولامُنْفَسَاتِ الرغائب، سَرَّتْني به واهبُهُ لي على حين حاجتي، فشدَّ به أزرِي، وحلَّنِي
من شكري فيه، ما قد آذَنِي بِثَقْلِ حَمْلِ النِّعَمِ السالفة إلى به، المقرونة سَرَائِرِهَا
في الْعَجَبِ، بتارات ما يُدْرِكُنِي به من رقة الشفقة عليه؛ مخافة مجاذبة المنايا إياه،
وَوَجَلًا من عواصف الأيام عليه ... » ولا شك أن القارئ يشعر بإطنا به، الذي
يأتني من ترادف الجمل، وتفصيله في الكلام. ويشعر أيضاً بأن الطفل مائل أمامه،
وقد رفعه والده على يديه، حانياً عليه، ملاعباً إياه، حين يقرأ قوله « فإذا نظرتُ
إلى شخصه تحرك به وجدِي، وظهر به سروري، وتعطف عليهِ مني أنسة الولد،
وتولتُ عني به وحشة الوحدة، فأنا به جَذَلٌ في مَغْيَبِي وَمَشْهَدِي، أحاول مسَّ
جَسَدِهِ بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه. » وهذه قدرة عبد الحميد على
التشخيص والتصوير .

وكانت ثمرة تطور كتابة الرسائل الإخوانية في هذه العصور تلك الرسالة الجامعة
التي كتبها عبد الحميد في وصف الإخاء ذاته . يقول عبد الحميد^(١) :

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٤٣٤ .

« فَإِنَّ أَوْلَى مَا اعْتَزَمَ عَلَيْهِ ذَوُو الْإِخَاءِ ، وَتَوَاصَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَوَدَّاتِ ، مَا دَعَا أَسْبَابَهُ صَدَقُ التَّقْوَى ، وَبُنِيَتْ دَعَائِهِ عَلَى أَسَاسِ الْبِرِّ ، ثُمَّ أُنْهَدَ الْبِنَاءُ حَرِيْزُ التَّوَاصُلِ ، وَشَيَّدَهُ مُسْتَعِذُّ الْعَشْرَةِ ، فَادَّعَمَ قَوِيًّا ، وَصَفَا مُوْنِقًا ، وَأَخْلَصَتْهُ الْمَقَّةُ مُنْعَطِفَةً ، وَسَكَنْتْ بِهِ الْقُلُوبُ أُنَيْسَةً ، وَسَمَتْ مِنْ مُوَاصَلَةِ الْهِمَمِ مُسْتَعْلِيَةً عَنْ كُلِّ زَائِفٍ مَعْتَاقٍ ، وَخَوْفٍ عَارِضٍ ^(١) . »

ويظهر في هذه الفقرة توازن الجمل وترادفها اللذان يتعمدهما عبد الحميد . ويظهر فيها أيضاً ميله للسير المنطقي ، فهو يمثل الإخاء ببناء تجتمع له الأسس من التقوى والبر ، ويرفع ببناء التواصل والعشرة العذبة ، ويدعمه ويصفيه ، ثم تجمله المقة والمحبة ، وأخيراً تسكنه القلوب مستأنسة . ونرى في هذا السير المنطقي حباً للتجسيم والتجسيد ، يجعلنا نتصور البناء ، في جميع أطواره ، ماثلاً أمام أعيننا كأننا لمسناه بأيدينا . ويظهر هذا الميل للتجسيد والتصوير في تركيب الجمل ، التي توحى بالتجسيد أو تسكب الكلام البروز والوضوح كقوله . « فَأَنَا مُصَيِّخُ السَّمْعِ لِلْفَظِّ ، عَقْلُ الْعَقْلِ عَنْ سِرِّ أَمْرِهِ ، مُحْتَضِرُ الذَّهْنِ فِي تَدْيِيرِهِ ، ذَهْلُ الْقَلْبِ عَنْ تَفْنِينِ الْقَوْلِ » . ولعل هذا الميل للتجسيد والتصوير هو الذي ساقه إلى الإكثار من الحال ، التي نعرف أنها تحدد الأمور وتوضحها ، وتعطيها صوراً ماثلة أمام ذهن المستمع ، فهو يقول في العبارة السابقة « فَادَّعَمَ قَوِيًّا ، وَصَفَا مُوْنِقًا ، وَأَخْلَصَتْهُ الْمَقَّةُ مُنْعَطِفَةً ... » ويقول أيضاً في نفس الرسالة : « وَكُشِفَ لَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ ، مُظْهِرًا أَعْلَامَهُ ، مُبْدِيًا فَيْنَتَهُ ، طَارِحًا قَنَاعَ سِرِّهِ ، مُعْلِنًا مَكْنُونَ ضَمِيرِهِ » . وتكرر عنده - غير الحال - بعض الصيغ الأخرى مثل المفعول لأجله في قوله . « وَبَثَّ فِي الْحَقَبِ مِنَ الْمَسْكَارِمِ »

(١) أنهد : رفع . وحرز : حصين . والمقة : المحبة .

قياماً لهم بالنصرة ، وحيّطاً للمودة ، وترغبنا في العشرة » . ونحن ندرك أن ذكر الأسباب مما يُحدّد الأمور ، ويجلّي الظروف المحيطة بها . وتتكرر عنده أيضاً صيغة التفضيل يليها المضاف إليه أو التمييز مثل قوله : « فكان أكهف لجأ ، وأحرز حصن ، وأحصف جنة ، وأعون ظهير ، وأبقى ذخيرة ، وأعظم فائدة ، وأشرف كنز ، وأفخر صنعة ، وآفق منظر ، وأنبع زهرة ، أكثر الأشياء ريعاً ، وأماها وصلاً ، وأمدّها سبباً ، وأقواها أيداً ، وأحلاها ذوقاً ، وأدعمها ثباتاً ، وأرساها ركناً ^(١) » وهذا التكرار يكسب كتابته جملاً موسيقياً ملحوظاً ، فوق تحديده ما يريد من المعاني . وهكذا نرى عبد الحميد يوفر كل هذه الخصائص لإخوانياته مما يضيف عليها جملاً وفناً ، ويجعلها جديرة بزعامة العصر الأموي .

الخلاصة

وجملة القول أن الرسائل الإخوانية الخالصة التي لا وعظ فيها ، بدأت بسيطة خالصة صريحة ، ليس فيها شيء من الفن ، واستمرت كذلك مديدة في العهد الأموي ، بخلاف الرسائل السياسية ، التي سارت في طريق الفن منذ أواخر صدر الإسلام وأوائل العهد الأموي . ولسكن الإخوانيات ما لبثت أن تطورت سريعاً ، فسارت في اتجاهين : اتجاه الإيجاز والإحكام والدقة عند عبد الملك بن مروان وأخيه بشر وسالم ، واتجاه الإطناب وترادف الجمل وتوازنها الموسيقي عند عقّال وعبد الحميد . وكان الاتجاهان كلاهما لا يرضيان بما يعطيه العقل للوهلة الأولى ، وإنما يفكران ، ويعمقان الفكر ، في سبيل الوصول إلى الأمر الجديد البديع . ونستطيع أن نقول إن تفنّن الكتابة الإخوانية تأخر قليلاً عن الكتابة السياسية ، ولسكن الإخوانيات سرعان ما أدركت السياسيات ، وسارت بمجوارها غير متخلّفة عنها ، ولا متقدمة عليها .

(١) أكهف : أحصن وأمنع . وأحصف : أحكم . والجنة : كل ما بقى . وراع يريع ريعاً : نما وزاد . والأيد : القوة .

الباب الثالث

الرسائل الدينية

الفصل الأول

الرسائل الوعظية

من المستحسن أن نبين ما نريده بهذه الرسائل قبل أن نتكلم عنها ، فهي ما أرسله كبار رجال الدين والوعاظ والزهاد إلى الخلفاء والأمراء ، والأصدقاء أحيانا ، لوعظهم ، وتوجيههم الوجهة الدينية التي يريدون ، وإظهار رأى الدين في المشكلات التي أمامهم .

ولو أردنا أن نفصل بين هذه الرسائل والأنواع الأخرى السابقة ، ما استطعنا في كثير من الأحيان ، وقد رأينا ذلك من قبل في تعزية الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل ، وفي رسالة عمر بن الخطاب لابنه ، وفي الرسائل المتبادلة بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي ، وغيرها من الرسائل ، التي نستطيع أن ندخلها في باب الرسائل الإخوانية أو الدينية دون حرج . وتظهر الصلة الشديدة بين الرسائل الدينية والسياسية كل ظهور في رسائل الخلفاء إلى عمّالهم ، وخاصة رسائل عمر بن عبدالعزيز . وليس ذلك بالأمر الغريب لأن الخليفة كان الرئيس الديني والرئيس السياسي في نفس الوقت . وقد يتضح السبيل أمامنا حين تغلب على الرسالة صبغة الوعظ الديني ، أو تكون مرسلة إلى أحد الخلفاء أو الأمراء .

وعند ما نبحت هذا النوع من الرسائل نجده يختلف عن الأنواع الأخرى. فهو صادر عن عاطفة دينية لا تريد الإفهام أو الإخبار فحسب ، وإنما تريد دفع المرسل إليه إلى العمل بما في هذه الرسائل من مواعظ . وإذن فمجرد الإفهام غير مطلوب منها ، وإنما يطلب منها أيضاً أن تؤثر في قارئها ، وتدفعه إلى تغيير وجهة نظره في الحياة ، وإلى أن يقوم بأعمال قد يكون غير معتاد لها من قبل . وإذن يجب على الكاتب أن يراعى هذه المسألة ، ويبحث عن الأمور التي تأتي له بهذه ثمرة . ومن هنا يبحث عن تحميل ألفاظه شحنة من عاطفته الدينية الثائرة المتدفقة ، كي تثير هذه العاطفة شعور القراء . وما تستطيع الألفاظ جميعاً أن تحمل هذه العواطف ، وتؤديها الأداء الجميل ، ولذلك يضطر الكاتب إلى اختيار ألفاظه واختيار جملة ، واختيار أسلوبه . وهو قد يفعل كل ذلك دون أن يتنبه له ، وإنما بدافع من عاطفته القوية الثائرة ، وقد يفعله وهو جد واع له . ولكن الثمرة واحدة في الحالتين ، إذ ستخرج رسائله سامية الأسلوب ، عذبة الألفاظ ، موسيقية العبارات ، زاخرة بالمشاعر . وهذا ما نلاحظه على هذا النوع من الرسائل في مجملتها منذ البداية .

وقد رأينا في باب الرسائل الإخوانية ما كانت تتحلى به رسالة عمر ، ورسائل أبي الدرداء وسلمان الفارسي من خصائص ، فليست بحاجة إلى تكرار الكلام عنها . ولما كان صدر الإسلام لم يصل إلينا منه رسائل غيرها ، فإننا سنقتل من فورنا إلى العصر الأموي .

فإذا ما انتقلنا إلى ذلك العصر ، وجدنا أنه بقي لنا منه أكثر مما بقي من الإخوانيات ، ويرجع أغلب رسائله إلى عهد عمر بن عبد العزيز ، وكثير منها إلى قلم الحسن البصري ، تلك الشخصية الدينية الرائعة التي ظلت مثلاً بارزاً للورع

والتقوى طوال القرون السابقة حتى اليوم ، والتي كانت المحور الذى دارت عليه قصص دينية جميلة ، محقة ومبطلّة .

وإذا ما جمعنا هذه الرسائل أمانا ، وأخذنا نتمعن النظر فيها لتبين خصائصها ، وجدنا الخاصة الأولى التى تشيع فيها توازن الجمل الموسيقى . نرى هذا فى رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أحد أصدقائه ^(١) :

« يا أخى ، إنك قد قطعتَ عَظْمَ السفر وبقى أَقْلُهُ ... وإياك أن تَعْرُكَ الدنيا ، فإن الدنيا دارٌ من لا دارَ له ، ومالٌ من لا مالَ له ، يا أخى ، إن أجلك قد دَنَا ، فَسَكُنْ وصىَّ نَفْسِكَ ، ولا تجعل الرجال أوصياءك » .

ونرى هذا التوازن الموسيقى فى أغلب الرسائل الباقية ، ولعل القارئ سيلاحظ ذلك فى الأمثلة الأخرى التى سنذكرها فيما يلى .

ومن الخصائص التى تبين عنايتهم بالفاظهم ، ذلك الزواج الذى يفشوف معظم رسائلهم ، والذى إن أخلى مكانه ، فإنما يخلّيه للسجع . يقول عمر بن عبد العزيز للوراق لأبى بكر بن خزيم والى المدينة ^(٢) :

« إن الطَّالِبِينَ الَّذِينَ أُنْجَحُوا ، والتَّجَارَ الَّذِينَ رَاحُوا ، هم الذين اشتروا الباقي الذى يدوم ، بالفاقر الذى يذموم . فَاغْتَبَطُوا بِنَيْمِهِمْ ، وَأَحْمَدُوا عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ . فَاللَّهُ اللَّهُ وَبَدَنُكَ صَحِيحٌ . وَقَلْبُكَ مُرِيحٌ . قَبْلَ أَنْ تَنْفَضِيَ أَيَّامُكَ ، وَيَنْزَلَ بِكَ حِمَامُكَ . فَإِنَّ الْعَيْشَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ يَتَقَلَّصُ ظِلُّهُ ، وَيَفَارِقُهُ أَهْلُهُ . فَالسَّعِيدُ الْمُؤَفَّقُ مِنْ أَكُلٍ فِي عَاجِلِهِ قَصْدًا ، وَقَدَّمَ لِيَوْمٍ فَقَرَهُ ذُخْرًا ، وَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا مَحْمُودًا ، قَدْ انْقَطَعَ عَنْهُ عِلَاجُ أُمُورِهَا ، وَصَارَ إِلَى الْجَنَّةِ وَسُرُورِهَا » .

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٥٥ . (٢) نفس المرجع ٣٠٦ .

ويقول الحسن البصري في رسالته لعمر بن عبد العزيز التي يصف فيها الإمام العادل ^(١) : « اعلم ، يا أمير المؤمنين ، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف » . ويظهر في هذه الرسالة ترادف الجمل وتوازنها ظهوراً بيناً . ويظهر السجع والازدواج في رسالة الحسن الأخرى إلى عمر بن عبد العزيز ^(٢) : « فانظر ، يا أمير المؤمنين ، إليها [إلى الدنيا] نظر الزاهد الفارق ، ولا تنظر نظر المبغى العاشق . واعلم أنها تزيل الثاوي الساكن ، وتفجع المترف فيها الآمين ، ولا ترجع ما تولى وأذبر ، ولا بد مما هو آت منها ينتظر ، ولا يتبع ما صفا منها إلا كدر ، فاحذرْها فإن أمانيتها كاذبة ، وأمالها باطلة ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر » .

ومن الخصائص التي تنتشر في هذه الرسائل الاقتباس من القرآن ، يقول حنبلان بن مسلم الدمشقي لعمر بن عبد العزيز ^(٣) :

« وربما نجت الأمة بالإمام ، وربما هلكت بالإمام ، فانظر أي الإمامين أنت . فإنه تعالى يقول : (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) . فهذا إمام هدى ، ومن اتبعه شريك . وأما الآخر ، فقد قال تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْخُلُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ) ولن تجد داعياً يقول : تعالوا إلى النار . إذن لا يتبعه أحد ، لكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله » .

وقد يُضَمَّن القرآن تضميناً لطيفاً دون أن ينص عليه ، كما في رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز ^(٤) :

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٧٨ . (٢) نفس المرجع ٣٨٣ .

(٣) نفس المرجع ٣٩٢ . (٤) نفس المرجع ٣٨٠ .

« واعلم ، يا أمير المؤمنين ، أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك أحبابك ، ويسلمونك فى قعره فريداً وحيداً . فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . واذكر ، يا أمير المؤمنين ، إذا نُعِثَ ما فى القبور ، وحُصِّلَ ما فى الصدور ، فالأسرارُ ظاهرة ، والكتبُ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها » .

ومن الخصائص الظاهرة فيها أيضاً الاقتباس من الحديث . يقول عمر بن عبد العزيز فى رسالته لعبد الملك ^(١) :

« أما بعد ،

فإنك راج ، وكلُّ راجٍ مسئولٌ عن رعيته . حدثني أنس بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل راجٍ مسئولٌ عن رعيته » ، « الله لا إله إلا هو ليجمعنَّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثاً » . ويظهر هذا الاقتباس من الحديث واضحاً فى رسالة أبى الدرداء إلى سلمان الفارسي ، وهى ترجع إلى صدر الإسلام ^(٢) :

« يا أخى ، اغتنم صحتك وفراغك ، قبل أن ينزل بك من البلاء ما لا يستطيع العبادُ ردّه ، واغتنم دعوة المبتلى . ويا أخى ، ليسكن المسجد بيتك ، فإنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن المساجدَ بيتُ كلِّ تقى » . وقد ضَمِنَ الله عز وجل لمن كانت المساجد بيوتهم بالروح والراحة والجواز على الصراط إلى رضوانِ الرب عز وجل . ويا أخى ، ارحم اليتيم وأذنه منك ، وأطعمه من طعامك ، فإنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — وأتاه رجلٌ يشتكى

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٤١ .

(٢) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

قساوة قلبه — فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ ؟
فقال : نعم قال : أَذْنُ الْيَقِيمِ مِنْكَ ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ ، فَإِنْ
ذَلِكَ يُلِينُ قَلْبَكَ ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ » . وَيَا أَخِي ، لَا تَجْمَعُ مَا لَا تَسْتَطِيعُ
شُكْرَهُ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « يُجَاءُ بِصَاحِبِ
الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا ، وَهُوَ بَيْنَ يَدَيِّ مَالِهِ ، وَمَالِهِ خَلْفَهُ ،
كَلِمًا تَكْفَأُ بِهِ الصُّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ : « امْضِ ، فَقَدْ أَدَيْتَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكَ » .
قال : « وَيُجَاءُ بِالَّذِي لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ فِيهِ ، وَمَالُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، فَيُعْثَرُهُ مَالُهُ وَيَقُولُ لَهُ :
« وَبَيْتُكَ ، هَلَا عَمِلْتَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَدْعُو بِالْوَيْلِ » .
وَيَا أَخِي ، إِنِّي حَدَّثْتُ أَنْكَ اشْتَرَيْتَ خَادِمًا ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مِنْهُ ، مَا لَمْ يُخْدَمْ ، فَإِذَا خُدِمَ
وَجِبَ عَلَيْهِ الْحِسَابُ ... » .

فإن لم تقتبس الرسائل نص الأحاديث ، فإنها تقتبس منها أفسكارها ، بل
ألفاظها أحياناً ، وذلك أمر طبيعي لا ندهش لحدوثه . وقد رأينا في الرسائل السابقة ،
وخاصة رسائل أبي الدرداء وسلمان الفارسي وعمر ، ونراه في رسالة سالم بن عبد الله
ابن عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبد العزيز ^(١) :

« أما بعد ،

فإن الله عز وجل خلق الدنيا لما أراد أن يخلقها له ، فجعل لها مدة قصيرة ،
كان ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار ، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء ،
فقال : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٣٧٥ .

ونرى خاصة أخرى في الرسائل الطويلة ، وهي القفص الوعظية ، أو بالأحرى خيال الوعاظ الذين يصورون ما يريدون من أفكار في صور واقعية ، يقول سالم ابن عبد الله في رسالته السابقة لعمر بن عبد العزيز :

« إن استطعت ألاّ تُخسِر نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل ، فإنه قد كان قبلك رجال عملوا ما عملوا ، وأحيوا ما أحيوا من الباطل ، وأماتوا ما أماتوا من الحق ، حتى ولد في ذلك رجال ونشئوا فيه ، وظنوا أنها السنة ، فسدّوا على الناس أبواب الرخاء ، فلم يسدّوا منها باباً إلا فتّح الله عليهم باب بلاء . . . فإنهم [الموتى من خلفاء بني أمية] قد عاينوا هول المظلم ، وعالجوا نزغ الموت الذي كانوا منه يفرّون ، فانشقت بطونهم التي كانوا لا يشبعون بها ، وانفقت أعينهم التي كانت لا تنقطع لذتها ، واندقت رقابهم في التراب غير مؤسدين ، بعدما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والشُرُر والتلذّم ، فصاروا جيفاً في بطون الأراضى تحت مهادها ، والله لو كانوا إلى جانب مسكين لتأذى بريحهم ، بعد إنفاق ما لا يُحصى عليهم وعلى خواصهم من الطيب » .

وتوجد هذه الظاهرة أيضاً في رسالة يونس بن عبيد إلى جعفر بن برقان ، حين سأله كتابةً : « يا أخى ، اكتب إلى بما أنت عليه » . فكتب إليه يونس ^(١) : « أتاني كتابك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه ، وأخبرك أني عرضت على نفسي أن تحب للناس ما تحب لها ، وتسكرة لهم ما تسكرة لها ، فإذا هي من ذاك بعيد . ثم عرضت عليها مرة أخرى ترك ذكرهم إلا من خير ، فوجدت الصوم في اليوم الحار الشديد الحر ، بالهواجر بالبصرة ، أيسر عليها من ترك ذكرهم . هذا أمرى ، يا أخى . والسلام »

(١) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ٣ : ١٨ .

ونرى في كثير من هذه الرسائل تكراراً لبعض الألفاظ ، التي لها أهميتها الخاصة في الدلالة على الانفعال والشعور الثائر ، كما نرى في رسالة عمر بن عبدالعزيز السابقة إلى أحد إخوانه ^(١) :

« يا أخى ، إنك قد قطعتَ عَظْمَ السفر وبقى أَقْلُ ، فاذا كَرُ ، يا أخى ، المصادرَ والموارد ، فقد أَوْحَى إلى نبيك صلى الله عليه وسلم في القرآن أنك من أَهْلِ الوُرُود ... يا أخى ، إن أَجَلَكَ قد دَنَا ، فَكُنْ وَصِيَّ نفسك ... »

فهذا التكرار لكلمة « يا أخى » ومخاطبته بصيغة الخطاب فيه ، ما يشعر بخنان عمر بن عبدالعزيز عليه ، وأنه يريد خيره بهذه النصيحة ، وأنها صادرة عن قلب محب وفى ، مما يجعل قارئها يتأثر بها سريعاً ، وذلك ما يأمله عمر ، وتكرر هذه الكلمة نفسها في رسالة سلمان الفارسي في حلية الأولياء ^(٢) .

ويظهر هذا التكرار أيضاً في رسالة الإمام العادل للحسن البصرى ، يقول ^(٣) :

« والإمامُ العدلُ ، يا أمير المؤمنين ، كالزاعى الشفيقِ على إِبِلِهِ ، الرفيق الذى يَرْتَادُ لها أَطْيَبَ المَرْعى ، وَيَذودُها عن مَرَاتِعِ المَلَكَةِ ... والإمامُ العدلُ ، يا أمير المؤمنين ، كالأبِ الحَانِي على وَلَدِهِ ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ... والإمامُ العدلُ ، يا أمير المؤمنين ، كالأمِ الشفيقةِ البَرَّةِ الرقيقةِ بولدها ، حملته كَرْهاً ، ووضعته كَرهاً ، وربته طفلاً ... والإمام العدلُ ، يا أمير المؤمنين ، وصيُّ اليتامى ، وخازنُ المساكين ... والإمام العدلُ ، يا أمير المؤمنين ... » .

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٥٥ .

(٢) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

(٣) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٧٩ .

ويظهر هذا التكرار أيضاً في رسالة طاووس إلى عمر بن عبد العزيز التي يقول فيها^(١) :

« سلامٌ عليك يا أمير المؤمنين .

فإن الله عز وجل أنزل كتاباً ، وأحلّ فيه حلالاً ، وحرم فيه حراماً ، وضرب فيه أمثالا ، وجعل بعضه محكما ، وبعضه متشابها . فأحلّ حلال الله ، وحرم حرام الله ، وتفكر في أمثال الله ، واعمل بمحكمه ، وآمن بمتشابهه . والسلام عليك »

فهو يؤكّد كلمة « الله » و « الحلال » و « الحرام » وغيرها ، ويكررها ، ويضغظ عليها ليفرغى بالابتعاد عن حرام الله والأخذ بحلاله . وهذا الأسلوب شائع في حلقات الوعظ ، في الكتابة أو الحديث . يتضح هذا في حديث الحسن البصري مع عمر بن هبيرة إلى العراق حين سأل : أُطِيع أَمْرَ الخليفة ويعصى الله؟^(٢) :

« يا عمر بن هبيرة ، يُوشِكُ أَنْ يَنْزَلَ بِكَ مَلَكٌ مِنْ ملائكة الله تعالى ، فَظٌّ ، غليظٌ ، لا يعصى الله ما أمره ، فَيُخْرِجُكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضَيْقِ قَبْرِكَ . يا عمر بن هبيرة ، إِنْ تَقَى اللَّهَ بِعَصْمِكَ مِنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ [الخليفة] وَلَا بِعَصْمِكَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . يا عمر بن هبيرة ، لَا تَأْمَنْ أَنْ يَنْظُرَ اللَّهُ إِلَيْكَ عَلَى أَقْبَحِ مَا تَعْمَلُ فِي طَاعَةِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ... يا عمر بن هبيرة ، لَقَدْ أَدْرَكَتْ نَاسًا ... يا عمر بن هبيرة ... »

ويتضح هذا أيضا في حديث عون بن عبد الله لنفسه في بكائه^(٣) :

(١) نفس المرجع ٣٩١ . (٢) أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ٢ : ١٤٩ .

(٣) نفس المرجع ٤ : ٢٥٥ .

« وَيَحْيى ، يَا مَيِّمى ، لَمْ أَغْصِرْ رَبِّى . وَيَحْيى ، إِنَّمَا عَصَيْتُهُ بِنِعْمَتِهِ عِنْدَى ، وَيَحْيى ... » .

وآخر الأمر يوضح لنا القرآن ذاته أن الوعظ والنصح يستتبع التكرار فى بعض الألفاظ ، ويظهر هذا فى تكرار كلمة « يا بنى » فى صورة لقمان فى أثناء النصح . ويشيع فى هذه الرسائل أيضاً الطباق الذى نجده فى رسالة الحسن إلى عمر التى يقول فيها ^(١) :

« واعلم ، يا أمير المؤمنين ، أن الصبر — وإن أذاقك تعجيل مرارته — فلننعم ما أعقبك من طيب حالاته ، وحسن عاقبته ، وأن الهوى — وإن أذاقك طعم حالاته — فلبئس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته » .

ويظهر الطباق فى غيرها من الرسائل أيضاً . وهناك خصائص أخرى متناثرة لا نستطيع أن نحكم بعمومها فى جميع الرسائل لقلة المصادر مثل الاقتباس من الشعر ، الذى نجده فى رسالة الحسن البصرى إلى عمر ، التى يقول فيها ^(٢) :

« والدنيا — وأيم الله ، يا أمير المؤمنين — حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، والعباد فى أضغاث أحلام ، وإنى قائل لك ، يا أمير المؤمنين ، ما قال الحكيم :

فَإِنْ تَنَجَّجَ مِنْهَا تَنَجَّجُ مِنْ عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّى لَا إِخَالَكَ نَاجِيًا
ومثل هذا اللعب اللفظى الفسكرى ، فى رسالة غيلان الدمشقى إلى عمر ^(٣) :

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٨٦ . (٢) نفس المرجع ٢ : ٣٨٥ .

(٣) نفس المرجع ٣٩٣ .

« فهل وجدت ، يا عمر ، حكماً يَعِيبُ ما يصنع ، أو يَصْنَعُ ما يَعِيبُ ، أو يُعَذِّبُ على ما قَضَى ، أو يَقْضِي بما يَعَذِّبُ عليه ؟ » ، ومثل التفكير الصوفي في رسالة الحسن إلى عمر التي يقول فيها ^(١) :

« أما بعد ،

فإن رَأْسَ ما هو مُصْلِحُكَ ، ومُصْلِحُ به على يدك : الزهدُ في الدنيا ، وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكير ، والتفكير بالاعتبار . فإذا أنت تفكرت في الدنيا لم تجد لها أهلاً أن تبيع بها نفسك ، ووجدت نفسك أهلاً أن تسكرها بهوان الدنيا فإنما الدنيا دار بلاء ، ومنزل غفلة » .

ولا يسود على هذه الرسائل تيار واحد من الإيجاز أو الإطناب ، بل نجد رسائل موجزة غاية في الإيجاز ، مثل رسالة عمر بن عبد العزيز إلى بعض أهل بيته ^(٢) :

« أما بعد ،

فإنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بُعِثَ إليك كلُّ فان ، وحُبِّبَ إليك كلُّ باقٍ .

والسلام »

ونجد رسائل أخرى مسهبة تستغرق الصفحات ، مثل الرسائل التي أشرنا إليها واقتبسنا منها من قبل .

وهناك ظاهرة جديدة بالعبارة الشديدة لدلالاتها على ارتقاء فن الوعظ في ذلك العصر ، الارتقاء البعيد ، تلك الظاهرة هي تأليف الكتب الوعظية . فهذا أبو محمد

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٨٨ .

(٢) نفس المرجع ٣٥٦ .

ابن خير الوراق الأصبهاني^(١) ينسب إلى وهب بن منبه المؤرخ المعروف المتوفى عام ١١٠ هـ موعظة مدونة ، وكتاباً في الحكمة ، كما ينسب إليه ابن سعد الكتاب الأخير^(٢) . ولم يصل إلينا الكتابان كلاهما ، ولسكننا نظن أن كتاب الحكمة كتاب وعظي أيضاً ، بمعنى أنه يشتمل على الأقوال السائرة والأمثال والحكم ، التي تحاول إرشاد الإنسان وتسدّد خطاه . وعلى الرغم من ضياع هذين الكتابين نجد بعض المواعظ والحكم المنسوبة لوهب في الكتب المختلفة . ونحن إذا جمعنا هذه المواعظ وأحببنا التعرف على بعض خصائص وهب نجد أنه متأثراً بالإسرائيليات تأثراً كبيراً . فهو قد قرأ الكتب المنزلة ، وأخذ منها ، كما يصرح قائلاً : « وجدت في بعض الكتب ، أوقرات في بعض الكتب^(٣) » . وقد ذكر أحياناً اسم التوراة صراحة ، فقال^(٤) : « قرأت في التوراة أربعة أسطر متواليات : من قرأ كتاب الله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله ، ومن شكّا مصيبة فإنما يشكّر به ، ومن أسف على ما في يد غيره سحق قضاءه ربه عز وجل ، ومن تضعضع لغنى ذهب ثلثا دينه » .

ويغلب في مواعظه ذكر أنبياء بني إسرائيل وأخبارهم وروايتهم ، يقول^(٥) : « إن رجلاً من بني إسرائيل صام سبعين أسبوعاً ، يفطر في كل سبعة أيام يوماً ، وهو يسأل الله تعالى أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس . فلما أن طال ذلك عليه ولم يحب قال : « لو أقبلت على خطيئتي وعلى ذنبي ، وما بيني وبين ربي ، لكان خيراً لي من هذا الأمر الذي أطلب » . فأرسل الله تعالى إليه ملكاً فقال : « إن الله عز وجل أرسلني إليك وهو يقول لك : إن كلامك هذا الذي تكلمت به أعجب إلى مما مضى من عبادتك ، وقد فتح بصرك

(١) المكتبة الأندلسية ٦ : ١٢٩ ، ٢٩٤ . (٢) ابن سعد : الطبقات ٧ : ٩٧ .

(٣) أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ٤ : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ .

(٤) أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ٤ : ٣٨ . (٥) نفس المرجع ٣٢ .

قال : « فنظر ، فإذا أحبولة لإبليس قد أحاطت بالأرض ، وإذا ليس أحد من بني آدم إلا وحوله شياطين مثل الذباب ، فقال : أي رب ، من ينجو من هذا؟ » قال : « الورع اللين » .

وقد سيطرت الإسرائيليات على وهب في كل مكان وزمان ، حتى ليلقيها على سائليه في الطريق . قال عطاء الخراساني ^(١) : « لقيت وهب بن منبه في الطريق فقلت : « حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامى ، وأوجز » . قال : « أوحى الله إلى داوود : يا داوود ، أما وعزتي وعظمتي لا يشعر بي عبد من عبادي دون خلقي ، أعلم ذلك من نيته ، فكسبته السماوات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجاً . أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات من يده ، وأرضخت الأرض من تحته ، ولا أبالي في أي واد هلك » .

ويورد وهب في مواعظه بعض الحكم والمواعظ العربية الأصل ، يقول ^(٢) : « قال لقمان لابنه : يا بني أغفل عن الله ، فإن أعقل الناس عن الله أحسنهم عقلاً ، وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكايده » . ونضيف إلى ذلك النوع المواعظ الإسلامية الصبغة . وقد ترى في هذا النوع العربي الأصل آثاراً فارسية ، يقول ^(٣) : قال لقمان لابنه : « يا بني ، إن مثل أهل الذكر والغفلة كمثل النور والظلمة » فالنور والظلمة آتيان من الفرس ، ولسكننا لا نجد هذا الأثر كثيراً . وهذه شذرات من مواعظه تمثل لنا هذه الخصائص . يقول ^(٤) :

« إن الله عز وجل حين فرغ من خلقه ، نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض ،

(١) نفس المرجع ٣٠ . (٢) نفس المرجع ٢٥ .

(٣) نفس المرجع ٣٨ . (٤) نفس المرجع ٣٤ .

فقال : « أنا الله الذي لا إله إلا أنا ، الذي خلقتك بقوتي ، وأتقنتك بحكمتي ، حقّ قضائي ، ونافذ أمرى ، أنا أعيذك كما خلقتك ، وأفنيك بحكمتي ، حتى أبقي وحدي ، فإن الملك والخلود لا يحق إلا لي ، أدعو خلقي ، وأجمعهم لقضائي ، يوم يخسر أعدائي ، وتَجَلُّ القلوب من خوفي ، وتَجفُّ الأقلام من هيبتى ، وتبرا الآلهة ممن عبدها دونى » .

ويقول ^(١) : « يابن آدم ، إنما جمعت من منافع هذا اليوم لدفع ضرر الجهالة عنك ، وإن ما أوقدت فيه مصابيح الهدى ليمته يجزيك . . . يابن آدم ، إنه لا أقوى من خالق ، ولا أضعف من مخلوق ، ولا أقدر من طليعته في يده ، ولا أضعف ممن هو في يد طالبيه . يابن آدم ، إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام معك ما سيذهب ، فما الجزع مما لا بد منه ؟ وما الطمع فيما لا يرتجى ؟ وما الحيلة في بقاء ما سيذهب ؟ يابن آدم . . . يابن آدم . . . ؟ » .

من هذه الفقرات للمقتطفة من وهب ، رى أن أسلوبه في القصص بسيط صريح لا يميل إلى تجويد أو تحبير ، ولكنه يعنى بالتجويد في غير القصص ، حتى ليسجع ويوازن بين العبارات ، وتسكاد تظهر فيه خصائص الرسائل الدينية الوعظية الكبيرة . ورى عنده من تلك الخصائص القصص الخيالية ، والتكرار ، وأسلوب الخطاب ، إلى جانب السجع والموازنة .

الخلاصة

وخلاصة الرأى أننا نرى هذه الرسائل الوعظية تجيش بالعاطفة الثائرة ، التى

تسوق كتابها إلى العناية بأسلوبها ، فيخرج مختار الألفاظ عذبتها ، متوازن العبارات موسيقيا ، مزدوجها أو مسجعها ، وقد لبس وشيا من القرآن والحديث والشعر والتعابير المكررة ، وغير ذلك من الحلى التى تكسب الأسلوب جمالا طبيعياً موسيقيا فى أغلبه . ولكن هذه الحلى ، التى فيها الصنعة ، لم تخرج بأسلوب هذه الرسائل إلى درجة التكلف ، وإنما هى وحي الخاطر ، ودفع العاطفة . وتحالف هذه الرسائل الإخوانيات فى ازدهارها وكثرتها فى عهد عمر بن عبد العزيز ، الذى انتسكت على يده الإخوانيات ، وتحالف السياسيات والإخوانيات معا فى أنها سبقتهما إلى ميدان الفن والصنعة والجمال .

الفصل الثاني

الرسائل الجدلية

وجد في هذا العصر نوع آخر من الرسائل الدينية لم أعثر إلا على أربع منها ،
ولكن يستحب أن نقرده بالذكر ، لانفراده ببعض الخصائص . هذا النوع هو
الرسائل الدينية الجدلية ، وأعني بها الرسائل التي تجادل فريقاً من الفرق الدينية ،
أو مذهباً خاصاً من المذاهب الإسلامية .

الرسالة الأولى

تنسب أولى هذه الرسائل إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، أرسلها إلى أهل
البصرة يناقش فيها مشكلة القدر ، قال ^(١) :

« من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد
فجر ، إن الله لا يطاع استكراها ، ولا يعصى لقلبة ، لأنه المليك لما ملكهم .
والقادر على ما أقدرهم عليه ، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا ، وإن
عملوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي
أجبرهم على ذلك . فلو أجبر الله الخلق على الطاعات لأسقط عنهم الثواب ، ولو
أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب ، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة .
ولكن له فيهم المشيئة التي غيَّبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة
عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم . . . »

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٥ .

ويرى الناظر في هذه الرسالة أنها تبين وجهة نظر واحدة ، وأعنى بذلك أنها تحاول إقامة الدليل على حرية الإرادة الإنسانية مع الإيمان بقضاء الله وقدره ، دون التفات إلى الزاى المخالف ، وتقنيد أقواله ، ونقض أدلته . وإذن فهي ليست جدلية بالمعنى المعروف ، ولذلك نرى فيها كثيراً من التحلية التي لم يكن يتحلى بها الأسلوب الجدلى في ذلك العهد — كما نراه في الرسائل التالية — مثل السجع الخفيف . ونرى في أسلوبها سمواً ، وفي عباراتها إحكاماً ، وفي ألفاظها عناية واختياراً ، ولعلها أكثر مما يوجد في الرسائل الجدلية الأخرى الآتية ، ما عدا رسالة ابن عباس .

ونحن لا نستطيع أن نعلم أن نعلم إلى صدق هذه الرسالة أو كذبها ، لأن الكلام عن مشكلة القدر يبدو أنه ظهر عند المسلمين في زمن مبكر جداً . إذ أننا عندما نقرأ تراجم الصحابة والتابعين نرى هذه المشكلة شائعة في أوائل عهد هؤلاء وأواخر عهد أولئك ، مما يجعلنا نظن أنها كانت موجودة فعلاً في زمن الحسن . ولكن قد يؤدي بنا أسلوب الرسالة ، أو السجعة الأولى منها ، التي تبدو ، في نظري على الأقل — قلقة ، إلى استنكارها ؛ وخاصة أن أصحاب المذاهب فيما بعد كانوا يحاولون دعمها بالأقوال التي يضعونها على أفواه من سبقهم من الصحابة والتابعين ، بل الرسول أيضاً . ولكننا لا نستطيع الجزم بشيء ، وإنما هو التردد والحيطة .

الرسالة الثانية

وأما الرسالة الثانية فكتبها عبد الله بن عباس إلى مجبرة الشام ، قال (١) :

« أما بعد ،

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٥ .

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالتَّقْوَىٰ وَبِكُمْ ضَلَّ الْمُتَقُونَ، وَتَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْمَعَاصِي وَبِكُمْ ظَهَرَ الْعَاصُونَ؟ يَا أَبْنَاءَ سَلَفِ الْمُقَاتِلِينَ، وَأَعْوَانَ الظَّالِمِينَ، وَعُمَّارَ مَسَاجِدِ الْفَاسِقِينَ، وَخُزَّانَ سَلَفِ الشَّيَاطِينِ. هَلْ مِنْكُمْ إِلَّا مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ يَحْمِلُ أَجْرَاهُ عَلَيْهِ، وَيَنْسِبُهَا عِلَاقَةً إِلَيْهِ. . . .»

ويرى قارىء هذه الرسالة منذ النظرة الأولى ذلك السجع الغالب عليها، الذى قد يخلط مكانه فى آخرها للازدواج. ويرى فيها الجمل متوازنة متوازنة موسيقياً نتيجة ترادفها. ويرى الرسالة خالية من الجدل والنقاش بالرأى أو الدلائل، وإنما هى سب وشتم وتقبيح لأعمالهم دون محاولة لإقناعهم ببطالانها. وتلك هى جملة خصائص هذه الرسالة التى نرى فيها صنعة وعناية وفنا، وهى خصائص تبعدها كل البعد عن الرسالة السابقة، بل تجعلها نسيج وحدها كما سنرى بعد.

الرسالة الثالثة

ونرى الأسلوب الجسدلى الحق، حين ننظر فى الرسالة الثالثة، التى أرسلها الحسن البصرى، أستاذ وأصل بن عطاء رأس المعتزلة، إلى عبد الملك بن مروان، عن طريق الحجاج، يعرفه فيها برأيه فى القدر^(١). ويبدأ الحسن رسالته ببيان مسلك الصحابة وعدم خوضهم فى هذه المشكلة، وأنه ما دفعه إلى الكلام فيها إلا خوض الناس وإنكارهم للقدر، فيقول بعد السلام والحمد والدعاء لأمير المؤمنين:

«وقد أدر كننا، يا أمير المؤمنين، السلف الذين عملوا بأمر الله، ورووا

(٢) نفس المرجع ٢٦٨. ورسالة الحسن البصرى، مخطوطة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٢١ أدب.

حكيمته ، واستنَّوْا بِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانُوا لَا يُنْكَرُونَ حَقًّا ، وَلَا يُحَقِّقُونَ بَاطِلًا ، وَلَا يُنْجَحُونَ بِالرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا مَا أُلْحَقَ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَحْتَجُّونَ إِلَّا بِمَا احْتَجَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ فِي كِتَابِهِ . فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُمُونِ » . فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِعِبَادَتِهِ الَّتِي لَهَا خَلَقَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَخْلُقَهُمْ لِأَمْرٍ نَحْمُ يَحْوِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ . وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِمَّنْ مَضَى مِنَ السَّلَفِ يَنْكَرُ هَذَا الْقَوْلَ ، وَلَا يَجَادِلُ فِيهِ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ مُتَّفَقِينَ . . . وَإِنَّمَا أَحَدَثْنَا الْكَلَامَ فِيهِ لِمَا أَحَدَثَ النَّاسُ النِّكَرَةَ لَهُ ، فَلَمَّا أَحَدَثَ الْمُحَدِّثُونَ فِي دِينِهِمْ مَا أَحَدَثُوهُ ، أَحَدَثَ اللَّهُ لِلْمُتَمَسِّكِينَ بِكِتَابِهِ مَا يَبْطُلُونَ بِهِ الْمُحَدَّثَاتِ ، وَيَحْذَرُونَ بِهِ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ . ثُمَّ يَأْخُذُ الْحَسَنُ فِي تَفْنِيدِ أَقْوَالِهِمْ بِالآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ ، فَيَقُولُ :

« فَافْهَمُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَا أَقُولُهُ ، فَإِنَّ مَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ فَلَيْسَ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَرْضَى مَا يَسْخَطُهُ مِنَ الْعِبَادِ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى : يَقُولُ : « وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ السَّكْرَ » . فَلَوْ كَانَ السَّكْرُ مِنْ قَضَائِهِ وَقَدَرَهُ لَرْضَى عَنْهُ عَمَلُهُ .

« وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْمُخْطِئُونَ لِمَا كَانَ لِمُتَقَدِّمِ حَدِّ لِمَا عَمِلَ ، وَلَا عَلَى مُتَأَخِّرِ لَوْمِ ، وَلَقَالَ تَعَالَى : « جَزَاءُ بِمَا عَمِلْتُمْ أَيْدِيهِمْ » وَلَمْ يَقُلْ : « جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . « إِنَّ أَهْلَ الْجَهْلِ قَالُوا : « إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ » . وَلَوْ نَظَرُوا إِلَى مَا قَبْلَ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا ، لَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَضِلُّ إِلَّا بِتَقَدُّمِ الْفَسْقِ وَالسَّكْرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَيَضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ » أَيْ يَحْكُمُ بِضَلَالِهِمْ » . وَيَسْتَمِرُّ الْحَسَنُ عَلَى هَذَا الْمُنْوَالِ مِنْ تَفْنِيدِ آرَائِهِمْ بِالْأَدْلَةِ الْقُرْآنِيَةِ .

وهكذا لا نجد في هذه الرسالة شيئاً أَوْسِياً ، غَيْرَ تَسْمِيَتِهِ لِلْمُخَالَفِينَ بِأَهْلِ الْجَهْلِ

والخطئين والخالفين لكتاب الله ، وليسكن كل هذا لا يعادل ما في رسالة ابن عباس القائمة على هذا النوع من القول . وإنما نجد فيها أسلوباً جديلاً بسيطاً جميلاً ، يعتمد على الأدلة والبراهين المأخوذة من الآيات القرآنية . وهي تقارب رسالة الحسن ابن علي إلا أن الحسن البصري يعتمد على الأدلة القرآنية على حين يعتمد الحسن ابن علي على الأدلة العقلية ، ولا يستشهد في رسالته بشيء من القرآن .

الرسالة الرابعة

وأخيراً نصل إلى الرسالة الرابعة التي تتناول مشكلة القدر أيضاً ، وذلك مما يؤكد قول بعض العلماء الذين يذهبون إلى أن الكلاميين الأمويين كانت جل همهم ، إن لم يكن كله ، منصبا على هذه المشكلة وحدها . وقد كتب هذه الرسالة عمر بن عبد العزيز إلى نفر كذبوا بالقدر ، فقال ^(١) :

« أما بعد ،

فإنكم كتبتم إلى بنا كنتم نسترون منه قبل اليوم ، في رد علم الله والخروج منه إلى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف على أمته من التكذيب بالقدر . وقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون : « الاعتصام بالسنة نجاة » ، وسيقبض العلم قبضا سهياً » ، وقول عمر بن الخطاب وهو يعظ الناس : « إبه لا عذر لأحد عند الله بعد البينة بضلالة ركبها حسبها هدى ، ولا في هدى تركه حسبها ضلالة ، قد تبينت الأمور ، وثبتت الحجة ، وانقطع العذر . . . »

ثم يأخذ في مناقشتهم ، مبتعداً عن الشتم ، ومستعيناً بالأدلة القرآنية :

(١) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ٥ : ٣٤٦ .

« وإنكم ذكركم أنه بلغكم أني أقول : « إن الله قد علم ما العباد عاملون ، وإلا هم صائرون » ، فأنسركم ذلك على ، وقلتم : « إنه ليس يكون ذلك من الله في علم ، حتى يكون ذلك من الخلق عملا » . فكيف ذلك كما قلتم ، والله تعالى يقول : « إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون » يعني عائدون في الكفر ، وقال تعالى : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون » . ويناقشهم أيضا بالأدلة العقلية مع القرآنية . فيقول :

« فزعمتم بجهلكم في قول الله تعالى « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » أن المشيئة في أي ذلك أحببت فعلتم ، من ضلالة أو هدى ، والله تعالى يقول : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » فبمشيئة الله لهم شاءوا ، ولو لم يشأ لم يبالوا بمشيئتهم من طاعته شيئا قولا ولا عملا ، لأن الله تعالى لم يملك العباد ما بيده ولم يفوض إليهم ما يمنه من رسله ، فقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعا ، فما اهتدى منهم إلا من هداه الله ، ولقد حرص إبليس على ضلالتهم جميعا ، فما ضل منهم إلا من كان في علم الله ضالا .

ويظهر الجدل العقلي في قوله أيضا :

« وزعمتم بجهلكم أن علم الله تعالى ليس بالذي يضطر العباد إلى ما عملوا من معصيته ، ولا بالذي صدر عما تركوه من طاعته ، ولكنه بزعمكم « كما علم الله أنهم سيعملون بمعصيته » كذلك علم أنهم سيستطيعون تركها » فجعلتم علم الله لغوا ، تقولون : « لو شاء العبد لعمل بطاعة الله ، وإن كان في علم الله أنه غير عامل بها ، ولو شاء ترك معصيته ، وإن كان في علم الله أنه غير تارك لها » . فأنتم إذا شئتم أصبتموه ، وكان علما ؛ وإذا شئتم ردتموه ، وكان جهلا . وإن شئتم أحدثتم من أنفسكم علما ليس في علم الله ، وقطعتم به علم الله » .

ولا يكتفى بالأدلة القرآنية والعقلية ، بل يستنبط الأدلة أيضا من الأخبار والآثار يقول :

« إن الله لم يجعل فضله ورحمته هملا بغير قسم منه ولا اختيار ، ولم يبعث رسله بإبطال

ما كان في سابق علمه . . . فسميتم نفاذ علم الله في الخلق حيفا . وقد جاء الخبر « إن الله خلق آدم ، فنثر ذريته في يده ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » .

وإذا ما نظرنا في الصياغة الأدبية لهذه الرسالة ، وجدنا أسلوبها بسيطا يجري دون تكلف أو تجمل ، فهي جدل عادي صريح ، وأما رسالة الحسن البصري فاسمى منها أسلوبا ، وأكثر منها عناية بالألفاظ واختيارها . وقد كان ذلك شأن الحسن وعمر أيضا في النوع الأول من الرسائل الدينية والرسائل الإخوانية .

الخلاصة

وصفوة القول أننا نرى هذه الرسائل جميعها تتناول مشكلة القدر^(١) ، كما نرى ثلاثا منها تؤيد حرية الإرادة الإنسانية ، وهي رسائل الحسن بن علي وابن عباس والحسن البصري . فأما رسالة ابن عباس فيمكن إغضاء النظر عنها ، وإلحاقها بالنوع الأول من الرسائل الدينية ، لأنها ليست من الجدليات في شيء . وأما رسالة الحسن ابن علي فهي جدلية تمتاز بكشف النقاب عن رأى صاحبها ، والتدليل العقلي عليه ، دون أدنى نظر إلى الآراء المخالفة له . وأما رسالة الحسن البصري ففيها الجدل

(١) ينسب ياقوت كتابا في هذه المشكلة إلى وهب بن منبه المتوفى عام ١١٠ هـ ، والذي كان يقول بالقدر ثم رجع عن ذلك . ولم يصل إلينا هذا الكتاب ، ولا أية شذرات منه لنستطيع استنباط خصائصه ، وإن كنا نظن أنه لا يعدو أن يكون رسالة صغيرة تتمتع بما تتمتع به كتابات وهب الأخرى .

والنقاش ، وإن كانت أدلتها كلها مأخوذة من القرآن . والرسالة الرابعة ، رسالة عما
ابن عبد العزيز ، تميل إلى الحسد من الإرادة الإنسانية ، وهي تمثل القمة في
الأسلوب الجدلي الأموي من حيث استخدام جميع أنواع الأدلة من قرآنية
وعقلية وأخبارية . وأما جمال الأسلوب فيتوفر في رسالتَي الحسنيين أكثر ممر
في رسالة عمر .

الباب الرابع

الكتاب

الفصل الأول

حلقة سالم

لعلنا الآن نستطيع أن نتصور أنواع كتابة الرسائل تصوراً صحيحاً واضحاً ،
واسناً بحاجة إلا إلى معرفة بعض الأعلام البارزين ، حتى تمثل الصورة أمام أعيننا
كاملة شاملة . وقد ورد في أثناء الحديث بعض أسماء ، ولكن المراجع الخاصة بهم
ناقصة قليلة ، لا تمدنا بالمواد التي يستطاع تصوير شخصية حية منها . كما أننا كتابة
الرسائل تتخذ صورتها النهائية عند جماعة الموالى الذين رأسوا ديوان الرسائل منذ
عهد هشام ، وأعني بهم سالما مولى هشام وتلاميذه ، ولذلك نخصهم بالدراسة هنا . وعلى
الرغم من ذلك لم يصل إلينا من أخبار سالم إلا القليل الذي لا يمكننا من معرفته
معرفة واضحة .

سالم :

هو سالم أبو العلاء ، مولى هشام بن عبد الملك وكتابه ، وختن عبد الحميد بن
يحيى السكاتب وأستاذه . ويعده ابن النديم أحد الفصحاء البلغاء ^(١) ، أو أحد
البلغاء العشرة الأول عند العرب ^(٢) . وكان يعرف اللغة اليونانية ، وترجم منها

(١) ابن النديم : الفهرست ١١٧ . (٢) نفس المرجع ١٢٦ .

بعض رسائل أرسطو إلى تلميذه الإسكند المقدوني^(١). وذكر ابن النديم أن رسائله جمعت في مجلد يبلغ مئة ورقة^(٢)، ولكن مما يؤسف له أن هذا المجلد قد ضاع، ولم يصل إلينا من سالم غير رسالتين إخوانيتين قصيرتين. ومن الطبيعي أننا لا نستطيع أن نحكم على كاتب من رسالتين، وخاصة أن كلا منهما لا تزيد على ثلاثة أسطر. وقد تناولنا إحداها من قبل، ونحاول هنا أن نتبين مزايا الأخرى.

رسائل سالم

كتب إلى أحد إخوانه يعتذر^(٣) :

« أمتعتك الله وأمتع بك ، لولا أنه إذا ضاق على المخرج لك، وسِعك عذري، بسطت لسان لا أمتي في تركك لأمتي فيما خالف هواك ».

ونرى في مفتتحها لعباً بالألفاظ، ونجده يفكر في طريقة الاعتذار قبل تدوينه وكيف يأتي بالجديد المبدع حتى لا يكون اعتذاراً عادياً بسيطاً. ولعل هذا يشعرنا بأنه كان يتروى أيضاً في ألفاظه وأساليبه، ويحاول أن يجدد فيها.

ويورد الطبري^(٤) رسالة مجهولة المؤلف، صادرة من ديوان هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسري وإلى العراق. ونحن نناقشها هنا، لأنها توضح الخصائص التي كانت تتحلى بها دائرة الكتاب المحيطة بهشام، والتي كانت تتألف من سالم وتلاميذه، وربما كانت الرسالة صادرة من سالم نفسه، كما يرجح

(١) نفس المرجع ١٧ . (٢) نفس المرجع ١٧ .

(٣) أحمد صفوت: الجهرة ٢ : ٣١ .

(٤) تاريخ الطبري ٢ : ١٦٤٢ .

أستاذي الدكتور شوقي ضيف^(١) . ذكر الطبري أن ابن عمرو بن سعيد بن العاص دخل على خالد القسري فاستخف به وعضه بلسانه ، فشكاه ابن عمرو إلى هشام ، فأرسل إليه هذه الرسالة يوبخه فيها ، قال :

« أما بعد ،

فإن أمير المؤمنين — وإن كان أطلق لك يدك ورأيك فيمن استرعاك أمره ، واستحفظك عليه ، للذي رجا من كفايتك ، ووثق به من حسن تدبيرك — لم يفرشك غرة أهل بيته ، لتطأه بقدمك ، ولا تحد إليه بصرك ، فكيف بك وقد بسطت على غرتهم بالعراق لسانك بالتوبيخ ؟ ! تريد بذلك تصغير خطره ، واحتقار قدره . . . »

والرسالة طويلة تستطيع أن تعطينا شيئاً من تلك المزاي والخصاص التي تريدها . ولعل أول ما لاحظنا على الفقرة التي ذكرتها سابقاً ، ذلك الاعتراض الطويل الذي يندر أن نرى مثله في الأسلوب العربي الخالص ، وإنما نراه في الأساليب الفارسية واليونانية . ثم إننا إذا دققنا النظر في الرسالة وجدنا فيها ميلاً ظاهراً للسبب والمنطق والعقل ، ولعل ذلك من تأثير أرسطو في هذه الدائرة . ويظهر لنا هذا الميل في سيرها الطبيعي المتسلسل في أفسكارها ، وفي ميلها لتوضيح كل معنى تأتي به . وقد أدى ذلك إلى كثرة استعمال الحال فيها ، كثرة لانراها في الرسائل الأخرى ، اللهم إلا رسائل حلبة هشام ، تقول :

« زعمت بالنصفة منه ، حتى أخرجك ذلك إلى الإغلاظ في اللفظ عليه في مجلس العامة ، غير متعلل له — حين رأيته مقبلاً — عن صدر مهاذك ، الذي

(١) الدكتور شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ٣٨ ، ٤١ .

مهذله الله ، وفي قومك من يعلوك بحسبك ، ويعمرك بأوليته ، فقلت مهادك بما رفع به آل عمرو من ضعتك خاصة ، مساوين بك فروع غرر القبائل وقرومها قبل أمير المؤمنين ، حتى حلت هضبة أصبحت تنحوبها عليهم مفتخراً ، هذا إن لم يذهده عك قلة شكرك متحطاً وقيداً ، فهلا — يا ابن مجرشة قومك — أعظمت رجلهم بليك داخلا ، ووسعت مجلسه إذ رأيتك إليك مقبلاً ، وتحافيت له عن صدر فراشك مكرمًا ، ثم فاوضته مقبلاً عليه ببشرك إكراماً للأمير المؤمنين ، فإذا أطمأن به مجلسه نازعته بحبي السرار ، معظماً لقربته ، عارفاً لحقه ^(١) .

وقد أدى إكثاره من استعمال الحال ببعض الباحثين إلى القول بأن سالماً كان على اتصال باللغة اليونانية ، التي يستعمل فيها الحال للتوضيح والتدقيق استعمال سالم وحليته له . ومن مظاهر ميل هذه الرسالة للتوضيح تدقيقها في ذكر الأسباب والعلل في كل خطواتها ، فالكاتب يذكر خالداً بأمر من الأمور ، ثم يورد سبب هذا الأمر ، وهلم جراً . ولذلك يكثر فيها أسلوب العلة ، من ذكر لام التعليل وفاء السببية وما إلى ذلك ، مما يبدو في الفقرتين اللتين ذكرتهما وفي غيرها من الفقرات . وكان هذا الميل للوضوح والدقة سبباً في إطنابها ، وتكرار بعض عباراتها ، مع تغيير الألفاظ ، فأدى ذلك — مع العناية الظاهرة فيها بالألفاظ — إلى توازن الجمل ، وتلاؤم موسيقى العبارات . ومن الخصائص التي تفتأثر فيها السجع الخفيف القليل ، بل النادر ، كما تمتاز بتقابل الألفاظ في العبارات المتجاورة وتآلفها .

(١) تنجوهنا : أى تشرف وتطل . ويذهده : يدحرج . والوقيد : الصريع . والمجرشة : الماشطة . والسرار : المسارة .

عبد الله بن سالم

ويبدو أن سالماً بث خصائصه في تلاميذه ، حتى غلبت عليهم ، نرى ذلك عند ابنه عبد الله وتلميذه عبد الحميد . وقد وصلنا من عبد الله بن سالم رسالة على لسان هشام بن عبد الملك لخالد بن عبد الله القسري ، يلومه لضربه سهيل بن حسان النبطي وإفراطه في الدالة على هشام ^(١) ، يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد ،

فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر ، لم يحتمله لك إلا لما أحب من رب الصنيعة قبالك ، واستتمام معروفه عندك . وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تعد لثقل مقاتلك ، وما بلغ أمير المؤمنين عنك ، رأى في معاجلتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرت ، فأساء حمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه إلى حيلته ، وحسبه ، وبيته ، ورهطه وعشيرته . فإذا نزلت به الغير ، وانكشطت عنه عماية الغي والسلطان ، ذل منقاداً وندم حسيراً ، وتمكن منه عدوه قادراً عليه ، قاهراً له . . . وتوجيهك أخاك أسداً إلى خراسان مظهراً العصبية بها ، متحاملاً على هذا الحى من مضر ، قد أتت أمير المؤمنين - بتصغيره بهم ، واحتقاره لهم ، وركوبه إياهم - الثقات » .

ونرى في هذه الرسالة إطناباً بتكرار المعنى الواحد في الجملة والجملتين ،

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٤٠٢ ، المبرد : الكامل ٢ : ٢٩٧ .

وانظر التشابه بين هذه الرسالة وسابقتها .

وتكرار الألفاظ المترادفة ، وتأکید معنى الجملة الأولى بما يقرب من معناها في
الجملة الثانية . ويبرز فيها الحال قريبا من بروزه في الرسالة الأولى . ونستطيع أن
نوجز، فنقول إن روح الرسالتين متقارب، مما يجعلنا نميل إلى أن خصائص الرسالتين
كانت تتحلى بها مدرسة سالم كلها . ولعل سالما بث في تلاميذه أسلوبه الكتابي
وحبه للثقافة اليونانية ، وربما وجههم جميعا إلى تعلمها ، فظهر هذا الأثر واضحا
جليا فيهم .

الفصل الثاني

عبد الحميد بن يحيى

يعتبر عبد الحميد بن يحيى مولى الأمويين أو العامين أشهر كتاب العصر الأموى . وتكثر الأخبار المضطربة التى يناقض بعضها بعضا عن عبد الحميد ، منذ ولادته حتى موته . ولكننا لا نتعرض لسكل هذه الأقوال التى تخبط فى دياجير الظلام ونكتفى بما تكاد تجمع عليه الروايات . فهو من أصل فارسى^(١) ، من الأنبار ثم سكن الرقة^(٢) ، واشتغل فى أول أمره بتعليم الصبيان ، وأخذ ينتقل فى البلدان المختلفة^(٣) ، ثم التحق بديوان الرسائل فى عهد هشام بن عبد الملك فى الغالب ، وتلذذ لرئيسه وحقنه سالم^(٤) . وأخيرا صار كاتب مروان بن محمد ، قبل أن يتولى الخلافة أيام ولايته على أرمينية . فلما تولى الخلافة تقلد رئاسة الديوان له وبقى مخلصا وقياله ، حتى قتلا معا فى بلدة بوصير بمصر^(٥) .

ويبدو أن عبد الحميد كان مرضى الأخلاق ، وفيما ، كريما ، ذا مروءة ورأى ، حتى كثرت حوله الأفاضل والصحيحة والموضوعة . يقول الجهمشيارى^(٦) : «ولما

(١) الإصطخرى : مسالك ، للمالك ١٤٥ . (٢) ابن خلكان الوفيات ١ : ٣٠٧ .

(٣) نفس المرجع ، وابن النديم : الفهرست ١٧ .

(٤) ابن خلكان : نفس الموضع . والجهمشيارى : الوزراء والكتتاب ٦٢ .

(٥) ابن خلكان : نفس الموضع . أما الروايات الأخرى القائلة بهرويه فى الجزيرة أو غيرها ، وقتله هناك ، فلا تقوم على دعامة قوية ، وإنما مات عبد الحميد فى مصر ، بدليل أنه كان له عقب بها ، لم يكن فى أوائلهم ذو نباهة ، ولكن لما جاء أحمد بن طولون إلى مصر ، اتصل به أربعة نفر من ولده يعرفون ببني المهاجر ، وإن كان ارتفاع نجمهم لم يستمر طويلا . (الجهمشيارى : الوزراء والكتتاب ٨٢) .

(٦) نفس المرجع ٧٩ . والمسعودى : مروج الذهب ٣ : ١٧٨ .

قوى أمر بنى العباس وظهر ، قال مروان لعبد الحميد : « إنا نجد في السكتب أن هذا الأمر زائل عنا لا محالة ، وسيضطر إليك هؤلاء القوم - يعني ولد العباس - فخير إليهم . فإني أرجو أن تتمكن منهم فتتفنى في مخلصي ، وفي كثير من أسبابي فقال له : « وكيف لي بأن يعلم الناس جميعاً أن هذا عن رأيك ، وكلهم يقول : إني غدرت وصرت إلى عدوك » . وأنشد :

أسيرٌ وفاء ثم أظهرُ غدرَةً فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره ؟
وأنشد أيضاً :

فدني ظاهراً لا عيب فيه للائم وعذري بالمعيب
فلما سمع ذلك مروان علم أنه لا يفعل . ثم قال له عبد الحميد : « الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما بي ، لك على الصبر معك إلى أن يفتح الله عليك أو أقتل معك » .

رسائل عبد الحميد : رسالة إلى السكتب

علينا الآن أن نقف عند بعض رسائل عبد الحميد قليلاً ، لنتملى من خصائصه وتبرز أمامنا مزاياه . والرسالة الأولى التي أحب الكلام عنها رسالته إلى السكتب^(١) . وهي تقع في قريب من أربع صفحات من كتاب صبيح الأعشى . ويرى فيها عبد الحميد إلى تبليغ السكتب ما يحتاجون إليه من ثقافة ، ومن أخلاق ، ولذلك تزخر بالوصايا والنصائح . وقد اكتسبت أهمية خاصة حتى صارت دستوراً يرجع إليه السكتب ليستوحوها ، ويتحلوا بفضائلها :

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٥٣٤ .

يبدأ عبد الحميد رسالته بمخاطبة الكتاب ، ويبين لهم أن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين ، أصنافا وأنه جعل « معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة ، والعلم والرواية » .

ثم يبين حاجتهم « إلى إجماع خلال الخير المَحْمُودَة ، وخصال الفضل المذكورة المَعْدُودَة . . . فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، وبحاجته منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره : أن يكون حليما في موضع الحلم ، قهيبا في موضع الحسك ، مقداما في موضع الإقدام ، محتجما في موضع الإحجام . . . قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحسكه ، فإن لم يحسكه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به » إلى آخر الصفات المحمودة التي يرى أنه ينبغي أن يتصفوا بها .

ثم يذكر لهم العلوم والآداب التي يجب أن يعرفوها ويتنافسوا فيها ، فيقول : « وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، وَابْدَعُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْقَرَائِصِ ، ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّهَا تَقَافُ أَلْسِنَتِكُمْ ، ثُمَّ أَجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُتُبِكُمْ ، وَارْزُقُوا الْأَشْعَارَ ، وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا ، وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وَأَحَادِيثَهَا وَسِيَرَهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ ، وَلَا تُضَيِعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ ، فَإِنَّهُ قَوَامُ كِتَابِ الْخُرَاجِ » .

ويسمو بهم على الرذائل ، والأخلاق الذميمة ، فينصحهم : « وَارْزُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ ، سَتِيهَا وَدَرِيهَا ، وَسَقَسَافِ الْأُمُورِ وَتَحَاقِرِهَا فَإِنَّهَا مَذَلَّةٌ لِلرَّقَابِ ؛ مَفْسَدَةٌ لِلْكِتَابِ . وَنَزَّهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَائَاتِ ، وَارْزُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَافِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ . وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبَرِ وَالصَّلَفَ وَالْعَقْلَةَ ، فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَنَبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ » .

ويحضهم على التحاب والتعاون فيما بينهم ، فإن « نبا الزمانُ برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب إليه أمره . وإن أقعد أحدكم السيكر عن مكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه ، وعظموه ، وشاوروه » .

ويحضهم على الوفاء لأوليائهم وساداتهم ، والإخلاص لهم ، فإن « الرجل منكم إذا صحبه الرجل [الخليفة أو الأمير] يبذل له من نفسه ، ما يجب له عليه من حقه ، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ، ونصيحته ، وكتمان سره ، وتدبير أمره ، ما هو جزاء لحقه » .

وآخر الأمر يشرح لهم ما يجب عليهم من حسن السياسة وبعد النظر حين ولايتهم « فإذا ولي الرجل منكم ، أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم منصفاً . فإن الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أرققهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مبكراً ، وللغنى مؤثراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألفاً ، وعن إيذائهم متخلفاً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سجات خراجيه واستقضاء حقوقه رفيقاً » .

« وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقيمتها ، أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح ، بالطف حيلة ، وأجل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمه إذا كان بصيراً بسياسيتها التمس معرفة أخلاقها . فإن كانت رموحاً لم يهيجها إذا ركبها ، وإن كانت شبوباً اتقاها من قبل يديها ، وإن خاف منها شردوا توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرؤناً قمع برقي هواها في طريقها ، فإن استمرت عطفها يسيراً ، فيسلس له

قيادها . وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم ،
وجر بهم ودخلهم .

ويستمر في تبين السياسة التي يجب اتباعها من الاعتدال وتجنب السرف :
« ولا يُجاوِزَنَّ الرجلُ منكم - في هيئته مجلسه ، وملبسه ، ومركبه ،
ومطعمه ، ومشربه ، وبنائه ، وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره - قَدْرَ حَقِّه ...
واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم ، وقصصته عليكم .
واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما يُعْقِبَانِ الفقر ، ويُذِلَّانِ
الرقاب ، ويُفَضِّحَانِ أهلها . »

ثم ينههم إلى تجنب الإكثار من الكلام والوصف :

« واعلموا أن للتدبير آفة متلفة ، وهي الوصفُ الشاغل لصاحبه عن إنفاذ
عمله ورويته . فليَقْصِدِ الرجلُ منكم في مجلسه قَصْدَ الكافي من منطقه ، وليُوجِزْ
في ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ، ومدفعة
للتشاغل عن إكثاره . »

ويختم الرسالة بالإشارة إلى التواضع وعدم الغرور :

« ولا يَقُلْ أحدٌ منكم إنه أَبْصَرُ بالأمور ، وأَحْمَلُ لِعَيْبِ التدبير ، من
مُرافِقِهِ في صناعته ، ومُصاحِبِهِ في خدمته . فإن أَعْقَلَ الرجلين عند ذوى الألياب
من رمى بالعُجْبِ وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أَعْقَلُ منه ، وأَحْمَدُ في طريقته . »

« وأنا أقولُ في كتابي هذا ما سبق به المثل « مَنْ يَلْزَمْ النَّصِيحَةَ يَلْزِمُهُ
العَمَلُ » ، وهو جوهر هذا الكتاب ، وغُرَّةُ كلامه ، بعد الذي فيه من ذكر الله
عز وجل . فلذلك جعلته آخره ، وتمت به . تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة

والسكتبة بما يتولى به من سَبَقَ علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وإمل هذه الرسالة لا تسكشف عن كثير من خصائص عبد الحميد الأسلوبية
على الرغم من أنها تظهر فيها عنايته الفائقة بالفاظه ، وأنه كان أحياناً يأتي بالسجع
الجميل غير المتكلف ، يقول :

« بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورُها ، وبنصائحكم يضلح الله
للخلق سلطانهم ، وتعمُر بلادهم . لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلا
منكم . فوقكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها
يُبصرون ، وألسنتهم التي بها يَنْطِقون ، وأيديهم التي بها يَبْطِشون ، فامتّعكم الله
بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا تزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم » .
كما تظهر فيها موسيقية أسلوبه وجمال عباراته .

ولكن الرسالة إذا كانت فقيرة في هذه الناحية فإنها تسكشف لنا عن نواح
أخرى هامة في شخصية عبد الحميد . فنحن عندما ننظر إليه ، وهو يصف سياسة
الدابة الرموح والشبوب والشرود والحرون ، رامتاً بذلك إلى سياسة السكاتب
للحاكم ، ندرك تمام الإدراك قوة عبد الحميد في الوصف ، وحبه للتصوير ، ومقدرته
على إبراز الموصوف أجمل إبراز .

وتسكشف الرسالة أيضاً عن تأثر عبد الحميد بالثقافات والنظم الفارسية . يظهر
ذلك واضحاً في الآداب التي يوصي السكاتب بالتزامها . ويكفيها لمعرفة ذلك أن
تنظر إلى ما كان يقوله كشتاسب لكتابه^(١) : « الزموا العفاف ، وأدوا الأمانة

(١) الجهشباري : الوزراء والسكاتب ٨ .

في كل ما يُفَوِّض إليكم ، واجتمعوا على غرائزكم وعقولكم سماع الأدب بما طُبِعَت عليه عقولكم ، وليكن اجتماعكم بالقسط والمعدلة ، ولا تزيّنوا لنا ما لا تليق بنا الأحدث به ، والإيثار له « ؛ وأن ننظر إلى ماقاله أبر ويز لوزير^(١) : « اكتبتم السر ، وصدق الحديث ، واجتهد في النصيحة ، واحترس بالخطر .
ولسكن هذه الرسالة ذات أهمية كبيرة في نظر دارس الأدب العربي ، وخاصة حركة التأليف . فهذه الرسالة تشمل — كما ظهر لنا — جل ، إن لم يكن كل ، ما يطلب من الكتاب ، كأنما تضع القوانين التي يجب أن تسود على ديوان الرسائل ويخضع لها من يريدون دخوله . فهي ترسم لهم الآداب الخلقية التي يجب أن يتحلوا بها ، ثم ترسم لهم الآداب الثقافية ، فتقسمها إلى ثقافة خاصة بالدين والفقه والتاريخ والحساب . وقد أثرت هذه النظرية في المؤلفين بعد عبد الحميد . فمنهم من أخذ فرعاً من هذه الثقافة فألف فيه ، مثل ابن قتيبة الذي تناول الناحية اللغوية في « أدب الكاتب » ؛ ومنهم من تناول الثقافة الخاصة ، مثل الصولي في « أدب الكاتب » ؛ ومنهم من تناول الثقافتين العامة والخاصة ، مثل الفويري في « نهاية الأرب في فنون الأدب » ؛ ومنهم من تناول الآداب الثقافية والآداب الأخلاقية جميعاً ، مثل القلقشندي في « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » . ويصرح القلقشندي في الفصل الذي عقده لآداب الكتاب الخلقية فيقول^(٢) : « أصل هذه الآداب الذي ترجع إليه ، وينبوعها الذي تفجرت منه ، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، التي كتبها إلى الكاتب يوصيهم فيها » . ولسكننا نقول إن هذه الرسالة ينبوع هذا الفصل ، والفصول الأخرى الباقية في كتابه ، أعني ينبوع جميع ما احتوته تلك الكتب التي

(١) نفس المرجع ٨ . (٢) القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٨٥ .

أنفها الأدباء في بيان ما يحتاج إليه الكتاب ، وإن كانوا في الحقيقة أصابوا بعض العلوم التي لم يفكر فيها عبد الحميد ، مثل الجغرافية والفلك وغيرها ، ولكن كل تلك العلوم كانت من إحياء عبد الحميد أيضا .

رسالة ولي العهد

وكتب عبد الحميد رسالة عن مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله ، حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي^(١) . وهي تقع في قريب من أربعين صفحة من كتاب « صبح الأعشى » ، ولذلك نجد خصائص عبد الحميد تنبسط فيها وتنتشر ، فتظهر واضحة ماثلة . وعبد الحميد في هذه الرسالة ذو تفكير منظم منطقي ، يقسم كلامه فقرات منفصلة ، كل منها يؤدي فكرة منفصلة عن الأخرى ، وإن جمع هذه الأفكار السياق العام . فنراه يبدأ بمقدمة يبين فيها غرض الرسالة وما يتعلق به ، ثم يقسم الرسالة إلى قسمين كبيرين : يتناول الأول الآداب والأخلاق التي يجب أن يتحلل بها ولي العهد في سيرته عامة ، ويتناول الثاني سياسة ولي العهد في الجيش وتنظيمه . ثم يأخذ القسم الأول فيقسمة قسمين : يعالج الأول منهما آداب ولي العهد وعادته ، ويعالج الثاني آدابه في حاشيته ، وآداب الحاشية ذاتها وكذلك يقسم القسم الثاني إلى جزئين : الأول منهما في سياسة الجيش العامة ، والثاني في تنظيمه الداخلي .

(١) أحمد صفوت : الجهرة ٢ : ٤٧٣ ، وابن طيفور : اختيار المنظوم والمنثور

١٢ : ٢٠١ ، والقلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ١٩٥ .

تبدأ المقدمة بقوله :

أما بعد .

فإن أمير المؤمنين — عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الحلف الجافي الأعرابي المتسكع في خيرة الجهالة ، وظلم الفتنة ، وهماوى الهدى ، ورعايه الذين عاثوا في أرض الله فساداً ، وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً ، وبدلوا نعم الله كفراً ، واستحلوا دماء أهل سليمه جهلاً — أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك ، وعوام شئونك ، ودخائل أحوالك ، ومصطفى تنفلك ، عهداً يحملك فيه أدبه ، ويشرع لك به عظمته ، وإن كنت — والحمد لله — من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد ، مختصاً لك بذلك دون أحميتك وبني أبيك .

وتظهر في هذه الفقرة تلك الموسيقى التي يؤلفها استعمال عبد الحميد المفعول المطلق والمفعول لأجله «فساداً» ، واستخفافاً ، وكفراً ، وجهلاً» في آخر جملة ، وتلك الأضواء التي تشع من هذه الألفاظ فتميز أركان العبارات ، وتسبغ عليها الإشراق والوضوح اللذين يطلبهما عقل عبد الحميد المنطقي .

ويحاف عبد الحميد أن يغضب ولي العهد من نصحه ، فيبين له أن الناس في حاجة إلى التأديب والوعظ ، وإن كبروا وعظموا وعرفوا الفاضل والمردول : «ولولاً ما أمر الله تعالى به دالاً عليه ، وتقدمت فيه الحكمة أمرين به : من تقديم العظة ، والتذكير لأهل المعرفة ، وإن كانوا أولى سابقة في الفضل ، وخصيصاء في العلم ، لاعتماد أمير المؤمنين منك على اصطناع الله إياك ، ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، أو لقنوه إلهاماً من تلقائهم ، ولم يتعلموا شيئاً من عند غيرهم ، لفحلناهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلة قصر فيها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب . . . »

وتنتهى المقدمة فيبدأ الجزء الأول من القسم الأول بقوله : « اعلم أن للحكمة مسالك تفضى مضائق أوائلها بمن أمها سالكا ، وركب أخطارها قاصداً إلى سعة عاقبتها ، وأمن سرحها ، وشرف عزها ، وأنها لاتعار بسخف الخفة ، ولا تنشأ بتفريط الغفلة ». ثم يأخذ يعدد له الصفات التي يجب أن يتحلى بها ، والتي نراها تجمع بين الأخلاق الإسلامية ، والعادات الفارسية ، فيقول : « واعلم أن احتواءك على ذلك ، وسبقك إليه ، بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً لها ، وإضمار طاعته منظوياً عليها ، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له ، مرتبطاً فيه للمزيد ، بحسن الحياطة له ، والذَّبُّ عنه ، من أن تدخلك منه سامة ملال ، أو غفلة ضياع ، أو سِنَّة تهاون ، أو جهالة معرفة . فإن ذلك أحق ما بُدِئَ به ونُظِرَ فيه ، معتمداً عليه عليه بالقوة والآلة والعدة والانفراد به من الأصحاب والحامة . فتمسك به لاجئاً إليه ، واعتمد عليه مؤثراً له ، والتجئ إلى كنفه متحيزاً إليه ، فإنه أبلغ ما طلب به رضا الله وأنجحه مسألة ، وأجزله ثواباً ، وأعوذه نفعاً وأعمه صلاحاً ». ونرى في هذه الفقرة بعض الصيغ التي يحب عبد الحميد أن يكررها ، مثل الحال وصيغة التفضيل مع التمييز ، مما يكسب أسلوبه جمالا موسيقيا مع توضيح المعنى وتجليته .

ويستطرد في التعداد فيقول : « ثم اجعل الله في كل صباح ينعم عليك ببلوغه ، ويظهر منك السلامة في إشرافه ، من نفسك نصيباً تجعله لله ، شاكراً على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح ، وعافية بدن ، وسبوغ نعمة ، وظهور كرامة ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تعالى وتبارك جزءاً تردد رأيك في آيه وتزين لفظك بقراءته ... ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مغلاق الحسنات ومفتاح السيئات ، وخضم العقل . واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ويعترض غفلتك لأنها خدع إبليس ، وخواتل مكره ، ومصايد مكيدة . فاحذرها مجانباً لها ، وتوقها محترساً منها ... فحاول بلوغ غايتها [منزلة أهل الحجا]

محرزاً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع ، محصناً أعمالك من العُجب ، فإنه رأس
الهوى ، وأول الغواية ، ومقادير الهلكة ، حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوئ
العادات وذهيم إشارها . ويلاحظ في هذه الفقرات توازن الجمل الناتج عن ترادفها
مما يعطى الأسلوب توازناً موسيقياً ، ويلاحظ فيها الحال أيضاً . أما الآداب التي يوصى
بها فيلاحظ عليها الطابع الإسلامي ، ولكنه لا يقصر نفسه على الآداب الإسلامية ،
فيأخذ عن الآداب الفارسية والهلينية ، التي كانت سائدة في الشرق في ذلك الوقت ، فيقول :
« من ذلك أن تَمْلِكَ أمورك بالقصد ، وتُدَارِي جَنْدَكَ بالإحسان ، وتَصُون
سِرَّكَ بالسكمان ، وتُدَاوِي حَقْدَكَ بالإنصاف ، وتُدَلِّل نفسك بالعدل ، وتُحَصِّن
عيوبك بتقويم أودك ، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعُجب المُردى ،
وأنا تَك قَوْقَهَا الملال وفوت العمل ، ومضاء تَك فذرَّعها رِيَّةَ النظر واكْنَفْهَا
بأناءِ الحليم ، وخَلَوْتَكَ فاحْرِضْهَا من الغفلة واعتماد الراحة ، وصَمْتِكَ فَانْفِ عنه
عِيَّ اللفظ ، وخَفْ فيه سُوءَ القالة ، واسْتِمَاعَكَ فَأَرْعِهِ حُسْنَ التَّفَهُّم ، وقُوَّةَ
بإشهاد الفكر ، وعَطَاءَكَ فامْهَدْ له بيوتات الشرف وذوى الحسب ، ومَحَرِّزْ فيه
من السَّرَفِ واستطالة البَذَخِ وامتنان الصنيعة ، وحياءك فامْنَعْهُ من الخجل وبلادة
الحَصَرِ ، وحِلْمِكَ فَرَعْهُ عن التهاون ، واحضره قوة الشَّكِيمَةِ ، وعُقُوبَتِكَ
فَقَهَّرْ بها عن الإفراط ، وتعهد بها أهل الاستحقاق ، وعَفْوِكَ فلا تُدْخِلْ تعطيل
الحقوق ، وخُذْ به واجب المفترض ، وأقم به أود الدين ، واستثناسك فامنع منه
البذاء وسوء المناقشة ، وتعهدك أمورك فحُدِّهِ أوقاتا ، وقَدِّرْهُ ساعات لا تستفرغ
قوتك ، ولا تستدعي سَأَمَتِكَ ، وعَزِّمَاتِكَ فانْفِ عنها عجلة الرأي وتلجاجة
الإقدام ، وفرحاتك فاشْكُمْنَهَا عن البطر ، وقَيِّدْهَا عن الزهو ، وَرَوِّعَاتِكَ
فحُطِّهَا من دَهْشِ الرأي ، واستسلام الخضوع ، وحَذَرَاتِكَ فامنعها من الجبن
واعمد بها للحزم ، ورجاءك فقيده بخوف الفاتئ ، وامنع من أمن الطلب . »

ويبدو في هذه الفقرة ظاهرة غريبة هي هذا المفعول به المقدم في صدر الجمل ، الذي يضمن على الفقرة كلها موسيقية واضحة ، ولعل هذا الأسلوب من تأثير الثقافة اليونانية في عبد الحميد .

وينتهي بهذا حديثه عن الآداب الخاصة الفردية ، فيختم هذا القسم بقوله :

« هذه جوامعُ خلال ، دَخَّالُ النقص منها واصلٌ إلى العقل بلطائف أبنه ، وتصاريِف حويله ، فاحكمها عارفا بها ، وتقدم في الحفظ لها ، مُعَزِّزاً ما على الأخذ بمراسيدها ، والانتهاه منها إلى حيث بلغت بك عظة أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله . »
وقد تشعر هذه الخاتمة بأنه قد جمع له هذه الآداب من المصادر المتفرقة ، عربية وفارسية ويونانية .

وربما لم يظهر الأثر الفارسي بوضوح في القسم السابق ، ولكنه يتضح كل الوضوح في هذا القسم الذي يتناول آداب الحاشية ، والذي يبدو بقوله : « ثم لتسكن بطانتك وجلسائك في خلواتك ، ودخلائك في سرك ، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك ، وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور ، وخبطته فصالها بين فراسن البزل منها ، وقلبته الأمور في فنونها ، وركب أطوارها . »

ويأخذ في تعداد الآداب ، فيقول : « ثم أحضرهم من نفسك وقاراستدعى لك منهم الهيبة ، واستثناسا يعطف إليك منهم المؤدَّة ، وإنصاتا يقل إفاضتهم عندك بما تسكره أن ينشر عنك من سخافة الرأي ، وضياح الحزم ... وإياك أن يغمز فيك أحدٌ من حامتك وبطانة خدمك ، بضعفة يحد بها مساعا إلى النطق عندك بما لا يعز لك عيبه ، ولا تخلو من لائمه ... ثم إياك أن يفاض عندك بشيء . »

من المفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التي يستخف بها أهل البطالة ،
ويتسرع نحوها ذوو الجهالة .. مع ما في ذلك من نقص الرأي ، ودَرَن العرض ، وهدم
الشرف وتأثيل الغفلة ، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كُمُون النار في الحجر
الصلد ، فإذا قُدِحَ لاح شرُّه ، وتلاهب وميضه ، ووقد تضرُّه ... »

ويظهر في الفقرة الأخيرة ولع عبد الحميد ببعض الصيغ لجلب الموسيقى ، إذ
نراه يكثر من صيغه التفضيل يليها التمييز .

ثم يبين له السعايات والوشايات والأخبار وكيفية تلافي أضرارها : « واعلم أن
أقواما سيُسرعون إليك بالسَّعاية ، ويأتونك من قبل النصيحة ، ويستميلونك بإظهار
الشفقة ليجمعوك لهم ذريعة إلى استنكال العامة ، بموضعهم منك في القبول
منهم ، والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة ، أو أسرَّعوا بك في أمره إلى الظنَّة ،
فلا يصلنَّ إلى مُشافهتك ساعٍ بشبهة ، ولا معروف بتهمة ، ولا منسوب إلى
بدعة ... وليسكن صاحبُ شُرطتك ، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك
إليه إنهاء ذلك ، وهو المنصوب لأولئك ، والمستمع لأقاويلهم ، والفاحص عن
نصائحهم . ثم ليتمَّ ذلك إليك على ما يُرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه ؛ وتقفه على
رأيك ، من غير أن يظهر ذلك للعامة ، فإن كان صوابا نالتك حظوته ، وإن كان
خطأ أقدم به عليك جاهل ، أو قرطه سى بها كاذب ... لم يعصِب ذلك الخطأ بك ،
ولم تنسب إلى تفريط ... وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر وتعتمد عليه فيه ، ألا
يُقدم على شيء ناظرا فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارِقا له ، ولا يعاقب أحدا مُنكلا
به ، ولا يخلِّي سبيل أحد صالحائه ، لإسحار براءته ، وصحة طريقتة ، حتى يرفع إليك
أمره ، ويُنبئ إليك قضيَّته ، على جهة الصدق ، ومنحَى الحق ، ويقين الخبر ...
ثم إياك وأن يصل إليك أحد من جُنْدك وجُدِّسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها
لك أو حاجة يبدُّهك بطلبها ، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذي أهدفتُه

لذلك ونصبت له ، فيعرضها عليك مُهَيَّأ لها على جهة الصدق عنها ، وتسكون على معرفة من قدرها ، فإن أردت إسعافه بها ، ونجاح مأسال منها أذنت له في طلبها ، باسطة له كنفك ، مقبلا عليه بوجهك ، مع ظهور سرورك بمأسالك ، وفسحة رأى ، وبسطة ذرع ، وطيب نفس . وإن كرهت قضاء حاجته ، وأحببت رده عن طلبته وتقل عليك إجابته إليها وإسعافه بها ، أسررت كاتبك فصغحه عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ، فحقت عليك في ذلك المؤنة ، وحسن لك الذكر .

ويأخذ عبد الحميد في ذكر بعض الآداب العامة فيقول : « احذر تضييع رأيك ، وإهمالك أدبك في مسالك الرضى والغضب ، واغتوارها إياك ، فلا يَزْدَهِينَكَ إفراطُ عُجْبٍ تستخفك روائعه ، ويسهويك منظره . . . وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك وعامة رعيتك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب إليك بالسعاية ، والإغراء من بعض ببعض ، والتميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك . . . وأملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانهفاق ، وعن القُطوب بإظهار الغضب وتفتحله ، فإن ذلك ضعفٌ عن مثلك سورة الجمل . . . إذا كنت في مجلس مثلك وحيث حضور العامة مجلسك ، فإياك والرَّمْيَ ببصرك إلى خاص من قوادك ، أوذى أثره عندك من حشمتك ، وليكن نظرك مقسوما في الجميع ، وإعارتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مستجمع ، وقلة تضجر بالحدث . ثم لا يبرح وجهك إلى بعض قوادك وحرصك متوجها بنظر ركين ، وتفقد محض ، فإن وجه إليك أحد منهم نظره محمداً ، أو رماك ببصره مُلِحاً ، فاخفض عنه إطراقاً جميلاً باتداعٍ وسكون . . . »

ويكثر في هذا النصيح ، حتى إذا ما انتهى منه صرح بذلك ، ودعا لولي العهد ، فقال : « هذه جوامع خصال قد تلخصها لك أمير المؤمنين مُفسِّراً ، وجمع

لك شواذها مؤلفا ، وأهداها إليك مرشدا ، فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجِها ، وثبت في مجامعها ، وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معاطب الردى ، وتدل أنفُسَ الخطوط ، ورغيبَ الشرف ، وأعلى درج الذِّكر ، وتؤنل سطوة العز . والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد ، وتتابع المزيد ، وبلوغ الأمل ... »
ويظهر في هذه الخاتمة كثير من مزايا أسلوب عبد الحميد : من الزواج ، والسجع الخفيف ، وتوازن الجمل ، وترادفها ، واستعمال الحال ، وغيرها .

ثم يبدأ الجزء الأول من القسم الثاني من الرسالة ، وهو القسم الحزبي ، بقوله : « فإذا أفضيت نحو عدوك ، واعتزمت على لقائهم ، وأخذت أهبة قتالهم فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها ، وثقتك التي تأمل النجاة بها ، وركنك الذي ترجى به مقالة الظفر ، وتكسيف به لمعالي الخدر ، تقوي الله عز وجل ، مستشعرا لها بمراقبته ، والاعتصام بطاعته ، متبعا لأمره ، مجتنبيا لسخطه ، محتذيا سنته ، والتوقي لمعاصيه في تعطيل حدوده ، وتعدى شرائعه ، متوكلا عليه فيما صمدت له ، واثقا بنصره فيما توجهت نحوه ، متبرئا من الحول والقوة فيما نالك من ظفر ، وتلقاك من عز ، راغبا فيما أهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد ، ورمى بك إليه ، محمود الصبر فيه عند الله عز وجل من قتال عدو الله للمسلمين ، أكتبه عليهم وأظهره عداوة لهم ، وأفدحه ثقلا لعامتهم ، وآخذه بريقهم ، وأعلاه عليهم بغيا ، وأظهره فيهم فسقا وجورا ، وأشدّه على فيئهم »

ويكثر عبد الحميد في هذه الفقرة من استعمال الحال في بدايتها ، وصيغة التفضيل في نهايتها ، مما يوفر لعبارة كثيرا من الموسيقى .

ويشرع بحددله سياسة الجيش ، فيقول « ثم خذ من معك من تباeck وجندك بكف معرتهم ، ورد مستعلي جورهم ، وإحكام خللهم ، وضم منتشر قواصيمهم ، ولم شعث

أطرافهم ... ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام خارجا من جماعة أهله ، المنتحل ولاية الدين مستحلا لدماه أوليائه ، طاعنا عليهم ، راغبا عن سنته ، مفارقا لشرائعه » .
ويظهر في هذه الفقرة أيضا ولع عبد الحميد بالمتراذفات ، واستعمال الحال ، وعنايته بتوازن جملة .

ويقول : « حصّن جندك واشكّم نفسك بطاعة الله في مجاهدة أعدائه ، وارجُ نصره ... فإن طاعتك إياه فيهم ، ومراقبتك له ، ورجاءك نصره مُسهِّلٌ لك نصره ، مسهل لك وُغوره ، وعاصمك من كل شبهة ، ومنجيك من كل هُوة ، وناعشك من كل صرعة ، ومُقيِّلك من كل كبوة ، وداريُ عنك كل شبهة ، ومُذهِبُ عنك الطعنة كل شك ، ومُقوِّيك بكل أيد ومكيدة ، ومُعزِّك في كل معترك قتال ، ومؤيدك في كل مجمع لقاء ، وكالثك عند كل فتنة مغشية ، وحافظك من كل شبهة مردية » .
وتظهر في هذه الفقرة صيغة جديدة غير الصيغ السابقة ، وهي اسم الفاعل الذي يتردد في كل جملة من جمل الفقرة .

ويقول . « اعلم أن الظفر ظفران ، أحدهما - وهو أعمُّ مَنفعة ، وأبلغ في حسن الذِّكر قالة ، وأحوطه سلامة ، وأتمه عافية ، وأعوّده عاقبة ، وأحسن في الأمور مَوْرِدًا ، وأعلاه في الفضل شرفا ، وأصحّه في الروية حزما ، وأسلمه عند العامة مصدرا - مانيل بسلامة الجنود ، وحسن الخيلة ، ولطف المسكيدة » .
ويعود إلى الظهور في هذه الفقرة صيغة التفضيل التي يليها التمييز . ثم يبين له كيف يحتمل على جيش العدو ليهزمه دون إزهاق الأرواح .

وفي آخر هذا الجزء يشرح له ما يجب عليه في نظام الجواسيس المعقد : « ثم أدك عيونك على عدوك ، متطلعا لِم أحوالهم التي يتقلبون فيها ، ومنازلهم التي هم بها ، ومطامعهم التي قد مدوا أعناقهم نحوها ، وأى الأمور أدعى لهم إلى الصلح وأقوّدُها لرضاهم إلى العافية ... اخفّظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من

أخبار عدوك ، وإياك ومعاقبة أحد منهم على خبر إن أنك به اتهمته فيه ، أوسؤت به ظنا ، وأتاك غيره بخلافه ، أو أن تُسكذب به فيه فتردّه عليه ؛ ولعله أن يكون قد تحضك النصيحة ، وصدقك الخير ، وكذبك الأول ... واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك ، وربما غشوك ، وربما كانوا لك وعليك ، فنصحوا لك وغشوا عدوك ، وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيرا ما يصدقونك ويصدقونه ، فلا تبدرن منك فرطة عقوبة إلى أحد منهم ... واستنزل نصائحهم بالمياحة والمنالة ... واعلم أن لعدوك في عسكرك عيونا راصدة ، وجواسيس كامنة ، وأنه لن يقع رأيه عن مكيدتك بمثل ما تسكايده به ، وسيحتال لك كاحتياالك له ، ويعد لك كإعدادك له فيما تزاوله منه . . . واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضا ، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك ، وممالأهم عدوك ، واجتماعهم على غشك ، وتطابقهم على كذبك ، وإصفاقهم على خيانتك ... »

وبانتهاء الكلام عن الجواسيس ينتهى الجزء الأول من القسم الثانى .
ويبدأ عبد الحميد الجزء الثانى من القسم الثانى بقوله : « فإذا أحكمت ذلك ، وتقدمت فى إتقانه ، واستظهرت بالله وعونه ، فولّ شرتك وأمر عسكرك أو ثقّ قوادك عندك ، وأظهرهم نصيحة ، وأنفذهم بصيرة فى طاعتك ، وأقوام شكيمة فى أمرك ، وأمضاهم صريمة ، وأصدقهم عفافا ، وأجزأهم غنا ، وأكفاهم مثونة وأصحهم ضميرا ، وأرضاهم فى العبادة دينا ، وأحمدهم عند الجماعة خلقا ، وأعطفهم على كافهم رافة ، وأحسنهم لهم نظرا ، وأشدهم فى دين الله وحقه صلابة ... »

وبهذه الفقرة التى تسكث فيها صيغة التفضيل مع التمييز يبدأ تنظيم الجيش وهو يبدأ فى هذه الفقرة بالقائد الأعلى .

ثم يتناول الأحراس من الجند ، فيقول : «واعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك ، ومكانها من جندك ، بحيث الغناء عنهم ، والرد عليهم ، والحفظ لهم ، والسكلاء لمن بغتهم طارقا ، أو أرادهم مخاتلا .. »

ثم يعالج قضاء العسكر ، فيقول : «ثم اعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ، ولا يمثل محله أحد من الولاة ، لما يجري على يديه من مغاليل الأحكام ومجاري الحدود ، فليكن من توليه القضاء في عسكرك من ذوى الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ، والبصر بوجوه القضايا ومواقعها ، قن حنكته السن ، وأيدته التجربة ، وأحكته الأمور .. »

ثم يتناول الطلائع ، فيقول : « ثم تقدم في طلائعك ، فإنها أول مكيدتك ، ورأس حربك ، ودعامة أمرك ، فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوى نجدة وبأس ، وصرامة وخبرة ، حمة كفاة ... وإياك أن تقبل من دوابهم إلا إناث الخيل ملهوبة ، فإنها أسرع طلبا ، وأنجى مهربا ، وألين معظفا ، وأبعد في الآحق غاية ، وأصبر في معترك الأبطال إقداما ، وخذهم من السلاح بأبدان الدروع ، ماذية الحديد ، شاكّة النسيج ، متقاربة الخلق ، متلاحمة المسامير ، وأسوق الحديد مموهة الركب ، محكمة الطبع ، خفيفة الصوغ ، وسواعد طبعها مهندى . وصوغها فارسي ... ثم انتخب للولاية عليهم رجالا بعيد الصوت ، مشهور الاسم ، ظاهر الفضل ، نبيه الذكر ، له في العدو وقعات معروفات ، وأيام طوال ، وصولات متقدّمات .. »

ثم يذكر الشرطة الحربية ، فيقول : «وَلْ ذَرَاةَ عسكرك ، وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم ، رجالا من أهل بيوتات الشرف ، محمود الخبرة ، معروف النجدة ، ذا سن وتجربة ، لين الطاعة ، قديم النصيحة ... واضممُ إليه عدة نفر من ثقات جندك وذوى أسنانهم ، يكونون شرطة معه ، ثم تقدم إليه في إخراج

المَصَافَّ ، وإقامة الأحراس ، وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ... »
ثم يتناول سلطات القواد : « فَوُضَّ إلى أمراء أجنادك وقواد خيلك أمور
أصحابهم ، والأخذ على قافية أيديهم ، رياضة منك لهم على السمع والطاعة
لأمرائهم ... واعلم أن في استخفافهم بقوادهم ، وتضييعهم أمر رؤسائهم ، دخولا
للضيايع على أعمالك ، واستخفافا بأمرك الذي ياتمرون به ... وأوغز إلى القواد ألا
يُقدِّم أحد منهم على عقوبة أحد من أصحابه إلا عقوبة تأديب ، وتقويم مئيل ،
وتثقيف أوده ... »

ثم المؤخرة : « وإياك والمسير إلا في مُقَدِّمة وميمنة وميسرة وساقة ، شهروا
الأسلحة ، ونشروا البنود والأعلام ، وعَرِّفْ جنودك مراكرهم ؟ سائرين تحت
ألويتهم ، قد أخذوا أهبة القتال ... ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك
في نفسك صرامة ونفاذا ، ورضى في العامة ، وإنصافا من نفسه في الرعية ، وأخذنا
بالحق في المعدلة ... »

« ثم اكنف معه الجمع ، وأيده بالقوة ، وقوه بالظهر ، وأعنه بالأموال ... اجعل
خلف ساقتك رجلا من وجوه قوادك جليدا ماضيا ، عفيفا صارما ، شهيم الرأي
شديد الحذر ... في خمسين فارسا من خيلك ، يحشر إليك جنودك ، ويلحق بك
من يتخلف عنك ، بعد الإبلاغ في عقوباتهم ، والنهك لهم . »

وأخيراً بعض النصائح الحربية العامة : « لَيْسَ كُنْ رَحِيمُكَ إِبَانَا وَاحِداً ، ووقتنا
معلوما ، لتخف المثونة بذلك على جنودك ، ويعلمون أوان رحيلهم ، فيقدموا فيما
يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابهم . . . فإذا انتهيت إلى منهل أردت
نزوله ، أو هممت بالمعسكر به ، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمراقبه
ومُرَّ صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستثير لك علم دفينته ، ويستبطن

علم أموره . . . إياك أن يكون منزلُك إلا في خندق ، وحصن تأمن فيه بيّات
عدوك وتستنيم فيه إلى الحزم من مكيدتك . . . »

ويرجع إلى تنظيم الجيش مرة أخرى ، فيقول : « ثم وَلَّ على كل مئة رجل
منهم رجلاً من أهل خاصّتك ونصّحائك ، له صيتٌ في الرياسة ، وقدمٌ في السابقة
وأوّلية في المشايعة » . ويرى بعض النقاد المحدثين ^(١) أن هذه الفقرة تكشف
عن تأثر عبد الحميد بالثقافة الهلينية وتنظيم الجيش البيزنطى ، إذ كان يتكون هذا
الجيش من وحدتين : اللجيو ، وتتكون من ستة آلاف رجل ؛ والسنتريو ، وتتكون
من مئة رجل ، ويعرف رئيس هذه المئة بالسنتريونس . وليس ذلك بغريب ، فقد
رأينا سالماً وحلقته كلها متأثرة بالثقافة الهلينية . وربما عرف عبد الحميد هذا الجيش
عن طريق اتصاله بالروم في الشام وآسيا الصغرى .

ويقول أيضاً : « وَكَلَّ بخزائنك ودواوينك رجلاً ناصحاً أميناً ذا ورع
حاجز ، ودين فاضل ، وطاعة خالصة ، وأمانة صادقة ، واجعل معه خيلاً يكون
مسيرها ومنزلها وترحلها مع خزائنك وحولها ، وتقدّم إليه في حفظها ،
والتوقى عليها . . . » .

وينهى الرسالة ببعض النصائح العامة : « اعلم أن أحسن مكيدتك أثراً
في العامة ، وأبعدها صيتاً في حسن القالة ، ما نلت الظفر فيه بحزم الروية ،
وحسن السيرة ، ولطف الحيلة . . . إذا تدانى الصفان ، وتواقف الجمعان ،
 واحتضرت الحرب ، وعيّنت أصحابك لقتال عدوهم ، فأكثر من قول « لا حول
ولا قوة إلا بالله » ، والتوكل على الله عز وجل . . . ومُرّ جندك بالصمت ، وقلة
التلفت عند المصاولة ، وكثرة التكبير في نفوسهم ، والتسبيح بضمائرهم . . . »

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص ٦٧ .

ويختتمها بقوله : « أيدك الله بالنصر ، وغلب لك على القوة ، وأعانك على الرشد ، وعصمك من الزنح ، وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء ، ومنازل الأصفياء . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

هذه هي رسالة عبد الحميد ، بل كتابه إلى ولي العهد ، وإنها لذات أهمية كبيرة في تاريخ حركة الكتابة والتأليف في الأدب العربي . فهي تبين لنا جميع مزايا عبد الحميد الكتابية . وأول ما يظهر فيها عقله المنطقي الذي يقسم الموضوع إلى أفكار جزئية ، ويخص كل فكرة بفقرة خاصة من الكلام . ويظهر فيها تأثر عبد الحميد بالثقافة اليونانية والفارسية . وليس ذلك بالأمر العجيب . فنحن نعرف أن أستاذه كان يترجم من اليونانية ، وأنه هو نفسه كان يترجم من الفارسية ^(١) . فلهذا أستاذه علمه يونانية ، وتأثر بها هو عن طريق فارسيته . وربما كان هذا العقل المنطقي طبيعة فطر عليها ، دون أثر من يونان أو فارس . وإن لم يكن الأمر كذلك ، فقد صار طبيعة فيه . صبت كتابته بخصائص كثيرة ، ترجع كلها إلى ذلك العقل المنطقي ، الذي يأبى إلا النظام والوضوح والدقة . ومن الأمور التي تضيف على هذه الرسالة أهمية زائدة دلالتها على ثقافة مؤلفها الواسعة الشاملة ، المتشعبة الأنحاء ، التي توحى إلينا بما كان معروف في المجتمع الإسلامي من آداب وثقافات ومعارف ، من استنباطهم ، أو من الجداول الخارجية التي شرعت تتدفق على العالم الإسلامي ، وكانت إرهاباً بالسيول المنهمرة المتدافعة في العصر العباسي الذهبي .

وقضلا عن هذه الأفكار ، يظهر فيها عناية شديدة باختيار الألفاظ والأسلوب ، حتى تتوافر الموسيقى فيها توافراً شديداً ، آتيا عن توازن الجمل وازدواجها

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ٣ : ١٦ .

أو سجعها ، وعن مراعاة عبد الحميد لبعض الصيغ الخاصة في الفقرة الواحدة ،
المفعول به ، أو صيغة التفضيل ، أو التمييز ، أو اسم الفاعل ، أو الحال . وكذلك
تأتيه الموسيقى من تقابل ألفاظ الجمل المتجاورة وتألفها . وينتج ذلك عن حبه
للترادف وإكثاره منه . فعبد الحميد في هذه الرسالة إمام من أئمة الكتاب ،
يعنى بأفكاره فيستجلبها من الثقافات المختلفة ، ويدقق فيها ويوضحها ، بالإضافة
إلى ترتيبها . ويعنى بأسلوبه فيوفر له الجمال الموسيقى ، الذي يثير اللذة في القارئ ،
والإعجاب بالكاتب .

وهذه الرسالة لها أهمية أخرى في تاريخ الكتابة الفنية العربية ، إذ تقف
وحدها علماً بين العهود التي قبلها ، والتي بعدها . ونحن إذا ما جمعنا جهود الصدر
الأول من الإسلام مثلاً ، وأنعمنا النظر فيها ، نجدتها مختصرة موجزة لا تعدو
النصائح الدينية . فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يقول في عهده لعمر بن حزم
حين ولاه اليمن ^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا بيان من الله ورسوله « يأيتها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، عقد من
محمد النبي رسول الله لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن . أمره بتقوى الله في أمره
كوله ، « إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون » ، وأمره أن يأخذ بالحق
كما أمر به الله ، وأن يبشّر الناس بالخير ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ،
ويُفقههم في الدين ، وينهى الناس فلا يمس أحد القرآن إلا وهو طاهر ، ويُنْخِبر
الناس بالذي لهم وبالذي عليهم ، ويلين للناس في الحق ، ويشدد عليهم في الظلم ،

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٦٢ .

فإن الله عز وجل كره الظلم ونهى عنه ، وقال : « أَلَا تَعْتَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ » ،
ويبشر الناس بالجنة وبعملها ، ويُنذِر بالنار وبعملها ، ويستألف الناس حتى
يتفقهوا في الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته . . . »

فهي مجرد نصائح دينية بعضها بخوار بعض . بل اليهود الحربية نفسها لم تسكن
تتعدى هذه النصائح الدينية أيضاً . وهذا عهد أبي بكر لأمراء جيوش الردة ^(١) :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان . . . حين
بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، عهد إليه أن يتقى الله ما استطاع
في أمره كله ، سره وعلا نيته ، وأمره بالجد في أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ،
ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يُغذّر إليهم ، فيدعوهم بداعية
الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يُقروا له ،
ثم يُذبّئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويُعطيهما الذي لهم ،
لا يُنظرهم ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل
وأقر له ، قبل ذلك منه ، وأعاناه عليه بالمعروف ، وإنما يُقاتل من كفر بالله ،
على الإقرار بما جاء من عند الله . فإذا أجاب الدعوة لم يكن له عليه سبيل ،
وكان الله حسيبه بعدُ فيما استسّر به . ومن لم يحب داعية الله قُتل وقُوتل حيث
كان ، وحيث بلغ مُراعته ، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام . فمن أجابه
وأقر به قبل منه وعلمه . ومن أبى قاتله . فإن أظهره الله عليه قتل فيهم كل قتلة
بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يُبغّضه ، وأن يمنع

أصعابه العجلة والفساد ، وأن لا يُدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ، ويعلم ما هم ،
لئلا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتّى المسلمون من قبيلهم ، وأن يقصد بالمسلمين ،
ويزفّق بهم في السير والنزل ، ويتفقدهم ولا يُعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصى
بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول » . فهذا العهد وإن كان يحتوي على
بعض النصائح غير الدينية إلا أنها قليلة بجانب الدينية .

وهذا عمر يهدى إلى عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة ، فيقول ^(١) :
« واتقِ الله فيما وُلّيت ، وإياك أن تفتارحك نفسك إلى ركبر يُفسد عليك
إخوتك ، وقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعزّزت به بعد الذلّة ،
وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مسلطاً ، وملكا مُطاعاً ، تقول
فيسمع منك ، وتأمر فيطاع أمرك ، فيألفها نعمة إن لم ترفمك فوق قدرك
وتبطرك على من دونك ، احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية ، ولهي
أخوفهما عندى عليك أن تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم .
أعيزك بالله ونفسي من ذلك . إن الناس أسرعوا إلى الله حين رفعت لهم الدنيا
فأرادوها ، فأريد الله ولا تُرد الدنيا ، واتقِ مصارع الظالمين » .

ولكن عمر كانت له نصائح حربية أيضاً ، يظهر ذلك في رسائله لسعد بن
أبي وقاص ، وهو يحارب الفرس ^(٢) :

« أما بعد ،

فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله
أفضل العدة على العدو ، وأقوى المسكدة في الحرب ، وأمرك ومن معك أن

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٤٥ . (٢) نفس المرجع ٢٣٣ .

تسكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذُنُوبُ الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم ، وإنما يُنصَرُ المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تسكن لنا بهم قوة ، لأن عدَدَنَا ليس كعدَدِهِمْ ، ولا عدَدُنَا كعدَدَتِهِمْ . فإن استويينا في المعصية ، كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا نُنصَرُ عليهم بفضْلِنَا لم تغلبهم بموتنا . فاعلموا أن عليكم في سيركم حَفَظَةُ من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا : « إن عدُوَّنَا شرٌّ منا ، فإن يُسلِّطَ علينا » . قُرْبَ قوم سُلِّطَ عليهم شرٌّ منهم ، كما سُلِّطَ على بني إسرائيل — لما عملوا بمساخطِ الله — كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعد مفعولا . واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم ... »

ويظهر في هذه الفقرة الروح الإسلامي ، ولكن الروح الحربى يظهر في الفقرة التالية :

« وترَفَّقَ بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تُجَسِّمُهُمْ مَسِيرًا يُتعبهم ، ولا تُقَصِّرْ بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامى الأنفس والكرأع ، وأَقِمَّ بَيْنَ مَعَكَ في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يُحيون فيها أنفسهم ، ويرمئون أسلحتهم وأمتعتهم . ونَحِجَّ منازلهم عن قرى أهل الصُّلح والذِّمَّة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تَثِقَ بدينه ، ولا يَرِزَا أحداً من أهلها شيئاً . فإن لهم حُرْمَةً وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتُلُوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولواهم خيراً ، ولا آتسئصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . »

وإذا وطئت أرض العدو فأذكِ العيون بينك وبينهم ، ولا يَخَفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن السكذوب لا ينفَعُك خبره ، وإن صدقك في بعضه ، والفاش عَيْنُك عليك وليس عينا لك . وإسكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع ، وتَبَثَّ السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومراقبهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ، وتَتَقَّ للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتَخَيَّرَ لهم سوابق الخيل ، فإن لقوْا عدوا كان أول مآلتقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلال ، ولا تخص بها أحدا بهوى ، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حايبت به أهل خاصتك ؛ ولا تَبْعَنَّ طليعة ، ولا سرية في وجه تَخَافُ فيه غلبة أو ضيعة أو نسكاية . فإذا عاينت العدو فاضمَّمْ إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ، ما لم يستكرهك قتال ، حتى تُبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتَعْرِفَ الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بمدوك كصنعه بك . ثم أذكِ أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهُذك ، ولا تُؤثِّرَ بأسير ليس له عَقْدٌ إلا ضربت عنقه ، لَتُرهب به العدو الله وعدوك . والله وَلِيُّ أمرك ومن معك ، وَوَلِيَّ النصر لكم على عدوكم . والله المستعان .

وهذا العهد ذو أهمية بالغة ، بل هو أهم عهد في الصدر الأول من الإسلام ، فهو يحتوى على جل الأفكار التي عنى عبد الحميد بيسطها والإطناها في الكلام عنها ، من نظام الجيش والجواسيس والطليعة والتحذير من البيات وغيرها . ولا يخامرنا كثير من الشك في قراءة عبد الحميد لهذا العهد وتأثره به ، وإن كان عبد الحميد أدخل أشياء جديدة أتت بها من عصره

ومن ثقافته .

أما عثمان فيكتفى في عهوده إلى عماله بالإشارة إلى عهود عمر ووجوب العمل بها ، كتب إلى عماله ^(١) :
« أما بعد

فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ، ولا تبدّلوا ، ومهما أشكل عليكم فردّوه إلينا نجتمع عليه الأمة ثم نردّه عليكم . وإياكم وأن تغيّروا ، فإنني استقابلا منكم إلا ما كان عمر يقبل . »

كما كان عثمان يتعهدهم بالنصائح الدينية من عنده أيضا ، يقول في عهد آخر ^(٢) :

« أما بعد :

استعينوا على الناس أو كل ما ينوبكم بالصبر والصلاة ، وأمر الله أقيموه ، ولا تذهبنوا فيه ، وإياكم والمجلة فيما سوى ذلك ، وارضوا من الشر بأيسره ، فإن قليل الشر كثير . واعلموا أن الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرقها ، ويباعد بعضها من بعض . سيروا سيرة قوم يريدون الله لثلاث تكون لهم على الله حجة . »

ويقتفى على أثر من قبله في عهوده ، ولسكنه له عهد هام إلى زياد بن النضر وشريح بن هانئ في الحرب يقول : ^(٣)

« واعلموا أن مقدّمة القوم عيونهم ، وعيون المقدّمة طلائعهم ، فإذا أنتمأخرجنا من بلادكم فلا تشأما من توجيه الطلائع ، ومن نفص الشعاب والشجر والخمر

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٩٣ . (٢) نفس المرجع ٢٩١ .

(٣) نفس المرجع ٤٦٠ .

في كل جانب ، كي لا يفتركم عدو أو يكون لهم كمين ، ولا تُسيرن الكتائب والقبائل من لدن الصباح إلى المساء إلا على تعبئة . فإن دهمكم عدو أو غشيكم مكروه ، كنتم قد تقدمتم في التعبئة . فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبيل الأشراف ، وأسفاح الجبال ، وأثناء الأنهار ، كيما يكون ذلكosكم رذءا ، وتسكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال ، وبأعلى الأشراف ، ومناكب الأنهار ، يروُن لكم ، لا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن . وإياكم والتفرق ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعا ، وإذا رحلتم فارحلوا جميعا ، فإذا غشيكم الليل فنزلتم فحفظوا عسكركم بالرماح والترس وتسكرن رُماتكم من وراء تراسكم ورماحكم ، يلونهم . وما أقم فكذاك فافعلوا ، كيلا يصاب لكم غفلة ، ولا يُلفى لكم غرة ، فاقوم يحفون عسكرهم برماحهم وترسهم من ليل أو نهار ، إلا كانوا كأنهم في حصون ، واخرسوا عسكركم بأنفسكم . . . وليكن كل يوم عندي خبركم ، ورسول من قبلكم ، فإني - ولا شيء إلا ما شاء الله - حثيث السير في إنركم . وعليكم في جريكم بالثؤدة ، وإياكم والمعجلة إلا أن نمكنكم فرصة بعد الإغذار والحجة . وإياكم أن تقاتلا حتى أقدم عليكم إلا أن تبدآ ، أو يأتيكما أمرى إن شاء الله . »

ولا يبلغ هذا العهد مبلغ عهد عمر ، إلا أننا نجد فيه قليلا من الأفكار التي وردت في عهد عبد الحميد ، ولا شك أنه أخذ بذرته منه ، فإنه كان يحفظ كلام على بن أبي طالب . وبهذا العهد نرى أن عهود الصدر الأول من الإسلام كانت تغلب عليها الصبغة الدينية ثم الحربية ، وأن عمر وعليا كان لهما من العهود ما شتمل على أصول مجموعة من أفكار عبد الحميد ، إلا أن هذا استخدم هذه الأصول ونماها ، فأتت أكلها على يديه .

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الأموي وجدنا نوعاً آخر من العهود . ولسكننا قبل الكلام عنها نحب أن نشير للمرة الثانية إلى أننا نرفض رسالة معاوية إلى ابنه يزيد ، التي يعنفه فيها تعنيفاً شديداً يحط قدره ، وهي مما يمكن اعتباره من العهود . وبعبارة ذلك نقبل رسالة عبد الملك بن مروان إلى ابنه التي يلومه فيها ، وقد تكلمنا عنها من قبل ، فلا داعي للتكرار . أما هذا النوع الآخر من العهود فليس بجديد ، ولكنه وحيد . وأعني بذلك أن العهود الدينية تختفي ، وتشغل المكان العهود الحربية وحدها ، مما يجعلنا نطمئن إلى الرأي القائل بأن العهد الأموي كان كله عهد حروب وفتن وثورات بين المذاهب الإسلامية المختلفة ، وبين المسلمين ومن جاورهم من الأمم الأخرى . ويتضح ذلك أبلغ وضوح في الرسائل بين عبد الملك بن مروان والحجاج والمهلب بن أبي صفرة . وهاك رسالة من الحجاج إلى المهلب^(١) :

« أما بعد ،

فإنك تتراخى عن الحرب ، حتى يأتيتك رُسُلِي فيرجعون بعذرِكَ ، وذلك أنك تُمسك حتى تبرأ الجراح ، وتُنسى القتلى ، ويحتم الناس ، ثم تلقاهم فتحتمل منهم مثل ما يحتملون منك من وحشة القتل وألم الجراح ، ولو كنت تلقاهم بذلك الجد لسكان الداء قد حُسم ، والقرن قد قُصم . ولعمري ما أنت والقوم سواء ، لأن من ورائك رجالاً ، وأمامك أموالاً ، وليس للقوم إلا ما معهم ، ولا يدرك الوجيف بالديب ، ولا الظفر بالتعذير . »

ولا تختلف باقي العهود عن هذه الرسالة ، فهي موجزة قصيرة وقتية لا ترتفع

(١) أحمد صفوت : الجهرة ٢ : ١٨٥ .

حتى إلى مرتبة عهدى عمر وعلى لا مرتبة عبد الحميد . ولكن يجب أن يقال إن هذه العهود تختفى في عهد عمر بن عبد العزيز ، وتظهر محايها العهود الدينية التي يرسلها إلى عماله المنتشرين في أنحاء الدولة الإسلامية المختلفة . وهالك كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم عامله بخراسان ^(١) :

« أما بعد ،

فكن عبدا ناصحا لله في عبادته ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، فلا تؤلن شيئا من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم ، وأداء الأمانة فيما استقرى . وإياك أن يكون مملك ميلا إلى غير الحق ، فإن الله لا يخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهبا ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه » .

وهكذا نخرج من هذا العرض للعهود في الأوقات المختلفة ، قبل عبد الحميد ، بأنه كان ينظر في عهده إلى عهد عمر ثم عهد على . أما غير ذينك فلم يكن يوجد من العهود ما يصح اعتباره أصلا لعهد عبد الحميد . ولكن الفرق شاسع أيضا بين هذين العهدين وعهد عبد الحميد في الأسلوب ، والأفكار ، والغرض منه ، بحيث يقف عهده وحيدا شامخا بين هذه العهود المتضائلة المتخاذلة بجانبه .

ويشند وضوح مكانة هذا العهد حين تقارنه بما بعده من عهود ، ويكفي أن نعقد مقارنة سريعة بينه وبين عهد طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله حين ولاء المأمون الرقة ومصر وما بينهما ^(٢) . وكان لعهد عبد الحميد أثر شديد في عهد طاهر

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٣٤٠ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ٢٤٠ . وأحمد صفوت : المجهرة ٣ : ٤٨٥ .

و يتضح هذا منذ البداية ، إذ يبدأ العهدان بالنصح بالتقوى ، فعبد الحميد يقول بعد ديباجته : « واعلم أن احتوائك على ذلك ، وسبقك إليه ، بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً بها ، وإضمار طاعته منطوياً عليها » ، وطاهر يقول : « فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته عز وجل ، ومزايلة سخطه ... » . وإن كنا ينبغي علينا أن نتذكر أن البدء بالتقوى كان أمراً مألوفاً في العهود الإسلامية جميعها . ويظهر هذا الأثر في الأفكار الأخرى ، بل يتعدى ذلك إلى بعض العبارات - على الرغم من اختلاف الأسلوبين - فعبد الحميد يقول : « ثم اعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام » . وطاهر يقول : « واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور » . وتكاد العبارتان تكونان عبارة واحدة ، بل لو أخفينا اسم السكتين لظنناهما من قلم واحد . ولكن هذا الأثر لم يجعل العهدين صورة واحدة ، بل احتفظ كل منهما بمزاياه ، فنجد عهد طاهر أقصر من عهد عبد الحميد ، ويميل للترادف اللفظي ، ويتكلم عن آداب الوالى وحده ، ويكثر من الكلام عن الخراج ، وتغلب عليه السمة الدينية ، على حين نجد عهد عبد الحميد يميل لترادف الجمل ، ويذكر آداب الوالى وآداب البلاط ، ويبين نظام الحكم ، ونظام الجيش ، وسياسة الحروب ، ولا يلج على نظام الخراج . فهما ينفرد كل منهما بخصائصه ، ولكن لا شك أن عهد طاهر كان يأخذ ويقتبس من عهد عبد الحميد في أفكاره وألفاظه .

رسالة الصيد

وهذه رسالة أخرى من رسائل عبد الحميد تكشف لنا عن نواح أخرى فيه .
كتب يصف رحلة صيد للخليفة^(١) :

« أطال الله بقاء أمير المؤمنين مُؤَيَّدًا بالعز ، مُخْصِصًا بالكرامة ، مُمْتَعًا
بالنعمة . إنه لم يُلَقَّ أحدٌ من المُقْتَنَصِينَ ، ولا مُنَحَّ مُتَطَرِّفٍ من المُتَّصِدِينَ إلا
دون ما أَلَقَّنا الله به من اليُمْنِ والبرِّكة ، ومنحنا من الظفر والسعادة في مَسِيرِنا ،
من كثرة الصيد ، وحُسن المُقْتَنَصِ ، وتمسكين الجاسة ، وقُرب الغاية ،
وسهولة المورد . . . »

ويظهر في هذه الفقرة ميل عبد الحميد للإطناب ، وترادف الجمل ، وتوازنها .
ويبدأ الموضوع الأساسي في الرسالة بقوله : « وإني أخبر أمير المؤمنين أنا خَرَجْنَا
إلى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثَقَفِ الصَّواري ، أكرمها أجناسًا ، وأعظمها
أجسامًا ، وأحسنها ألوانًا ، وأحدها أطرافًا ، وأطولها أعضاء ، قد ثَقَّتْ بِحُسْنِ
الأدب ، وعُوِّدَتْ شدة الطلب . . . ومعنا من نفائس الخيل المَخْبُورَةِ الفَرَاهَةِ ،
من الشَّهْرِيَّةِ المَوْصُوفَةِ بالنَّجَابَةِ ، والجَرَى والصلابة . . . »

ونراه يلتزم في هذه الفقرة صيغة التفضيل مع التمييز ، مما يسكبها
موسيقية متوافرة ،

ويظهر في هذه الرسالة ميزة أخرى ، لعلها لا تظهر في رسائله الأخرى بهذا
الوضوح ، تلك هي واقعيته ، وتحريره الدقة في وصف الواقع ، حتى لنراه

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٥٤٤ .

يصف رحلة الصيد ، وما مر به من أراض في سيره ، والاختلافات التي طرأت على الجو في أثناء طرده ، فيقول :

« فلم نزل بأخفص سَيْر، وأتقف طلب ، وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً ، فَرَبَتْ منه الأرض ، وزهر البقل ، وسكن القَتَام من مُثَار السَّنَابِك ، ومُتَشَعَّبَات الأعاصير ، مُهَلَّة أَنْ سرنا غَلَوَات ، ثم برزت الشمس طالعةً ، وانكشفت من السحاب مسفرة ، فتلاَّلت الأشجار ، وضحك التَّوَار ، وانجالت الأبصار ، فلم نر منظرًا أحسن حُسْنًا ، ولا مَرْمُوقًا أشبه شكلاً ، من ابتسام نُور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض ، والخليلُ تَمَرَح بنا نشاطًا ، وتجتذبنا أعنتها انبساطًا . ثم لم نلبث أن عَلَتْنَا ضبابةً تقصُر طرف الناظر ، وتُخْفِي سُبُل السلام ، تغشانا تارة ، وتُنْكَشِف خرى ، ونحن بأرض دَمِيَّة القَرَاب أشبه الأطراف ، مُعْدَقَة الفجاج ، مملوءة صيداً من الطَّيَّاء والتعالب والأرانب ... » .

فهذا إحساس مرهف من الكاتب بالطبيعة حوله ، في حالاتها المختلفة ، وهذا تصوير واقعي صادق ، لما يحس به الكاتب . ويستخدم عبد الحميد هذا الجو الطبيعي ليعبر لنا صورة الطرد والصيد ، ويساعدنا على تمثيل المنظر كاملاً واضحاً .

وهاهم أولاء قد وجدوا الصيد : « فأدانا المسير إلى غابة دونها مآلف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ... فإذا نحن برغلة من طيِّاء ، وخِلْفَة آرام برتعن آ نسات ، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا ، وأذهعن أرنيق الرياض عن استماع حسننا ، فلم نعيج إلا والضواري لأحمة لهن من بُعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ، ثم مدت الجوارح أعنتها ، واجتذبت الضواري مقاوردها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فرت تحف حفيف

الريح عند هبوبها ، تَسَفُّ الأرض سَفًا ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة بأظفارها ، قدمزقتها تمزيق الرياح الجراد ، فمن صائح بها وناغر ، وهاتف بها وناثق ، يدعو الكلب باسمه ، ويُقَدِّيه بأبيه وأمه ، وراكض تحت مُفْرِهِ ، وخافق يطلبه الرمح ، وطامع يمنعه ، وسائح قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى امتلأت أيدينا من صنفوف الصيد ، والله المنعم الوهاب .

فما أصدق الصورة وما أجمل المنظر ، وما أبلغ عبد الحميد الذي يكشف لنا عن ثقافة ومعرفة بالشعر في لفظة واحدة « خلفه آرام » . فامله أنى بهامن معلقة زهير من قبيل التنظف والتملح باستخدام الألفاظ الشعرية .
ولم تنته الرحلة بعد ، فإن هناك منظرًا آخر ينتظرنا : « ثم ملنا ، يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب ، وخبر أعلام المذانب ، إلى غدير أفيح ، وروضة خضرة ، مستأجرة بتلاوين الشجر ، ملتفة بصنوف الحمرة ، مملوءة من أنواع الطير . لم يذعرهن صائد ، ولا اقتنعهن قانص ، فخفق لها بطبول ، وصفر بنفير الحتف . فثار منها ماملاً الأفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات أجنتها . ثم انبرت البزاة لها صائدة ، والصقور كاسرة ، والشواهين ضارية ، يرفعن الطلب لها ، ويخفضن الظفر بها . حتى سئمتنا من الذبح ، وامتلائنا من النضيج ، كأننا كتيبة ظفرت ببغيتها ، وسرية فصرت على عدوها ، وألحقت ضعيفها بقويها ، وغلبت بحسنها بمسيئها ، لا نملك أنفسنا مرحًا ، ولا نستفيق من الجذل بها فرحًا ، بقية يومنا ، والله المنعم الوهاب .

وهذا منظر ثالث : « ثم غدونا ، يا أمير المؤمنين ، إلى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة ، ورياضها بالنزهة ، فزل واصفها عن الطريقة ، واعتمد بنا على غير الحقيقة ،

فأتيناهما فلم نر صيدا ولا عشباً، ولا نزهة ولا حسناً . فجعلنا نسلّك منها حزونا ووعورا
وجدوبا وقفرا ، حتى قصّر بنا اليأس عن الطلب ، وقطع بنا عن الطمع النصب .
فبينما نحن كذلك إذ بدا لنا جأب قد أوفى بنا على حائل بهادل غابة ، من ورانها
حمير وحش كثيرة . فأمنّاها ، فلما تطرفنا مشيا وتقربنا إلى عاناته ، توألى شهيقه
وكثر شهيقه ؛ فالتفتن إليه ، فرمقن بأعينهن منا ما استكترن شخصه ، واستهلن
أمره ، حتى إذا كنا نبرأى ومسمع انجذبين موليات ، وهربن مسييات . فأجهدنا الركض
في طلبهن ، نتبع آثارهن ، ونستشف بلاء بين أحفار ودكاك وخناذيد ، حتى أشفى
بنا الطلب على واد هائل سائل يحنّته غابة أشبه قد سبقن إليها ، واستخفين
فيها ، فنظّمناها بالخليل نظم الخرز ، ثم أوغلت عدة فرسان في نفصها ومعرفة
أحوالها ، والطلبول خافقة ، والأصوات شاهقة فسكان وكان ؛ والحمد لله على
كل حال .

وهذه الرسالة في نظري من أهم رسائل عبد الحميد ، فهي تكشف عن خصائصه
في الأسلوب من إطناب ، وترادف جمل ، وتوازنها ، ومن ازدواج ، وسجع منتشر ،
والتزام لبعض الصيغ الموسيقى والإيضاح مثل صيغة التفضيل والحال . ولكن
أهم من كل ذلك أنها تكشف لنا عن إحساس مرهف عند عبد الحميد ، فتراه
يحس بالطبيعة إحساسا شديدا ، ويحاول أن يرسمها كما يراها ويحس بها .
فهو رسم واقعى صادق شامل ملم للأطراف والتفاصيل . وذلك من شأن
العقول المنطقية التى رأينا أن عبد الحميد لم يكن غريبا عنها . وهكذا نعرف
من هذه الرسالة عبد الحميد الواقعى المصور الطبيعى المرهف الإحساس
بالطبيعة ومفاتها .

وقد رأينا أن من أسباب أهمية كتاب عبد الحميد السابق دلالاته على ثقافته

العامة ، ومن العوامل التي تجعل هذه الرسالة الراهنة هامة في نظر دارسي الأدب العربي وعبد الحميد خاصة ، دلالتها على ثقافته العربية . فهي تدل دلالة واضحة على اطلاع واسع على الشعر العربي القديم وطردياته خاصة ، وهضم لأوصاف هؤلاء الشعراء ، ثم مشاركة من عبد الحميد للمطاردين والصيادين . فهذه الرسالة لا يستطيع أن يخرجها إلا من أكثر قراءة الطرديات القديمة ، ولا يستطيع أن يخرجها بهذه الحياة وهذه القوة إلا من عانى الصيد ، ولا في متاعبه وأهواله ، وملأه ومتعه .

رسالة إلى العصاة

ولدينا رسالة أخرى لعبد الحميد تظهر فيها خاصة لم تظهر في رسائله الباقية ، تلك الرسالة التي كتبها إلى بعض من خرج عن الطاعة : ^(١) «أما بعد ،

فقد بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المُرْدَ على الجُرْدِ ، فسترد عليك جنود الله المقر بون ، وأولياؤه الغالبون ، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من السكهول ، على الفحول ، كأنها الوعول ، نخوض الوحول ، طوال السبال ، تختضب بالجريال ، رجال هم الرجال ، بين رمح وناشب ، ليس معهم إلا كلب محارب ، ولا ينسكلون عن الأصحاب ، فقد ضربوا بضرب النهام ، واعتادوا السكر والإقدام ، ليسو بذى هيئة ولا إحجام ، يقضون بالسيوف ، ويخالطون الزخوف ، في أعنتهم الختوف .

فوجد عبد الحميد في الفقرة السابقة يلتزم السجع التزاما شديدا ، لم نره عنده

(١) محمد كرد علي : أمراء البيان ص ٥٥ . وأحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٤٧١ .

في رسائله الأخرى ، مما قد يجعل شيئا من الشك يتسرب إلى نفوسنا في صحة نسبة هذه الرسالة إليه ، غير أن هناك بعض الفقرات من الرسائل الأخرى تحد من ازدياد هذا الشك . فإننا نرى هذا السجع الملتزم أو ما يقاربه في رسالته إلى العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار العباسيين الأسود ^(١) :

« فلا تَمَسْكُوا ناصية الدولة العربية ، من يد الفئة العجمية ، واثبُتُوا ريثما تنجلي هذه الغمرة ، ونصحو من هذه السكر . فسيَنْضُب السيل ، وتُمْحَى آية الليل ، والله مع الصابرين ، والعاقبة للمتقين » .

بل نجد السجع في القطعة التي يقال إن كتابه إلى أبي مسلم الخراساني بدأ بها ^(٢) : « لو أراد الله بالتملة صلاحا ، لما أنبت لما جناحا » . فإن هذه القطعة لو كانت صحيحة تدلنا على أن عبد الحميد كان يولع بالسجع أحيانا ، وخاصة في كتبه إلى الثوار والخارجين عن الطاعة . أما إذا كانت موضوعة ، فإنها تدلنا على أن واضعها كان يشعر بأن عبد الحميد كان يفرم بالسجع أحيانا ، وذلك مما يجعلنا نطمئن إلى الرسائل المسجوعة المنسوبة إليه . كما نراه يسجع في بعض تهميداته ^(٣) :

« الحمد لله العلى مكانه ، المتير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلمانه ، الشافية آياته ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ... » .

(٢) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٥٦٩ .

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٥٦٨ .

(٢) نفس المرجع ٥٥١ .

مجموع خصائص عبد الحميد

نخرج من هذه الرسائل ، التي حللناها ، وغيرها من الرسائل التي لم نحللها هنا ، مجموعة من الخصائص كان يتحلى بها عبد الحميد . ولعل أول ما نخرج به أنه كان ذا عقل منطقي ، متسلسل الأفكار ، منتظم الخطوات . يظهر هذا في تقسيمه رسائله إلى فقرات ، تتألف كل واحدة منها من فكرة خاصة لانتعدها إلى الفقرة الأخرى . وتتألف هذه الأفكار الخاصة في الفقرات المنفصلة ، وتترابط ، فيتكون منها الموضوع العام أو الرسالة . ويظهر هذا التقسيم أوضح ما يظهر في رسالته إلى ولي العهد . ولذلك يقول عنه الدكتور طه حسين : إن قارئه يستطيع أن يقرأ الفقرة ثم يقف ويستريح عند آخرها ، بل يستطيع أن يطوى الكتاب يوما أو أكثر ثم يعود إلى القراءة دون أن يشعر بانقطاع المعنى ^(١) . وهذا التقسيم للموضوع غريب عن العقل العربي ، لم نعهده فيمن قبل عبد الحميد ، وإنما عهدنا منهم وممن بعدهم استطرادا وخروجا عن الموضوع إلى اليمين والشمال ، ورجوعا إليه متى أحبوا ، بل قد لا يرجعون إليه أبدا . فهذا التقسيم وليد هذا العقل المنطقي .

وظهر تفكيره المنطقي أيضا في ميله إلى الواقعية في التصوير ، فإن هذا اللون من التصوير أشبه ما يكون بذلك التفكير . وقد اتضح لنا هذا في رسالته في الصيد التي نعرف منها أيضا حبه في تصوير المناظر الطبيعية ، بل حبه في التصوير عامة . وقد ظهر لنا ذلك أيضا في رسائله الإخوانية ، وخاصة رسالته عندما أنجب ابنه ، وفي رسالته إلى الكتاب أيضا . وكان من آثار حاسته المصورة هذه استعمال التشبيه

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ٦٨ .

والاستعارة والتشخيص ، وتظهر هذه الخاصة في رسالته التي يقول فيها ^(٢) :
« الناس أصناف مختلفون ، وأطوار متباينون ، منهم علق مضنة لا يباع ، ومنهم
غل مظنة لا يبتاع » .

وقد دفعه تفكيره المنطقي أيضاً إلى تحرى الدقة في عباراته ، وتوضيح ما يقصده
من معان ، فأدى به ذلك إلى الإكثار من استعمال الحال كثرة ملحوظة ، لأنجدها
عند غير مدرسة عبد الحميد وأستاذه من الأدباء . وهي على غرارها عن اللغة العربية ،
مألوفة في اللغة اليونانية ، مما جعل بعض المحدثين يربطون بين هذه المدرسة وهذه اللغة ،
التي نعرف أن سالما كان يعرفها ويترجم منها ، والتي ربما عرفها عبد الحميد ،
وإن لم يصرحوا لنا بذلك . ولكنه — إن لم يكن عرفها مباشرة — فقد عرفها
بطريق غير مباشر ، أعنى كتابات أستاذه ، التي تأثر بها ، وتطبع ببعض خصائصها .
ولكننا نحس ألا نعطي هذه الظاهرة أكثر مما تستحق ، فإن عبد الحميد لا
يكثُر منها وحدها ، بل لعله يأتي ببعض الصيغ الأخرى أكثر مما يأتي بها . فنراه
يكثُر من التفضيل والتمييز والمفعول المطلق ، والمفعول لأجله ، وأساليب العلة .
ومما لا شك فيه أن صيغة التفضيل مع التمييز أكثر دورانا في كتابته من الحال .
ولعل تحريره الوضوح هو ما دعاه إلى الإتيان بالطباق في كتابته أحيانا ، إذ من
المعروف أن الطبق والمقابلة يساعدان على إبراز الفكرة وإيضاحها . ولكن إكثار
عبد الحميد من هذه الصيغ في العبارات المتجاورة لم يكن يرجع إلى تفكيره المنطقي
وحده ، بل يرجع إلى مراعاته للموسيقى ، وحبّه توفيراً أكبر قسط منها لكتابته .
وليس من الغريب أن نقول عن عبد الحميد إنه كان منطقي التفكير ،

(٢) الجهمشيارى : الوزراء والسكرات ٨٢ .

ما دما قد عرفنا أن أستاذة قد ترجم بعض رسائل أرسطو ، وربما كان مطلعاً على منطقته ، ولعله لقنه تلاميذه أيضاً ، كما أننا رأينا عبد الحميد متأثراً بالثقافة اليونانية في كثير من خصائصه ، وخاصة في رسالته لولى العهد . وقد قلنا قبل إن ذلك العقل المنطقي لا يبعد أن يكون طبيعة فطر عليها ، وترعرعت معه ، فسادت على جميع كتاباته .

ولم تجرُ عناية عبد الحميد بأفكاره ومعانيه على عنايته بألفاظه ، بل كان يُعنى بها عناية شديدة أيضاً . وكان يتأنق في ألفاظه ويتخيرها ، ويحبها جزلة فخمة ، وهو يصرح بذلك ، فيقول ^(١) : « خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكرة » . ولم يكن يُعنى بالألفاظ وحدها ، بل بصياغتها أيضاً . فهو ينظم الجمل نظاماً موسيقياً متألّفاً متوازناً . ويعتمد في ذلك على الترادف والتقابل . فيؤدى الفكرة الواحدة في عبارتين أو أكثر ، ولا يؤديها في عبارة واحدة ، طلباً للترادف الصوتي ، والتوازن الموسيقي . إذ تتعادل العبارتان أو العبارات ، فتعطي موسيقى متوازنة متناسقة . وكان من آثار هذا الترادف ميله إلى الإطناب والإسهاب ، اللذين يغلبان على كتبه . وإن كان ذلك لم ينسهِ الإيجاز البليغ الذي يظهر في بعض رسائله كرسالته يوصى بشخص ^(٢) : « حقّ موصل كتابي إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورأى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدّق أمله » . وكان يعنى بالزواج في عباراته ، ويميل إلى السجع أحياناً ، وقد ينسى نفسه فيلتزم هذا السجع ، وخاصة في رسائله

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ١ : ٣٠٧ .

(٢) أحمد صفوت : الجرة ٢ : ٥٥٤ .

لى الثوار والخارجين على الدولة . وكان ذلك سبباً فى توافر الموسيقى فى كتابته ، كما ساعد على ذلك إكثاره من بعض الصيغ الخاصة فى الجمل المتجاوزة مثل التمييز ، والمفعول به المقدم ، واسم الفاعل ، وما إلى ذلك ، حتى انراه أحياناً يتبع نظاماً خاصاً فى فقرة من فقراته ، ويطبقه فى جميع جملة .

هذه هى خصائص عبد الحميد قد وضحت أمامنا ، فامكانه بين كتاب العربية ؟ إذا رجعنا إلى الأقدمين وجدناهم يرفعون من شأن عبد الحميد ، ويهدون إليه أعظم المدائح ، فينتونه بأنه « كان فى نهاية الفصاحة والبلاغة ^(١) » وأنه « أول من فتح أكام البلاغة ، وسهل طرقها ^(٢) » وأنه « صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أول من أطال الرسائل ، واستعمل التعميدات فى فصول الكتب ، فاستعمل الناس ذلك بعده ^(٣) » وأنه « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهل سبل البلاغة فى الترسل ^(٤) » وأنه « فتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ^(٥) » ، وغير ذلك من المدائح التى نخرج منها بأنه إمام كتاب العهد الأموى ، وأنه شق الطريق الذى سلكه الكتاب من بعده فى الكتابة .

ونحن نذهب معهم فى ذلك القول ، ولكننا نحترس فلا نغنى به أنه لم توجد كتابة فنية قبله ، بل وجدت ، ووجدت منذ أوائل العصر الأموى ، كما أبنت من قبل . أما عبد الحميد فكان القمة التى وصلت إليها الكتابة الفنية الأموية ،

(١) ابن النديم : الفهرست ١١٨ . (٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ٢ : ٢٠٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ٦ : ٨١ . (٤) ابن النديم : الفهرست ١٧٠ .

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣ : ١٣٧ .

وأخذت عندها صورتها النهائية . وعندما جاء الكتاب من بعده استمدوا
تقاليدهم الكتابية ، وقواعدهم الفنية من هذا العلم البارز الذي يمثل نفسه ،
و يمثل الكتابة العربية منذ بدء تطورها إلى ختام هذا الطور الأول . فنستطيع أن
نقول — دون خطأ — إن قواعد الكتابة الفنية ، التي أعارها عبد الحميد الكتاب
بعده ، لم تكن من ابتكاره وحده ، وإنما كانت من ابتكار من قبله ، ومن
تعبه لهذه البذور الأولى ، وإعطائها صورتها النهائية .

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is faint and illegible due to fading and the texture of the paper.

المحز الثاني
الكتابة التاريخية

الكتابة التاريخية

تعريف

التاريخ : تعريف الوقت ، والتور يخ مثله . أرخ الكتاب ليوم كذا : وقته ، والوافيه لغة . وزعم يعقوب أن الواو بدل من الهمزة ^(١) . وقد اختلف العلماء في أصل هذا اللفظ ، فذهب به بعضهم إلى العربية الخالصة ، فقال : إن التاريخ مأخوذ من لفظ الأرخ ، بمعنى ولد البقرة الصغير ، لأنه يشبه الشيء الحادث كما يحدث الولد ، فهو حَدَثٌ جديد ^(٢) . وعزاه بعضهم الآخر إلى الفارسية ، فقال : إن أصله «ماه روز» بمعنى «يوم الشهر» فعر بوها ، فقالوا «مورخ» وجعلوا المصدر منها «التاريخ» ^(٣) . وهو اشتقاق بعيد ، لا يظهر فيه تقارب بين اللفظين العربي والفارسي .

ويتصل هذا القول - دون شك - بالخبر القائل بأن المسلمين تأثروا بالفرس في أخذهم تاريخ الهجرة تقويمًا لهم ، إذ أشار الهرمزان الفارسي على عمر بن الخطاب بذلك ^(٤) . ولسكننا نرجح الرأي القائل بعربية الكلمة ، وإن كنا لا نشاركهم في أنها مأخوذة من الأرخ ، وإنما هي كلمة عربية قديمة مشتركة في اللغات السامية ، تلوح القرابة بينها وبين كلمتي «يرح» التي معناها «القمر» و «الشهر» في العبرية ^(٥) . ومن المعوف أن الساميين كانوا

(١) لسان العرب ، مادة «أرخ» . (٢) المصدر السابق .

(٣) البيروني : الآثار الباقية ٢٩ ، والخوازمي : مفاتيح العلوم ٧٩ .

(٤) نفس المرجعين . (٥) جب : دائر المعارف الإسلامية مادة «تاريخ» .

تحددون مشهورهم بالقمر لا بالشمس ، ولذلك كانوا يبنون تاريخهم على الليالى دون الأيام ، كما هو الحال فى التقويم الهجرى الآن . وعلى هذا رأى ترى أن معنى كلمة « التاريخ » فى مبدأ أمرها كان « تحديد الشهر » ، ثم اتسع فصار التوقيت العام أى تحديد عهد أى حادث من الحوادث . ولا زالت اللغة فى تطورها حتى شمل هذا اللفظ رواية الحادث نفسه من جهة ، وتحديد من جهة أخرى ، وكانت هذه الخطوة الأخيرة فى سبيل بزوغ كلمة التاريخ بالمعنى الاصطلاحي المعروف .

وأطلق لفظ التاريخ فى عهده الأخير على عدة معان متقاربة . فهو بمعنى التاريخ العام ، أى تسجيل أهم الحوادث كما يظهر فى تاريخ الطبرى قبل الإسلام والكتب الأخرى ؛ وهو بمعنى الحوليات ، أى تدوين الحوادث عاما فعاما مثل تاريخ الطبرى بعد الإسلام وتاريخ ابن الأثير وغيرهما ؛ وهو بمعنى تدوين الأخبار مرتبة بحسب العصور ، مثل سيرة معاوية وبنى أمية لعوانة ابن الحكم ؛ وهو بمعنى التراجم ، كما نرى فى كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » لابن القفطى ومعجم ابن خلكان وغيرهما . وأطلق أيضا على مصنفات تختلف عن المصنفات التاريخية اختلافا كبيرا ، مثل « تاريخ الهند » للبيرونى ، إذ هو أقرب إلى مصنفات البحوث العقلية منه إلى المصنفات التاريخية . ويعنى إلى جانب كل هذه المعانى ، المعنى القومى الأول ، أعنى تحديد بداية الأخبار الخاصة بعصر من العصور ، أو حساب الأزمان وحصرها ، أو تحديد زمن وقوع الحوادث تحديدا دقيقا .

الفصل الأول

ظهور الكتابة التاريخية

العصر الجاهلي

تسكنا - قبل - عن العصر الجاهلي ، وما عرف فيه من كتابة . ولكننا إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية ، لم نكد نظفر بشيء ، حتى البلدان المتحضرة التي كنا نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها ورقيا ، مثل اليمن والحيرة وغان ، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضا ، وكان تاريخها نسيا منسيا لدى العرب ، سكانها أو غير سكانها ، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عند ما أرادوا الكتابة عنها بعد ظهور الإسلام ، وحلق بهم الخيال في الأجواء ، حتى ما نستطيع أن نركن إلى حقيقة مما يقولون . على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على الآثار الباقية في اليمن وشمال بلاد الحجاز وجنوب الشام ، مما يدل على جهل المؤرخين العرب بالخط الحيري والخطوط الأخرى في بلاد العرب القديمة . والشيء الوحيد الذي نسمع عنه هو تلك المدونات التاريخية المودعة في أديار الحيرة وكنائسها والتي اطلع عليها السكبي فيما بعد ، وإن كنا لا نعرف عنها شيئا فيما عدا ذلك ^(١) .

ولا يمكننا الركون كثيراً إلى الوثائق التي تروى في كتب التاريخ الإسلامية

عن هذا العصر ، وإنما نقابلها بالشك الشديد ، الذي تثبته فينا ظروف هذه الوثائق ومثلها الواضح تلك الوثيقة التي يذكرها أبو حنيفة الدينوري في تاريخه أن عمر ابن إبراهيم من ولد أبرهة بن الصباح آخر ملوك اليمن أرسلها إلى السكرماني حسب طلب الأخير^(١) . وكانت هذه الوثيقة عبارة عن حلف عقد بين بيعة واليمن أمام تبع بن ملسكيكرب . وعبارة الوثيقة مسجوعة ، وفيها عدة إشارات إلى ضروب النسك الوثني ، وإن كانت تبدأ بعبارة إسلامية تقول : « بسم الله العلي الأعظم ، المجد المنعم » ، وتنتهي بذكر الله وشهادته على الخلف كما كان يفعل المسلمون ، إذ تقول : « وشهد الله الأجل ، الذي ما شاء فعل » . ولا شك أن المرء حين يقع نظره على الرسالة يغمره الشك فيها من جميع الأنحاء .

الأيام

ولكن العرب — على الرغم من كل ذلك — عرفت نوعاً من التاريخ الشفهي ، فقد كانت القبائل تروى أيامها : حروبها وانتصاراتها ، لتفخر بها على القبائل الأخرى ، سواء كانت ذلك شعراً خالصاً أو نثراً تتخلله الأشعار . ولم تكن الصلة واحدة دوماً بين الشعر والنثر في الأخبار ، فأحياناً يكون النثر مرفوعاً للقصيدة ، وأحياناً يكون الشعر مرتجلاً على لسان أحد أبطال الخبر دون أن تربطه صلة بالخبر المنشور . وكان الشعر في كلتا الحالتين هو الذي يحافظ على تناقل الخبر وانتشاره فلما نسيت هذه الأشعار نسيت الروايات القديمة ، وابتسرت أشعار جديدة للتنويه بآثر القبيلة من أفعال مجيدة . وعلى الرغم من كل ذلك فإننا

(٢) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري : الأخبار الطوال ٣٥٢ .

نستطيع أن نطمئن إليها بعض الاطمئنان ، إذ لا بد أنها تقوم على أساس واقعي ، وإن اصطفت بالتحيز والمغالاة .

الأُنساب

وكانت كل قبيلة تحفظ نسبها ، وتحفظه أبناءها ، لتظل نقية بعيدة عن الشوائب ولتستطيع أن تفخر به على القبائل الأخرى . وسيكون لهذا الفرع من التاريخ مكانته بعد الإسلام .

وهكذا وجدت هذه القصص التاريخية المصبوغة بالخرافات والأساطير لدى القبائل ، وكانت كل قبيلة تعني بما تعتبره تاريخها ، وترويها لأجيالها القادمة . ولكن عرب الشمال لم يصلوا بعد إلى تاريخ عام لهم ، يشمل كل قبائلهم ، إذ لم يكونوا قد أدركوا معنى الوطن ، ولم تسكن وحدتهم الظروف في أمة واحدة .

تاريخ الأمم المجاورة

وعرف العرب تاريخ من جاورهم من الأمم ، مثل الفُرس والرومان ، حتى يقال إن النضر بن الحارث كان ينافس الرسول ، ويدل عليه بمعارفه عن الفرس . ولكن ذلك التاريخ كان قصصا وخرافات ، لا تختلف عما عند عرب الجنوب والشمال في أغلب الظن .

ظهور الإسلام

لما جاء الإسلام انتشرت في المملكة الإسلامية في هذا العهد حركة تاريخية أخذت تتسع وتنظم شيئا فشيئا ، حتى خلفت لنا ثروة أدبية من أغنى ثروات الأدب العربي ، وكانت أهم العوامل التي بعثت تلك الحركة هي :

(١) احتاج المسلمون في تفسير الآيات القرآنية إلى معرفة مناسباتها ، أعنى سبب نزولها ، والموضع الذي نزلت فيه ، والحادثة التي تشير إليها ، وما إلى ذلك مما يسمى ما حول النص . ومن الواضح أن معرفة هذه الأشياء تحتاج إلى بحث تاريخي في حوادث الإسلام ، وهكذا كانت التفسير من العوامل التي دعت إلى الكتابة التاريخية .

وقد أكثر القرآن أيضاً من الإشارات إلى الأمم والقبائل والأنبياء في قصصه عن الغابرين فرغب علماء المسلمين في فهم هذه الإشارات وتوضيحها . وكان الإسلام قد أظلم كثيراً من اليهود والنصارى ، فلجأ إليهم المسلمون ليعرفوهم بتلك الإشارات ، فأخذ هؤلاء يحدثونهم بقصص التوراة والإنجيل وشروحهما ، فربطها المسلمون بالتفسير والتاريخ ، واشتهرت هذه الأخبار في العلمين باسم « لاسرائيليات » . ويتمثل لنا ذلك في كتب الأخبار (المتوفى عام ٣٤٤ هـ) ووهب بن منبه (المتوفى عام ١١٠ هـ) . ولا تزال آثارها في كتب التاريخ والتفسير التي وصلت إلينا .

(٢) كان الحديث أيضاً من عوامل ظهور الكتابة التاريخية ، إذ عني المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن ، ويستنبطوا منها أحكام الدين . وكان من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة النبي والصحابة ، فجمعت فيما جمع ، وكانت أساس كتب السيرة والمغازي فيما بعد .

(٣) شعر بعض الخلفاء أنهم محتاجون إلى نبراس يهتدون بهديه في سلوكهم ، إذ لم يكن لهم تراث عربي يقتدون به ، كما أنهم رأوا ممالك أجنبية بهرتهم حضارتها ، فأحبوا أن يعرفوا كيفية سياستها ونظامها . فقد كثرت المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، حتى هدمت نظام الخلافة ، وأقامت نظام الملك وواجه العقل العربي ، الذي كان ساذجاً في جاهليته ، مشكلات حقيقية ، منها

ما يمس الدين والحضارة ، ومنها ما يمس الحياة للمادية والاجتماعية ، فرأى الآبد من الاستعانة بأخبار من سبقه من العقول ليستنير بها . روى المسعودي ^(١) عن معاوية أنه كان بعد أن يفرغ من عمله « يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتهما ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة... ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكائد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقرائها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات » .

(٤) كان الأجانب الذين أظلمهم الإسلام يفخرون على العرب بتاريخهم وحضارتهم ، ويروون لهم أفعالهم الحميدة في ماضيهم ، فاضطر العرب إلى ابتكار تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف بإزاء هذا الفخر الأجنبي ، ويظهرون لأبنائهم وغيرهم من الأمم أنهم ، وإن كانوا حديثي عهد بالحضارة ، ليسوا أقل من الأمم الأخرى مجداً ومكانة . وكان هذا من دواعي ظهور الكتابة التاريخية في الأمة اليونانية أيضاً .

(٥) كان نظام الحكومة الإسلامية ، وخاصة النظام المالي ، من العوامل التي أدت إلى قيام الحركة التاريخية وانتشارها ، لأن الضرائب على البلدان المختلفة تباين حسب فتحها صلحاً ، أو عنوة ، أو عهد ، وكانت المعاملة السياسية والاجتماعية نفسها تختلف في بعض البلدان تبعاً لما حدث في أثناء فتحها ، فدعا كل ذلك ، والنظام المالي خاصة ، إلى بحث تاريخ الفتوح ، والاهتمام بهذا الفرع من التاريخ . ودعا النظام المالي إلى نشوء فرع آخر من التاريخ ، وذلك لأن نظام العطاء

تغير منذ عهد عمر ، فصار بحسب الأسبقية إلى الإسلام ، أى أن الذين أسلموا في أول الدعوة يأخذون من العطاء أكثر مما يأخذ من أسلم بعدهم ، ومن أسلم وهاجر يأخذ أكثر من المسلم بعد الهجرة ، ومن أسلم وشهد بدرأ يأخذ أكثر ممن لم يشهدا من الذين أسلموا بعدها ، وهلم جرا . وكان هذا النظام سبباً في البحث الدقيق في الدعوة الإسلامية وانتشارها . كما كان العطاء مرتباً أيضاً حسب الأنساب ، أى يبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب ، ثم قرابة أبي بكر ، ثم عمر . . . وهكذا في الأنصار ، وفي جميع المسلمين . ومن الواضح أن هذا النظام يدعو إلى البحث في الأنساب ، وظهور هذا النوع من التاريخ ، وظهور كتب الطبقات أيضاً .

(٦) ابتداء حركة التأليف في العلوم الأخرى المعروفة بين العرب في ذلك الوقت ، حتى إننا نجد صُحَّاراً العبدى يؤلف كتاباً في الأمثال . ثم يتطور الأمر بمرور الزمن فتترجم بعض كتب الكيمياء في عهد خالد بن يزيد بن معاوية ، ويأمر عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث ، وترجمة كتاب في الطب ، ويقول بعض الرواة إن عروة بن الزبير أحرق بعض كتب ألفها في الفقه في يوم الحرّة^(١) . كل هذه الحركة التأليفية تدل على أن العقل العربي كان يعاني تحولا خطيراً ، وأنه أخذ في التمدن السريع ، والمشاركة في التدوين والتأليف .

(٧) وآخر الأمر لا ننسى استمرار ما كان في الجاهلية من عناية بالأنساب والأيام ، ازدادت في العهد الإسلامي ، لأنها تغذى الشعراء في ميدان الفخر والهجاء والنقائض التي شاعت في هذا العصر ، وكان لها المقام الأول في شعر الفحول . واتخذ هذا النوع من التاريخ لوناً جديداً أيضاً ، هو العناية بغزوات الرسول . فما كان ذلك النوع من التاريخ إلا استمراراً لما عهد عند الجاهليين ، إلا أن الإسلاميين قيدوا ، والجاهليين حفظوا ورووا .

الباب الثالث

المؤرخون وكتبهم

الكتاب الأول

اجتمعت العوامل السابقة فأشعلت الروح التاريخي في المسلمين ، فأخذوا ينظرون في هذا الفن ، باحثين منقبين ، وشرعوا يروون الأخبار التي يستطيعون الوصول إليها . ولكننا لا نلبث أن نرى هذه الأخبار الشفوية تدون في عهد معاوية ، في رسائل صغيرة تسمى كتباً . وكان هذا تحولاً خطيراً ، يبشر بما سيتلوه من تقدم ورق في الدراسة التاريخية . ولا ندري بالتحقيق ما أول كتاب ظهر في التاريخ عند العرب . ولكن يتنازع الأسبقية زياد ابن أبيه (المتوفى عام ٥٣ هـ) ودغفل النسابة البكري (المتوفى عام ٦٠ هـ) وعبد الله بن عباس (المتوفى عام ٦٨ هـ) وعبيد ابن شمرية الجزهومي (المتوفى عام ٧٠ هـ تقريباً) .

زياد ابن أبيه

أما زياد ابن أبيه فقد ألف كتاباً في مثالب العرب^(١) . ولا يدهشنا ذلك كثيراً ، إذ نعرف قصة نسب زياد ، واستلحاق معاوية إياه ، وكرهية المسلمين لذلك ، بل مسخرية بعض الشعراء من هذا الاستلحاق . ولذلك أراد أن يزود

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٩ .

نفسه وأبنائه بسلاح يخيف به المتعرضين له ، ويشعره بعدم نقصه ، بل بنقص الآخرين في هذه الناحية . ولذلك أرجح أنه كتاب في الأنساب خاصة ، وأنه ألفه بعد استلحاق معاوية إياه ، وتعبير الناس له . ويؤسفنا أن هذا الكتاب فقد ، ولم يبق لنا منه شيء ، وإن كنا نرجح أن كتب الأنساب والشعوب بين المتأخرين أخذت عنه .

دغفل النسابة

' أما كتاب دغفل النسابة فمجالس وأسما ، في بلاط الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي كان محبا للمسامرة وأحاديث من مضى . ويسمى هذا الكتاب « التظافر والتناصر » . ويروى كتاب « التحفة البهية والطرفة الشمية »^(١) المجلس الثامن عشر منه ، فيقول : « ذكر في كتاب التظافر والتناصر ، وهو مجالس دغفل النسابة البكرى عند معاوية ، وأنه سأله في الثامن عشر من مجالسه ، فقال : « من أبلغ العرب في ثنائه ؟ » فقال دغفل : « ذاك النابغة الذبياني حين دخل على الحارث ابن أبي شمر الغساني ، يطلب إليه في أسارى قومه ، فقال : « ألا انعم صبا حاياها الملك المبارك ، السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك ، وولدى فداؤك ، والعرب وقاؤك ، والعجم حماؤك ، والحكماء وزراؤك ، والعلماء جلساؤك ، والمقاول إخوانك ، والعقل شعارك ، والحلم دثارك ، والسكينة مهادك ، والوقار غشاؤك ، والبر وسادك ، والصدق رداؤك ، واليمن حذاؤك ، والسخاء ظهارتك ، والحياء بطانتك ، والعلاء غايتك ، وأكرم الأحياء أحياءك ، وأشرف الأجداد أجدادك ، وخير الآباء آباؤك ، وأفضل الأعمام أعمامك ، وأسرى الأخوال أخوالك ، وأعف النساء حلالك ... » .

ونحن إذا صدقنا هذا القول ولم نذهب مع ابن النديم الذي ينص على أنه لم يصنف شيئاً^(١)، لا نستطيع أن نأخذ هذا المجلس حقيقة لا شك فيها . فإننا نرى الكلام ملازماً للسجع ، وفيه أشياء منافية لذلك العصر ، ولم نعتد العثور عليها فيه . كما نرى فيه نزعة إسلامية تسير مع قول القائلين بالتبشير بمحمد قبل ظهوره . ونحن إذا لم نشك في هذا التسكين ، فإننا نشك في تكهن النابعة بإسلام الحارث . وإنه لم يسلم فعلاً ، وما أظن أنه كان يعد الإسلام خيراً له ، في عصره ذلك . ولكن هذا المجلس على كل حال ، يبين لنا أن كتاب « التظافر والتناصر » ، إن كان وجد على الإطلاق ، كان يعالج التاريخ الأدبي ، ويبين مقدار عنايتهم بالسمر ، وأثر هذا السمر في تجويد العبارة وتحسينها .

ابن عباس

أما ابن عباس فقد نسب إليه بعض الرواة^(٢) مدونات استقى منها من بعده من المؤرخين . ولا يذكرون أن ابن عباس جعل من هذه المدونات كتاباً خاصاً أعطاه اسماً معيناً . وهي في غالب الظن بعض مجالسه التي كان يفسر فيها القرآن ، ويتعرض لمختلف المعارف العربية ، دونها أحد تلاميذه أو أبنائه . ونحن لانستطيع أن نتكلم عنها أكثر من ذلك ، لأن ابن عباس من الذين حُمل عليهم كثير من الأخبار في كل فن .

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٩ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٢١٦ .

عبيد بن شربة

أنتجت لنا مجالس معاوية الكتاب الرابع أيضاً ، إذ أشار عمرو بن العاص على معاوية باستدعاء عبيد ، وسؤاله عن الأخبار المتقدمة ، لما رآه فيه من حب المسامرة والأخبار السالفة . فأحضره واتخذهُ سميراً له ، وأمر كتابه بتدوين أحاديثه ونسبتها إليه . فدونت تحت عنوان « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، كما يقول صاحب الفهرست ^(١) . وقد طبع الجزء الذي وجد من الكتاب في حيدرآباد باسم « أخبار عبيد بن شربة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » . ولا يزعمنا هذا الاختلاف كثيراً ، لأن عبيداً نفسه لم يدونه ، ولا عنوانه كتاب معاوية ، بل نسبوه إليه دون عنوانه ، كما يبدو . ومن ثم اختلف النساخ المختلفون في عنوانه . ولا يبعد أن يكون لهذا الاختلاف أسباب أخرى غابت عنا . ويؤكد لنا العنوان نفسه أنه من وضع أناس غير عبيد ، إذ تقول النسخة المطبوعة : « أخبار عبيد بن شربة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال ، والحمد لله على كل حال » . فتصريحه باسم عبيد ، وقوله « على الوفاء والكمال » ، يشعران بأن هذه العبارة كلهما من كتابة شخص آخر غير المؤلف .

وحين نقلب صفحة العنوان نرى الكتاب يبدأ بالبسملة والحمد ، ثم سجد روايته : « حدثنا عبيد بن شربة الجرهمي ، عن البرقي رفع الحديث أن معاوية ... » . وإذن فالكتاب من رواية البرقي ، وهو تلميذ لابن هشام . وإذن فالمستركرنسكو J. Krenkow له دعامة التي يتكى عليها ، حين يستنتج من ذلك أن جامع الكتاب

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٩ .

هو ابن هشام ، وأن القائل «عن البرقي» أحدثلامذته . ولسنا نستبعد ذلك ، ولكن نحب أن نتصفح الكتاب قبل الإدلاء برأينا .

يقدم الكاتب بين يدي الكتاب مقدمة ، يشرح فيها ولاية معاوية وخلافته وحبه للسمر ، وإشارة عمر و باستدعاء عبيد ، وكبر سنه ، وعلمه ، وسمره ، وسيطرته على قلب معاوية ، وأمر الأخير بتدوين أقواله .

ويتناول عبيد في هذا الكتاب تاريخ موطنه اليمن ، بادئا باجتماع البشر في بابل ، ثم تفرقهم شيعة ، وخروج بعض بني سام إلى اليمن . ثم يأخذ في سرد تاريخ هؤلاء اليمنيين ، معتنيا بمن أرسل إليهم من أنبياء ، وإن كان همه كله موجهاً لمحوهم وغزواتهم في بطون الأرض .

وينتهي الجزء الذي وصل إلينا بمقتل طسم وما قيل فيها من شعر . ويصرح الناسخ بأن الكتاب قد تم ، ولكنه يعني أنه كتب النسخة التي أمامه كلها بحسب ، إذ الكتاب لم يتم ، ولم تكمل أخبار عبيد ، ولم تكل أخبار طسم نفسها . ولعل مما يؤيدنا في ذلك ، أننا كنا ننتظر من كتبه معاوية إشارة إلى ما حدث لعبيد في نهاية مجالس سمره .

وأول ما يلاحظ على الكتاب أنه ليس كتاباً تاريخياً بالمعنى المصطلح عليه ، وإنما هو مجالس سمر تاريخية مدونة . ولذلك يغلب عليه ما يغلب على تلك المجالس من خصائص . فنرى الأسلوب الحوارى يشيع فيه ^(١) :

«قال معاوية : وما كان اللسان يومئذ ؟

قال عبيد : سر يافى أوله وآخره ، وهولسان أينما آدم عليه السلام ونوح وإدريس .

قال معاوية : كيف اختصت أرض بابل باجتماع الناس فيها ؟

قال عبيد : هي سرّة الأرض في فضلها ، وأراد الله ذلك بها .
ولكن الأمر الجليل الذي نحسبه لمعاوية أو لسكاتبه ، أنه كان لا يتدخل
بالأسئلة في بعض الفصول ، ولذلك تراها تجرى دون أية مقاطعة ، أو بمقاطعة لا تكاد
تذكر . ومما يتصل بهذا ويحسب للسكاتب ، أنه لم يفصل بين المجالس المختلفة ،
فاكتسب الكتاب ميزة حسنة ، وهي الاتساق وعدم التقطع ، كما نرى في مجالس
قصص ألف ليلة وليلة مثلاً . واسكننا خسرنا ميزة أخرى ، هي عدم معرفتنا القدر
الذي كان يقصه عبيد على معاوية ، والمدة التي قضاها الاثنان في سمرها . ومما يتصل
بهذا أيضاً ، أننا لا نرى أحداً من جلساء معاوية يظهر في الكتاب ، سائلاً أو مجيباً
إلا مرتين في صدر الكتاب ^(١) .

ونحن نذكر - ولا شك - تلك المجالس الأدبية التي كانت تعقد في بلاط
الأمويين ، وخاصة بلاط معاوية وعبد الملك ، وكانت من الأسباب التي طورت الأدب
والنقد الأدبي . ونذكر أيضاً عناية هذه المجالس بالشعر ؛ إذا كنا نذكر ذلك ،
فإننا لن ندهش حين نرى عبيداً يُعنى عناية شديدة بالشعر . ونرى معاوية - على
الرغم من هذه العناية الشديدة - يلمس منه الأشعار ، فيقول ^(٢) : « وسألتك
ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته » ، ويقول ^(٣) : « خذني عن لقمان
ابن عاد صاحب النور ... وما قيل في ذلك من الشعر » ، ويقول بعد أن يسرد
عبيد بعض الأخبار ^(٤) : « فهل قيل في ذلك شعر ؟ » . وكان معاوية يطلب منه
الشعر للمسامرة ، ولسبب آخر غيرها ، إذ كان يعتبر الشعر الدليل على صدق الخبر ،
يقول ^(٥) : « وأبيك ، لقد أتيت وذكرت عجباً من حديثك عن عاد ، وقد علمت

(١) ٣١٣ ، ٣١٤ ، (٢) ٣١٤ ، (٣) ٣٥٦ .

(٤) ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٣ ، وغيرها . (٥) ٣٥٢ .

أن الشعر ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها ، والحاكم بينهم في الجاهلية وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن من الشعر لحكماً » . ويقول ^(١) : « سألتك ألا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ، ولو ثلاثة أبيات » . وكثيراً ما كان يقول لعبيد بعد أن يذكر ما طلب من الشعر ^(٢) : « لقد جئت بالبرهان في حديثك » .

والشعر الذي جاء به عبید يمكن تقسيمه إلى أقسام ثلاثة : قسم ضعيف سخيف ركيك ، ليس من الشعر الحق في شيء ، وهو موضوع على من نسب إليهم ، وهو الغالب على الكتاب . ومن أمثلته ما ينسب لطسم بن لاوذ بن إرم ، حين انتقل من بابل إلى بلاد العرب ^(٣) :

إني أنا طَسمُ شبيهه سام ووالدي لاوذُ بن رام
لما رأيتُ من بني أعمامِي وإخوتي الرحيل باعتزام
قد اقتدُوا بِبِعْرَبِ الهمام كرهت بعد إخوتي مقامِي

وقسم آخر أجود من السابق ، ولكنه من الموضوعات أيضاً ، ومن أمثلته ما ينسب لتبع ^(٤) :

سيدُ كر قومي بعد موتِي وقائمي وما فعلت قومي بقَيْسِ أفاعلا
فكم من ملوكٍ قد قَتَلْنَا رِجالَهُم لوكم من نساء قد تركنا نواكلا
وكم من أسيرٍ ظل في القَيْدِ ساقه يَبِيتُ يرَاعِي غُلَّهُ والسَّلا سلا
سيدُ كر قومي نَجَدَتِي ومكارمي ويَدْخُلُ باب العز من كان جاهلا

(١) ٣١٨ . (٢) ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، وغيرها . (٣) ٣١٩ .

(٤) ٤٤٠ .

بنيت لهم مجددا مع النجم سَمَكه وصَيْرَتْهُ للعالمين معاقلا
أما القسم الثالث فأشعار تنسب إلى شعراء معروفين ، مثل العباس بن مرداس ،
وأعشى بنى وائل ، وحسان بن ثابت ، وأمّية بن أبي الصلت ، وامرئ القيس ،
وعبيد بن الأبرص . والناطقة الذيباني ^(١) . وقد وجدت أكثر هذه الأشعار في
دواوين أصحابها ، وإن كانت قد تختلف في بعض الألفاظ أو العبارات .
وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل في عداد حسنات عبيد ، إذ نراه يُعنى في
بعض الأحيان بإيراد جملة من الأشعار بعد سرده الأخبار التي يعالجها ، كما فعل
بعد تناوله أخبار عاد وثمود . وكان عبيد يشعر بأن هذا هو المنهج الأكل .
قال له معاوية ذات مرة ^(٢) : «أقيل في ذلك شعر ؟» في أثناء كلامه ، فقال : «نعم
يامعاوية ، قد قالت العرب في ذلك أشعارا ، فإن أحببت أنشدتكها ، وإن شئت
في آخر الحديث ، فإنه أصلح لحديثك» . فقال معاوية : «سمعتها في آخر الحديث
فهو أحسن» .

ومن أجل السمر أيضا عني عبيد ببعض القطع النثرية وجودها وهذبها ، حتى
لتلفت النظر من بين باقي الأخبار . وصارت شبيهة بما يسمى في الأدب الغربي
«القطع الأرجوانية» ، يعنون بذلك الفقرات التي تلقى العناية التامة ، على حين يهمل
ما حوّلها من كلام . وتظهر هذه الفقرات أوضح ظهورها في بعض الأحاديث ، التي
ينسبها عبيد لأبطال تاريخه ، وفي بعض أوصافه للأجناس . فها هي ذى جارية
من عاد تقول حين رأت ريح العقوبة ^(٣) : «الويل لعاد ، التي طفت في البلاد ،
فأكثرها فيها الفساد . أرى رياحا كأمثال الجبال ، لها لجُجُم بأيدي رجال ، كأن

(٢) ٣٣٥ .

(١) ٣٥٣ . ٣٥٤ . ٣٦٧ . ٣٩٣ . ٣٩٥ . ٤٠٥ .

(٣) ٣٣٧ .

في وجوههم شهب النار». وهذان رجل وامرأته يتخاصمان أمام عمليق في ابنيهما ، فتقول^(١) : «إني امرأة حملته تسماً ، وأرضعته سبباً ، ولم أر منه نفعا ، حتى إذا تمت أوصاله ، واستوى وصاله ، أراد أن يأخذه كرها ، ويتركني ورها » . فيقول زوجها : «أخذت المهر كاملاً ، ولم أصب منها طائلاً ، إلا وليدا جاهلاً ، فافعل ما كنت فاعلاً» .

والكاتب في هذه الفقرات لا يعرف من التجويد والزخرف غير السجع ، بل إنه لسجع ضعيف غير جميل في الغالب . ولا أدري أذلك من التعريف الذي أصاب الكتاب أم من الكاتب نفسه . أما الأسلوب الغالب على الكتاب فبسيط عادي صريح ، عاطل عن كل الحلي .

وظهرت في الكتاب خاصة أخرى تظهر في المسامرات ، تلك هي الاستطراد . فكثيراً ما يذكر عبيد عرضاً في أثناء حديثه بعض الأشياء أو الأشخاص ، فيسأله معاوية عنهم ، فيضطر إلى الخروج إليهم ، ثم يرجع إلى السياق الأصلي . وكان معاوية يشير عليه أحياناً بالرجوع إلى السياق قائلاً : «خذ في حديثك^(٢)» أو «خذ في حديثك الأول»^(٣) أو «دع هذا وخذ في حديثك الأول»^(٤) . وكان معاوية يستعجل أحياناً بعض الحوادث ، فيشير عليه عبيد بالتمهل^(٥) .

وكانت مجالس معاوية هذه استمراراً لمجالس السمر الجاهلية ، ولذلك نرى موضوعات عبيد تغلب عليها الصيغة التي كانت تغلب على تلك المجالس . فغلب على أخباره الخيال البدائي المبالغ ، بل المعرق في المبالغة ، وخرجت أخباره قصصاً وخرافات وأساطير ، عن ملوك اليمن ، لا تختلف في شيء عما كان في الجاهلية ،

(١) ٤٨٣ . (٢) ٣٣٧ ، ٣٦٥ ، ٤٠٠ ، وغيرها . (٣) ٤٠٨ .

(٤) ٤٥١ . (٥) ٤١٣ .

في غالب الظن . بل يمكننا أن نعتبر كتابه تدويناً للقصص التاريخية التي كانت شائعة في الجاهلية ، وخاصة في جنوب بلاد العرب . وهي قصص تاريخية ، لا أخبار تاريخية ، فلا نستطيع أن نخرج منها بأخبار تاريخية علمية ، وإنما ننظر بأدب شعبي خيالي . ومما يكمل صورتها ، ويقرب بينها وبين الجاهلية ، تلك الأنساب التي تشيع فيها ، حتى قلما يظهر شخص ، دون أن تورده سلسلة نسبه ، حقاً كانت أو باطلة . وإذن نحن لا نبعد كثيراً عن الصواب ، إذا عددنا كتاب عبيد مدونة تحوى الأخبار التاريخية ، معالجة كما كان يعالجها الجاهليون ، ولا يختلف عنهم إلا في اعتمادها على القرآن في قصص الأنبياء والشعوب التي تعرض لها القرآن . ولعل عبيداً كان يضيق بالأخبار التي تناولها القرآن ، لأنه لا يستطيع أن يتصرف فيها ، أو يترك خياله الحرة في تناولها ، أو يرويها كما وصلتته عن الجاهليين ، حتى ليقول لمعاوية حين سأله عن بلقيس والهدد^(١) : « قول الله أصدق ، وقد أعلمتك است بمحدث بشيء ليس في القرآن ، ولست بوصف خبراً بلغني بعد ما قال الله تبارك وتعالى » . واعتمد عبيد في القصص القرآنية على ابن عباس كثيراً ، فسكان يقول لمعاوية : « سمعت ابن عمك^(٢) » ، قاصداً عبد الله ، وكان يصرح باسمه أحياناً^(٣) .

وكتاب عبيد ذو أهمية كبيرة ، لا في تطور حركة التأليف التاريخي فحسب ، وإنما لأنه يكشف لنا النقاب عن الثقافات التي كان يعرفها العرب في الصدر الأول من الإسلام ، وربما التي كان يعرفها العرب في الجاهلية ، وخاصة في اليمن ، وأوضح مانجده الثقافة الإسرائيلية التي تظهر بارزة في الكتاب كله . يظهر هذا في الأخبار

(١) ٤٢٤ . (٢) ٣٢٧ .

(٣) ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٥ ، ٤١٥ ، وغيرها .

والأشخاص والأنساب والأسماء وغيرها ، بل نراه أحياناً يذكر اسم أحد الأشخاص ، ثم يورد اسمه في العبرية ، فأبو إبراهيم آزر واسمه تاريخ^(١) ، وعابر هو هود^(٢) . هذا هو كتاب « أخبار عبيد بن شurie » ، ملحمة من أجل الملاحم العربية النثرية التي تتناول تاريخ العرب الجنوبيين ، يلعب فيها الخيال دوراً كبيراً ، ويحلبها الشعر والقطع النثرية الأرجوانية ، والقصص الإسرائيلية المأخوذة من التوراة وأخبار الإسرائيليين ؛ ملحمة تشبه الملاحم التي ستظهر في العصور الإسلامية المتأخرة ، من أمثال ملاحم عنقرة والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة ، ولسكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها ، وفصاحتها العربية . ولعلنا لا نشط كثيراً حين نقارنها بشاهنامة الفردوسي الشعرية ، التي تتناول تاريخ الفرس منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي . ويؤسفنا كل الأسف ضياع الجزء الأخير منها .

وفي ختام الكلام عن أخبار عبيد نذكر أمراً كبير الأهمية ، ذلك هو دخول بعض العناصر العربية فيه . فهذا خبر يصدر بالإسناد التالي^(٣) : « وذكر بعض أصحاب السير عن عبيد بن شurie بأمر هود[؟] » ، قال أخبرني البخترى عن محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي عن أبي الطفيل عامر ابن وائلة السكناني عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وليس هذا بإسناد الكتاب ، والخبر ليس منه ، حتى يقال بعده : « رجع الحديث إلى عبيد ابن شurie ومعاوية » . ويعلق الناشر على هذا الخبر قائلاً : « لعل هذه العبارة كانت حاشية ، فأدمجها بعض النساخ في الأصل ، ومع ذلك فهذا عبيد بن شurie ليس له دخل في هذه القصة » . ولكنه ليس خبراً واحداً ، وإنما هي أخبار كثيرة من رواية محمد بن إسحاق وغيره ، مثل وهب بن منبه^(٤) . ونحن لانرى أن هذه

(١) ٣١٥ ، ٣١٣ (٢)

(٣) ٣٥٠ (٤) ٣٨١ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨

الأخبار حواش ، وأدخلها النساخ في الكتاب ، فإننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن الخبر الآتي ^(١) : « ذكر عبيد أن شمر يرعش بني نصبا في السغد وكتب عليه » من بلغ هذا المكان فهو مثلي ، ومن جاوزه فهو أفضل مني » ، ثم قال عبيد : « وأنا أرجو أن يظهر الله أمير المؤمنين بذلك الموضع من الأرض ، فيعلم أني قد أدبت إليه من حديثي علماً » . قال معاوية : « اللهم أرنا تصديق قول ابن شريفة ، فإنه يذكر عجباً ، وإن شاء ربي فعل ذلك » . فبلغني عن الشعبي أنه ذكر عن رجل من خيوان همدان يقال له عبد الله ، قال : « بينما نحن بالسغد مع قتيبة بن مسلم الباهلي ، وافتتح سرقند ، إذ نظر إلى حجر ملصق على الباب فيه خطوط كأنها بالعربية وليست بها ... فقرأه على مثل ما ذكره عبيد لمعاوية ، ورواه عنه من رواه » . فهذا الخبر ليس من رواية عبيد ، ولا ندرى منه من الذي يرويه عن الشعبي . ولكننا نجد الخبر نفسه في كتاب التيجان لوهب بن منبه مروياً عن ابن هشام ^(٢) : « قال أبو محمد [بن هشام] حدثني عامر بن جرم الأنصاري ، عن مكحول ، عن الشعبي ، قال : « حدثني رجل من خيوان همدان... الخ » . إذن فهذا الخبر ليس من رواية عبيد ، بل حدث بعد موته ، وهو من صلب الكتاب ، ولا يظهر عليه أنه مقحم في هذا الموضوع . وكذلك نرى بعض الأسماء والأنساب والأشعار تختلف روايتها باختلاف المواضع ، حتى أكثر الناشر من الإشارة إلى ذلك ^(٣) ، مما يجعلنا نظن أن هذه الاختلافات ترجع إلى رواة مختلفين ، لا عبيد وحده .

(١) ٤٢٩ . (٢) وهب بن منبه : التيجان ٢٣٧ .

(٣) ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، وغيرها .

وهناك أخبار أخرى منسوبة لعبيد ، ولكننا لانستطيع أن نصدق أنه يتفوه بها أمام معاوية . يقول ^(١) : « وبلغني أن أولاد بربر بن كنعان بن كوش بن حام الذين يزحفون لرجل من ولد فاطمة حتى يردوه إلى مكة ، وهو صاحب العدل في آخر الزمان ، وأصحابه يقال لهم : الغرباء » . قال له معاوية : « قلت الصواب إن شاء الله ، وإن كلامك طيب وشفاء لما في الصدور » . ولا شك أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عبید أمام معاوية . أما تعليق معاوية على كلامه فلا يحتاج إلى إنكار من أحد ، فإنه أوهى مما يحتاج إلى الإنكار .

وينسب إلى عبید أيضا أنه قال ^(٢) : « وقد ذكرناها في كتابنا هذا » . وهذه العبارة كبيرة الأهمية ، لأنها تدل على أن القائل كان يتصور هذه الأخبار كتاباً لا مجالس سمر ، مما قد نستنتج منه أن الكتاب لم يكن مجالس حقيقية ، وإنما مؤلف على نهج المجالس . لو أضفنا كل هذا إلى ما لاحظناه على العنوان والمقدمة ، نخرجنا بأن الكتاب من جمع ابن هشام ، وأنه عمل فيه ماعمل في سيرة ابن إسحاق ، أو أنه دخلته عناصر غريبة كثيرة ، بعضها مصرح بنسبتها ، وبعضها غير مصرح .

ولكن الأستاذ كرسكو يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيصرح بأن عبید بن شربة شخص خيالي لا وجود له ، وأن الكتاب من تأليف ابن هشام أو البرقي أو محمد بن إسحاق ، مكمل به المؤلف ما ينقص كتاب وهب بن منبه من أخبار . ويستدل على ذلك بتلك الأخبار التي سميناها غريبة عن الكتاب ، وبغيرها من الأدلة ، ومنها عدم ورود ذكر لعبيد في كتب الرجال . ونحن لانستطيع أن نذهب

معه إلى هذا الحد ، كما لا نستطيع أن نرفض رأيه يقيناً . فعدم ورود اسم عبيد في كتب المحدثين دليل على أنه لم يرو الحديث ، وليس بدليل على عدم وجوده . ولعل هذا الرأي غريب لأنه كان من المنتظر من رجل مثل عبيد ، عني بالتاريخ الجاهلي ، أن يعنى كذلك بالتاريخ الإسلامي ، فيؤدى ذلك بالمحدثين إلى الكلام عنه ، ولو في باب الضعفاء من المحدثين . كما أننا لو قلبنا صفحات كتاب المعمرين^(١) نجد القصة التي يروون أنها جرت بينه وبين معاوية ، تروى بأشكال مختلفة ، ولكن متقاربة ، على أنها حدثت لأفراد آخرين غيره من المعمرين . فهذه الدلائل تغرينا على السير إلى جانب الأستاذ كرنسكو . ولكن الأمر اليقيني الذي لا يخامرنا فيه شك ، أن الكتاب ، بهذه الصورة الراهنة ، ليس من تأليف عبيد ابن شريفة .

وهذه فقرة من الكتاب تبين لنا أسلوب عبيد ، قال :^(٢)

« قال معاوية : فمن ملك بعده [بعد ذى القرنين] ؟ »

قال : « ملك بعده ملكي كرب بن أسعد بن تبع الأكبر بعد أبيه . وكان رجلاً ضعيفاً ، لم يكن يقزو أحداً حتى مات ولم يبعث جيشاً . فأما أهل اليمن فبرزعمون أنه كان يتخرج من الدماء . وأما أهل الرأي والمعرفة والبصر بالأمور ، فإبهم يقولون لم يكن ذلك منه إلا عن قلة التجربة وقلة الأنفة وصغر الهمة ، لأنه لم يحدث دعوة في ملكه ، ولم يعبر عن دين ولا طريقة أحد من قبله . »

قال معاوية : « وما تعبير حال الملك ؟ »

قال عبيد : « يا أمير المؤمنين ، لم يكن يغير من شيء يفعله آباؤه ، ولا أزال

(١) أبو حاتم السجستاني : كتاب المعمرين ٧ . ٦٧ ، ٨٣ ، ٨٧ .

(٢) ٤٣٩ .

شيئا من جبروت الملك ، ولا أحدث تواضعا ولا قربا من الناس ، ولا زال عن تجربته وعنته ، وأشد أمره باليمن لا يحاوز أرض اليمن إلى غيرها ، بلد عرب أو عجم .
قال معاوية : « فكيف ملكهم يا عبيد ، وكيف استقام لهم أمرهم على تلك الحال ؟ »
قال عبيد : « لأنهم أحبوا الدعة والسكون ، وكانوا قد ملوا الغزو والحروب ، وكثرة المسير في البلدان » .

قال معاوية : « فكم ملكهم على هذا الحال ؟ »

قال : « ملكهم خمسا وثمانين سنة » .

قال معاوية : « فمن ملك بعده ؟ »

قال عبيد : « ملك ابنه تبع أسعد بن ملكي كرب » .

هذه هي الكتب التي ترجح بينها الرأي في اختيار الأول في الظهور . ثم ظهرت كتب السير والمغازي التي تتناول حياة الرسول بالدرس . وقد رأينا أن من عوامل ظهور هذه الدراسة جمع الأحاديث ، سواء ما تناول الناحية الفقهية ، وما تناول الناحية التاريخية من حياته ، بدافع من الرغبة الدينية . وكذلك كان العرب ينظرون إلى النبي نظرهم إلى بطل من الأبطال وخدمهم وهياهم لفتح الأمم ، فعنوا بتاريخه كما عنوا بتاريخ أبطالهم في الجاهلية . ولا ننسى مع ذلك أنهم أرادوا أن يضعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بإزاء موسى وعيسى اللذين فخر بهما أهل الكتاب وألغوا عنهما الكتب ، وأحاطوها بالقصص الصحيحة وغير الصحيحة . كل أولئك وغيره اجتمع فأثمر كتب المغازي والسير ، التي تعتبر بداية التأليف العلمي في التاريخ لأنها كانت تستند إلى الأحاديث التي كان يراعى فيها الدقة إلى أبعد غاية ، فأصبحت الأحاديث دقتها على التاريخ . ولذلك نشعر للوهلة الأولى بأننا نستند إلى أساس علمي وثيق ، حتى لو سلمنا في نفس الوقت بشيء من الشك في الأحاديث التي تناولت

العهد المسكي خاصة من حياة الرسول . وقد ترك هذا الارتباط بالأحداث أثرًا لا يمحى في أسلوب التأليف التاريخي ، إذ كثرت مواطن التشابه بين النوعين . وكانت المدينة موطن هذه الدراسة ، فلم يختص أحد بالتأليف في المغازي والسيرة قبل القرن الثاني من الهجرة خارجها .

أبان بن عثمان

أول من اشتهر بالتأليف في المغازي أبان بن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥ هـ أو قبله . وكان أبان من علماء الحديث والفقهاء أيضًا . يقول ابن سعد في أثناء حديثه عن المعيرة بن عبد الرحمن ^(١) : « وكان ثقة قليل الحديث ، إلا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذها من أبان بن عثمان ، فكان كثيرًا ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها » . وكان المعيرة هذا في جيش مسلمة بن عبد الملك الذي توجه لحرب الروم عام ٩٦ هـ ، واسترجعه عمر بن عبد العزيز في عام ٩٩ هـ ^(٢) . ولذلك لا يمكن المعيرة أن يأخذ المغازي إلا عن أبان بن الخليفة عثمان ، وليس عن أبان بن عثمان البجلي الشيعي ، الذي عاش بعد ذلك التاريخ بحيل أو اثنين ^(٣) .

ويبدو أن هذه المغازي التي رواها المعيرة عن أبان ليست كتابًا بالمعنى الدقيق ، وإنما هي مجموعة من المواد المتعلقة بحياة النبي . ويظهر أن هذه الأخبار ضاعت ،

(١) ابن سعد : الطبقات ٥ : ١٥٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٢ : ١٣٠٥ ، ١٣٤٦ .

(٣) هو روفقس : المغازي الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ، ص ٥ .

ولم يأخذ عنها أحد من كتاب السير المتأخرين . فلم يأخذ عنه ابن إسحاق ولا ابن سعد (الجزء المخصص للسيرة من طبقاته) . أما خبر أمر العباس وبعض بني هاشم الذي يرويّه ابن سعد ^(١) عن أبان ، عن معاوية بن عمار ، عن جعفر بن محمد (المتوفى عام ١٤٨ هـ) فإنه يتضح من الإسناد أنه لا يقصد أباننا هذا ، وإنما يقصد أبانا البجليّ الشيعي .

ولسكن ابن سعد يذكر أبان بن الخليفة عثمان خارج السيرة ، حين يورد الكلمات الأخيرة التي تفوه بها عمر بن الخطاب عند وفاته ، وقد سمعها أبان من والده ^(٢) . ويذكره ابن قتيبة أيضا في الشعر والشعراء ^(٣) ، على أنه راوى الخبر القائل بأن معاوية اشترى البردة ، التي أعطاها النبي لسكعب بن زهير ، مكافأة له عن قصيدته :

بانت سعاد ...

وأن الحكماء كانوا يلبسونها في الأعياد . وفيما عدا ذلك لا يوجد لأبان ذكر في كتب التاريخ ، وإن كانت كتب الحديث تسكّر من ذكره .

عروة بن الزبير

عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ من معاصري أبان ، الذين ألفوا في التاريخ ، ولم يقتصر عروة على الروايات الشفوية ، بل دون بعض الأحداث التي طلبها منه عبد الملك بن مروان ، أو ابن أبي هنيّدة ، الذي كان في بلاط الوليد ، في رسائل بعثها إليهما . وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل في صفحات ابن إسحاق ، والواقدي ، والطبري .

(١) ابن سعد : الطبقات ٤ : ٢٩ . (٢) ابن سعد : الطبقات ٣ : ٢٦٢ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٠٦ .

تتناول رسالة عمروة الأولى إلى عبد الملك هجرة الحبشة ^(١). وتتناول الثانية موقعة بدر ^(٢)، والثالثة تتناول فتح مكة ^(٣). وتتناول عمروة أيضاً وفاة خديجة، وهجرة النبي والصحابة إلى المدينة، وخبر زواج النبي من أخت الأشعث بن قيس. وقد روى هذه الأخبار عنه ابنه هشام. أما رسالته لابن أبي هنيذة فرواها الزهرى، وتتناول المناسبة التاريخية للآية العاشرة من السورة الستين ^(٤). وتمثل كتابات عمروة المشار إليها أقدم المدونات التي وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصة في حياة النبي، كما تمثل أقدم آثار السكتابة التاريخية العربية. ولا تذكر المراجع القديمة أى كتاب ألفه عمروة عن المغازى، ولكن حاجى خليفة يقول إنه أول من صنف في المغازى ^(٥). ولم يعن عمروة بجمع الأخبار عن جميع فترات حياة النبي فحسب، بل عنى أيضاً بحوادث الخلفاء الأولين أيضاً، فنراه يعالج وقعتى القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام ^(٦). ويعنى عمروة أيضاً بتاريخ الزبيريين، ولذلك نرى أكثر أخبار الحزب الزبيرى وحروبه وفتنه مروية عنه في السكتب التاريخية مثل الطبرى وحلية الأولياء أو السكتب الأدبية مثل الأغانى ^(٧).

وتمتاز كتابات عمروة بأنها لا تهمل الإسناد إهمالاً تاماً، كما أنها لا تعنى به عناية متشدة. فهو أحياناً لا يذكره وأحياناً يذكره ^(٨). ولذلك يكون من الخطأ

-
- (١) نفس المرجع ١ : ١١٨٠ . (٢) نفس المرجع ١٢٨٤ .
 (٣) الطبرى : تاريخ ١ : ١٦٣٤ . (٤) ابن هشام : السيرة ٣ : ٣٤٠ .
 والطبرى : التفسير ٨ : ٤٢ . (٥) كشف الظنون ٥ : ٦٤٦ .
 (٦) الطبرى : تاريخ ١ : ١١٨٥ ، ١١٩٩ ، ١٢٤٢ ، وغيرها .
 (٧) انظر فهرست الطبرى والأغانى والفصل المخصص لعبد الله بن الزبير في الحلية .
 (٨) الطبرى : تاريخ ١ : ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٥٤ ، ١١٦٧ ، وغيرها .

أن تنهم عروة بتهمة إغفال الأسانيد ، وإنما نقول إن الإسناد أصبح عادة في ذلك الوقت ، ولكنه لم يصبح بعد ضربة لازب على كل مؤلف في التاريخ . وتمتاز كتاباته أيضاً بأنها تعنى بالإشارات القرآنية إلى الحوادث الإسلامية ، فتمحاول شرحها ، كما أشرنا قبل . بل إنه يتجاوز ذلك إلى استعمال الألفاظ القرآنية في كتاباته ، لتشير إلى مدلولها القرآني ، مثل استعماله لكلمة « الفتن » في حديثه عن المهجرين الحبشية والمدنية ، متبعا الآية الأربعين من السورة الثامنة . ولا يعنى عروة بالأحاديث وحدها ، وإنما يعنى أيضاً بالوثائق المكتوبة ، مثل رسالة النبي إلى أهل هجر ، وإلى زرعة بن ذى الرزن ، وإلى عبد الله بن جحش^(١) . وعلى الرغم من فقه عروة ودينه لم يكن خصما للشعر ، بل ينفثه في الحوادث على لسان المشتركين فيها ، مثله في ذلك مثل النموذج المعروف عن التاريخ الجاهلي . ولكن يبدو أن هذا الدين كان له أثره في ناحية أخرى ، تلك هي خوفه من إبداء رأيه في الحوادث ، وإنما يتبع المأثور والحديث ، كما يقول ابنه هشام^(٢) . ولعل ذلك هو الذي جعله يروي في تاريخه بعض الأخبار التي لا نستطيع تصديقها بسهولة ، وربما كانت هذه الأخبار من أثر أجنبي ، يهودي أو حبشي أو نصراني .

وهذه إحدى رسائل عروة التي أرسلها إلى عبد الملك بن مروان^(٣) :

« ثنا أبان العطار قال ، ثنا هشام بن عروة ، عن عروة ، أنه كتب

إلى عبد الملك .

« أما بعد ،

« فإنك كتبت إلى في أبي سفيان ومخرجه ، تسألني كيف كان شأنه ؟ كان

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٦٩ ، ٧٩ . والطبري : تاريخ ١ : ١٢٧٣ .

(٢) ابن حجر : تهذيب ٧ : ١٨٣ . (٣) الطبري : تاريخ ١ : ١٢٨٤ .

من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريش من سبعين راكبا من قبائل قريش كلها ، كانوا تجارا بالشام ، فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارتهم . فذكروا الرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك ، فقتلت قتلى وقتل ابن الحضرمي في ناس بنخلة ، وأسيرت أسارى من قريش فيهم بعض بنى المغيرة ، وفيهم ابن كيسان مولاهم ، أصابهم عبد الله بن جحش وواقد حليف بنى عدى بن كعب في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بينهم مع عبد الله بن جحش . وكانت تلك الواقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، وأول ما أصابه بعضهم بعضا من الحرب ، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشام .

ثم إن أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومن معه من ركبان قريش مقبلين من الشام ، فسلكوا طريق الساحل . فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب أصحابه ، وحذتهم بمأثمهم من الأموال ، وبقلة عددهم . فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه ، لا يرونها إلا غنيمة لهم ، لا يظنون أن يكون كبير قتال إذا لقوهم . وهي التي أنزل الله عز وجل فيها « وتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ » فلما سمع أبو سفيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معترضون له ، بعث إلى قريش أن محمدا وأصحابه معترضون لكم ، فأجبروا تجارتكم . فلما أتى قريشا الخبر ، وفي غير أبي سفيان من بطون كعب بن لؤي كلها ، نفر لها أهل مكة . وهي نفرة بنى كعب بن لؤي ، ليس فيها من بنى عامر أحد إلا ما كان من بنى مالك بن حسل . ولم يسمع بنفرة قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ، حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم بدرا . وكان طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام ، فحفض أبو سفيان عن بدر ، ووزم طريق

الساحل ، وخاف الرصد على بدر ، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى عرس قريبا من بدر . وبعث النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام في عصابة من أصحابه إلى ماء بدر ، وليسوا يحسبون أن قريشا خرجت لهم . فبينما النبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، إذ ورد بعض روايا قريش ماء بدر ، وفيمن ورد من الروايا غلام لبني لحجاج أسود . فأخذته النف الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الزبير إلى الماء ، وأقلت بعض أصحاب العبد نحو قريش . فأقبلوا به حتى أتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في معرسه . فسألوه عن أبي سفيان وأصحابه ، لا يحسبون إلا أنه معهم . وطلق العبد يحدثهم عن قريش ومن خرج منها ، وعن رهوسهم ويصدقهم الخبر ، وهم أكره شيء إليهم الخبر الذي يخبرهم ، وإنما يطلبون حينئذ بالركب أبا سفيان وأصحابه ، والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، يركم ويسجد ويسمع ما يصنع بالعبد . فطلقوا إذا ذكر لهم أنها قريش جاءتهم ضربوه وكذبوه وقالوا : إنما تسكتنا أبا سفيان وأصحابه . فجعل العبد إذا أذقوه بالضرب ، وسألوه عن أبي سفيان وأصحابه ، وليس له بهم علم ، إنما هو من روايا قريش ، قال : « نعم هذا أبو سفيان » والركب حينئذ أسفل منهم ، كما قال الله عز وجل « إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم » حتى بلغ « أمرا كان مفعولا » . فطلقوا إذا قال لهم العبد : هذه قريش قد أتتكم ، ضربوه . وإذا قال لهم ، هذا أبو سفيان : أتركوه . فلما رأى صنيعهم النبي صلى الله عليه وسلم انصرف من صلاته ، وقد سمع الذي أخبرهم ، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والذي نفسي بيده ، إنكم لتضربونه إذا صدق ، وتتركونه إذا كذب . قالوا : فإنه يحدثنا أن قريشا قد جاءت . قال : فإنه قد صدق ، قد خرجت قريش تجير ركابها . فدعا الغلام فسأله ، فأخبره بقريش ، وقال : لا علم لي بأبي سفيان

فسأله « كم القوم؟ » فقال: « لا أدرى والله ، هم كثير عددهم » . فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « من أطعمهم أول من أمس؟ » فسمى رجلاً أطعمهم فقال: « كم جزائر نحر لهم؟ » قال: « تسع جزائر » . قال: « فن أطعمهم أمس » . فسمى رجلاً . فقال: « كم نحر لهم » . قال: « عشرين جزائر » فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « القوم ما بين التسعمائة إلى الألف » . فكان نفرة قريش يومئذ خمسين وتسعمائة . فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم فنزل الماء ، وملأ الحياض ، وصف عليها أصحابه حتى قدم عليه القوم . فلما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا ، قال: هذه مصارعكم . فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم قد سبقهم إليه ونزل عليه ، فلما طلوعوا عليه زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: هذه قريش قد جاءت بحكمتها وغرها تحادك وتسكذب رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني . فلما أقبلوا استقبلهم فحاً في وجوههم القرباب فهزمهم الله . وكانوا قبل أن يلقيهم النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبي سفيان ، والركب الذين معه: أن ارجعوا ، يأمرهم قريش بالرجعة بالجحفة ، فقالوا: والله لا نرجع حتى ننزل بدرا ، فنقيم به ثلاث ليال ، ويرانا من غشينان من أهل الحجاز . فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا . وهم الذين قال الله عز وجل « الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس » فالتقوا هم والنبي صلى الله عليه وسلم ففتح الله على رسوله ، وأخزى أئمة الكفر ، وشفى صدور المسلمين منهم » .

وإذا أحببنا أن نعرف طريقة عروة في التأليف من هذه الرسالة ، نجد معنى في سرده الغزوة بالمقدمات التي سبقتها وأدت إلى وقوعها ، ويعنى في أثناء السرد بإقامة الأدلة على صحة ما يقول من الآيات القرآنية ، ونجد به يشير إلى الأشياء التي لا يطمئن إليها ، أو يخاف أن يتحمل مسئوليتها بكلمة « زعموا » ، كما حدث في روايته عدد قريش والأقوال المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن يبدو أنه كانت تأخذه أحياناً حماسة السرد ، فينساق وراء الموضوع الرئيسي ،

ويترك بعض التفاصيل ، فيرجع إليها بعد ما ينتهي ، ويقول مثلاً : « وكانوا قبل أن يلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبي سفيان . . »
هذا ما نستطيع أن نستخلصه من هذه الرسالة ، إلى جانب تذوقنا لأسلوبه البسيط ، الذي لا يخلو من فصاحة عربية غير متكلفة ، بل عاطفة صادقة يحسها القارئ في ثنايا الوصف .

وهب بن منبه

أما وهب بن منبه المتوفى عام ١١٠ هـ فليس من المدينة ، ولكن من ذمار بجوار صنعاء عاصمة اليمن . ولا تذكره كتب السيرة القديمة على أنه أحد رواة السيرة ، ولكن حاجي خليفة^(١) يقول عنه : إنه جمع المغازي . وقد تبين صدقه ، إذا اكتشف بيكر بين مجموعة أوراق بردي شت رَيْنَهَارْدَت ، المحفوظة في هَيْدِلْبِرْج مجلداً يحتوي على قطعة من هذه المغازي . وتناول قطعة هيدلبرج تاريخ العقبة الكبرى ، واجتماع قریش في دار الندوة ، والهجرة ، وغزوة بني خزيمة ، مما يدلنا على أن وهباً تناول الفترة المسكية والمدنية من حياة الرسول . ويقول بعض من رأى هذه القطعة إن وهباً يهمل فيها الإسناد ، ويعنى بالشعر^(٢) . وحفظت حلية الأولياء لوهب قطعتين من المغازي ، تناول الأولى فتح مكة^(٣) ، والثانية وفاة النبي صلى الله عليه وسلم^(٤) . وهو يذكر الإسناد في القطعتين . وهذه

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون رقم ١٢٤٦٤ .

(٢) هوروفنس : كتب المغازي الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ،

ص ٣٤ .

(٣) الأصبهاني : الحلية ٧٩ : ٤ . (٤) نفس المرجع ٧٣ .

هي القطعة الثانية يقول فيها: « فلما كان يوم الأحد نقل في مرضه ، فأذن بلال بالأذان ثم وقف بالباب ، فنادى : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، الصلاة ، يرحمك الله » . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال ، فقالت فاطمة : « يا بلال ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم مشغول بنفسه . فدخل بلال المسجد ، فلما أسفر الصبح قال : « والله ، لا أقيمهما أو أستأذن سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فرجع وقام بالباب ونادى : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، الصلاة ، يرحمك الله » . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال ، فقال : « ادخل يا بلال ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بنفسه ، مر أبا بكر يصلي بالناس » . فخرج ويده على أم رأسه وهو يقول : « وا غوثاه بالله ، وانقطع رجائي ، وانقصام ظهري . ليتني لم تلدني أمي ، وإذا ولدتنى ليتني لم أشهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا اليوم » . ثم قال : « يا أبا بكر ، ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تصلي بالناس » . فتقدم أبو بكر رضي الله عنه للناس ، وكان رجلاً رقيقاً ، فلما نظر إلى خلو المسكن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتألم أن خرمه شيئاً عليه ، وصاح المسامون بالبكاء ... فلما كان في يوم الإثنين اشتد به الوجع ، وأوحى الله تعالى إلى ملك الموت عليه السلام ، أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة ، وارفق به في قبض روحه . فهبط ملك الموت عليه السلام فوقف بالباب شبه أعرابي ، ثم قال : « السلام عليكم ، يا أهل بيت النبوة ... » .

وهذه الفقرة طويلة مفصلة ، ولكن قارئها لا يسهل إلا أن يشك فيها الشك الشديد ، فأسألوا بها ما لا نألفه في أساليب تلك الفقرة ، وعباراتها غريبة عن الرجل العربي الذي يعيش في ذلك العصر ، وقد لعب فيها الخيال دوراً كبيراً . ولذلك

إذا صحت نسبتها لوهب ، فإننا لا نستطيع أن نطلق عليه لفظ مؤرخ ، وإنما يلائمه لفظ قصاص .

ويجب أن نذكر أن وهباً أبحه في التاريخ وجهة جديدة لم تكن بها مدرسة المدينة قبله ، تلك هي عنايته بأخبار أهل الكتاب ، وتاريخ وطنه اليمن . فالأستاذ هوروقس ينسب لوهب « كتاب المبتدأ » الذي عزاه ابن النديم لحفيده عبد النعم^(١) . ويرى أن العنوان يشير إلى مبتدأ الخلق . ولكننا لا نرى داعياً لهذا ، ونرى أنه ربما جمع عبد النعم مواد كتابه مما في كتب وهب الأخرى ، وخاصة كتابه في تاريخ اليمن ، الذي عني فيه بتاريخ الخليفة والأنبياء . ولم يعن وهب بالأنبياء وحدهم بل بالعبياد أيضاً^(٢) . ولعل الكتاب الذي ينسبه إليه حاجي خليفة عن « الأخيار^(٣) » هو نفس كتابه عن العباد .

ويعتمد وهب في جميع هذه الكتب على أخبار أهل الكتاب ، يهود ومسيحيين ، اعتماداً شديداً . وقد اشتهر بذلك حتى قيل عنه إنه قرأ ٧٠ أو ٧٢ أو ٧٣ أو ٩٢ من كتبهم المقدسة^(٤) . ولكننا لا نستطيع الاطمئنان إلى هذا القول ، وإنما نرجح أنه استقى هذه الأخبار من أهل الكتاب الذين اتصل بهم في موطنه اليمن ، الذي اشتهر منذ الجاهلية باستيطان هاتين الديانتين وتصارعهما فيه . بل بلغ الأمر بهذه الشهرة إلى حد أن نسب إلى وهب كتاب يسمى

(١) ابن النديم : الفهرست ٩٤ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ج ٧ من القسم الثاني ص ٩٧ .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ٤ : ٥١٨ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٣٩٥ . وكتاب التيجان ٢ .

«الإسرائيليات» ، كما يقول حاجي خليفة^(١) . ولكن ياقوتا يقول عنه إنه كان «كثير النقل من السكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات»^(٢) ، أى يستعمل اللفظ وصفاً لمصادر وهب ، لا عنواناً لأحد كتبه . ولذلك يرجع أن كتاب الإسرائيليات هذا عبارة عن مجموعة الأخبار التى استقاها وهب من أهل الكتاب جمعها بعض المتأخرين ، وزاد عليها حتى صارت كتاباً ، عرفه حاجي خليفة بذلك الاسم . وقد قام بتلك المحاولة ثانياً شوفان^(٣) ، واسكنها مخففة ، لأن هذه الأخبار غير كافية لتكوين كتاب ، ولأنها دخلها كثير من الالتحال حتى عارض بعضها بعضاً ، وكثر فيها الخلط والنهويش . ولا يلام وهب كل اللوم على هذا الخطأ والتعارض ، لأن الأخبار الصحيحة عنه تطابق أخبار أهل السكتب مطابقة كبيرة . وما شذ عن ذلك يرجع إلى تغيير نفس المصادر التى استقى منها وهب ، أو إلى تغيير منه لتلائم الذوق الشعبي ، أو هى من عمل المتأخرين الذين غيروا فيها لتلائم القصص الشعبي .

والأمر الثانى الذى يمتاز به وهب هو كتابة تاريخ وطنه اليمن الخراوى القديم ، فى رسالة خاصة تسمى «كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم» ، كما يقول ياقوت^(٤) . ولسوء الحظ لم يصل إلينا هذا السكتب ، وإنما وصل إلينا كتاب يسمى «كتاب التيجان فى ملوك حمير» . وهو من رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبى إدريس بن سنان عن جده

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ٥ : ٤٠ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ . (٣) النسخة المصرية من ألف ليلة وليلة ٥٧ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ .

لأمه وهب بن منبه . ولكن كل من يتصفح الكتاب يستطيع أن يرى بسهولة أنه ليس كله لوهب ، وإنما تصرف فيه ابن هشام تصرفه في سيرة ابن إسحاق ، وإن كان لا يصرح بذلك كما فعل في السيرة . ولذلك لا نستطيع أن نعرف مدى تصرفه ، غير أننا يمكننا أن نعرف الإضافات التي جلبها من روايات أخرى ، وصرح بسندها . فهو يروي أخباراً عن محمد بن إسحاق عن طريق تلميذه البكائي الذي روى السيرة ^(١) ، أو عن طريق تلميذه الآخر المسمى أبا عباد الهمداني ^(٢) ، ويروي عن أبي مخنف ^(٣) ، وعن محمد بن السائب الكلبي ^(٤) ، وعن عبيد بن شربة ^(٥) ، وعن بعض المحدثين ^(٦) ولكنه إلى جانب ذلك يروي مجموعة كبيرة من الأخبار التي لا يسندها إلى أحد ^(٧) . وهي بالطبع ترجع إلى رواة مختلفين ، قد يكون منهم وهب نفسه ^(٨) . والأمر الجدير بالملاحظة أننا نرى جل الأخبار قبل الصفحة المئة من الكتاب منسوبة إلى وهب ، ولكنها تقل شيئاً فشيئاً حتى تسكاد تنعدم بعد ذلك .

والكتاب كما قلنا يتناول تاريخ اليمن ، فيبدأ بخلق العالم ، وقصص آدم وأولاده ، حتى عهد نوح وأولاده . ثم يلتفت وهب إلى العرب من الساميين ، وإلى عرب الجنوب خاصة ، ويسرد تاريخ أقباهم وملوكهم ، ويعني بغزواتهم في أرجاء الأرض ، ويذكر هجرة عمرو بن عامر من اليمن إلى شمال بلاد العرب ، كما يذكر بعض ملوك غسان .

ولا يختلف كتاب التيجان لوهب كثيراً عن كتاب عبيد بن شربة في طريقة العرض . فهما يطلقان لحيالهما العنان في تصوير الوقائع ، ويلونان الحوادث التاريخية

(١) كتاب التيجان ١١٥، ٧٥ ، ١٢٨ ، وغيرها .

(٢) ٢٥١ (٣) ١٨٠ ، ١٢٥ (٤) ١٣٢ ، ٢١٣ ، ٢٤٠ .

(٥) ٢٠٩، ٢٦٦ (٦) ١١١ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ٢٣٧ ، وغيرها .

(٧) ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٦ ، ٢٥٥ (٨) ، وانظر جلية الأولياء ج ٤ .

بأطراف خيالية قد تخرج بها إلى حد الخيال والأسطورة ، كما يدخلان في تاريخهما الكثير من الحوادث التي لا أصل لها ، ولذلك يصدق عليهما اسم القصص التاريخية أكثر من أي نعت آخر . ونحن نعدّها امتداداً للحركة القصصية التاريخية التي كانت موجودة في الجاهلية . وأهل الذي نسخ السكتابين في نسخة واحدة رجل حكيم ، عرف منهما مواطن الشبه هذه ، التي تجعلنا لا نجد بينهما كبير فرق .

ويكشف هذا الكتاب عن بعض خصائص وهب ، فهو مثل الجاهليين مغرم بالشعر ، مكثّر من روايته . وأكثر هذا الشعر منقول سخيف ركيك . ينسب وهب إلى آدم أنه قال حين قتل هابيل ^(١) :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا	فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُغَيَّرَ قَبِيحُ
وَجَاوَرَنَا عَدُوٌّ لَيْسَ يَهْدِي	لَعَيْنٌ لَا يَمُوتُ فَأَسْتَرِيحُ
أَيَا هَابِيلُ يَا ثَمَرَ الْفَوَادِ	أَبْعَدَ الْعَيْنِ مَسْكَنُكَ الضَّرِيحُ
مَحَلٌّ تَخْلُقُ الْأَجْسَادُ فِيهِ	وَيَبْلَى عِنْدَهُ الْوَجْهَ الصَّمِيحُ
فَعَيَّنِي لَا تَحِفْ عَلَيْكَ سَحَا	وَقَلْبِي الدَّهْرَ مَحْزُونٌ قَرِيحُ

وليسكن هناك بعض أشعار جيدة . ينسب إلى عبد شمس أنه قال يوصي ابنه بابلليون ^(٢) :

أَلَا قُلْ لِبَابِلْيُونَ وَالْقَوْلُ حَكْمَةٌ	مَلَكَتْ زَمَامَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فَأُجْلُ
وَحُذِّ ابْنِي حَارِمٍ مِنَ الْأَمْرِ وَسَطَهُ	فَإِنْ صَدَفُوا يَوْمًا عَنِ الْحَقِّ فَأَقْتُلْ
وَمَنْ جَنَحُوا بِالْقَوْلِ لِلرَّفَقِ طَاعَةٌ	يُرِيدُونَ وَجْهَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فَاعْدِلْ

ولا تظهروا الرأي في الناس يَجْتَرُوا عليك به واجعله ضربة فيصل
ولا تأخذنَّ المال من غير وجهه فإنك إن تأخذته بالرفق تسهل
ويروى وهب أيضا بعض أشعار ينسبها للناطقة الديباني ، وليبد ، والأعشى ،
وامرى القيس^(١) . أما بيت الناطقة ومقطوعة ليبد فهما في ديوانيهما ، وأما مقطوعتا
الأعشى وامرى القيس فلم أجدهما في ديوانيهما المطبوعين .

وقد تأثر وهب بالقرآن أيضا في القصص التي ورد ذكرها فيه ، فيحاول أن
يتبع خطاه ، وأن يستند إلى آياته . يقول في وصفه الخلق^(٢) : « فاضطرب الماء
وهاج ، فاصطفق ، فأزبد ، فصار أرضا ، فخلق الله الحوت والبحر من ذلك الزبد
ثم رفع الله السماء وهي دخان » فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا
طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين » وخلق الملائكة ، وأوحى في كل سماء
أمرها ، أسكنهم السماوات يسبحون ويهللون ويقدمون الواحد القهار ، وخلق
الجبال في الأرض أوتادا .

وتظهر عند وهب نزعة إسلامية واضحة ، فهو يعنى بحلب آراء العلماء المختلفين
في بعض المواضع ، مثل اختلافاتهم في خلق الجنة ، وفي قتل قابيل وهابيل^(٣) .
وأسلوب وهب في كتابه بسيط صريح منطلق لا تنقله أى حلى ، ولا يقف
عند زينة ، ولكن نجد عنده القطع الأرجوانية التي تكلمنا عنها في أثناء حديثنا
عن عبيد ، تلك القطع رسائل المشتركين في الحوادث وخطبهم وشيء من حوارهم
قال وهب^(٤) : « ولما أراد الله إتمام أمره ، وإظهار العريية ، أنزل كتابا مقطعا ، وهو :
« شهد الله بالحق ، بسم الله الرحمن الرحيم ، شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة

وأولوا العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . حكم الحى القيوم أنه إذا اعتسك الزمان ، وكثر النسيان ، وحكم فى ذرية آدم الشيطان ، وغلب هذا اللسان ، فعبدت الأوثان ، وقتل الولدان : أن يبعث الله محمداً بالعدل والبيان ، يصدع بالقرآن ، وينصر الإيمان ، زمان ظهور السودان ، ، نبى لا نبى بعده ، ولم يخلف الله وعده ... »

وتذكرنا هذه القطع الأرجوانية بالشاعر الشعبي فى المقامى فى مصر ، إذ نراه يقص حكايته بأسلوب بسيط منطلق ، حتى يأتى إلى حديث أبطال قصصه وخطبهم ، ورسائلهم ، فنرى أسلوبه يرتفع ويحمل ، بل نراه يفخم من لهجته وينطق بها متمعلاً متروياً . ولا يظهر فى هذه القطع الأرجوانية من الحلى إلا السجع والازدواج وتوازن العبارات . ويبدو أن وهبا كان عارفاً باللغة وأساليبها الأدبية . يقول فى شرحه للآية « لا عاصم اليوم من أمر الله » فى أثناء كلامه عن نوح ^(١) : « والعرب تجعل فاعل فى موضع مفعول ، قال الله : « فى عيشة راضية » و« ماء دافق » أى مرضية ومدفوق » .

وأخيراً نجد فى تاريخ وهب ما وجدناه فى مواعظه من إسرائيليات تنفذ إليه وتشيع فيه ، وخاصة أن الموضوعات التى تناولها كانت تساعد على هذا الانتشار وأظهر ما تنضح هذه الإسرائيليات فى الجزء الأول من الكتاب الذى يعالج فيه المؤلف كيفية خلق العالم وآدم وأولاده حتى نوح عليه السلام وأبنائه الثلاثة . كما يشدد وضوحه أيضاً فى تناوله لقصة بلقيس وسليمان . ويبدو أن وهبا كان يحسن العبرية والسريانية ، فراه يذكر الاسم وترجمته العربية ، فقينان عبرانى تفسيره

باللسان العربي مشتري^(١)، ومهلل عبراني وتفسيره باللسان العربي ممدوح^(٢)
ومالالى سرياني وتفسيره بالعربي مسيح الله^(٣).

ويلاحظ عليه الأستاذ كرنكو وهو يصف غزوات ذى القرنين قائلا^(٤):
« هذا الشعب ينفذ إلى جابرصا ، وهذا الشعب يصل إلى هرات ومرو وسمرقند، وهذا
ينفذ إلى جاجا وبلخا وحابلجا وبارد، وأرض يأجوج ومأجوج » يلاحظ عليه
ملاحظة جديدة بالاهتمام. يقول^(٥): « هذه الأسماء كلها محرفة في الأصل ، والمراد
بجاجا مدينة جاج فيما وراء النهر ، وهي بحيمين فارسيين ، وقد عبرت العرب اسم هذه
المدينة فقالت شاش . وبلجا محرف من بلخ بالحاء ، وحابلجا لعله محرف من
جابلق . والظاهر أن هذه الأسماء كلها مأخوذة من كتاب باللغة الآرامية بحيث
في آخرها ألف . وأما بارد فلا أدري أى بلد يعنى بهذا » . فلوصدقت هذه
الملاحظة لكان وهب يحسن الآرامية ، أو يأخذ عن يحسنها .

ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل نراه يذكر بعض اللغات الأخرى مثل الحميرية
حين يقول^(٦) : « وكان يقال لحمير » العرنجج ، والعرنجج : العتيق » وحين
يقول^(٧) : « ذوشدد بلغة حميرة نقولك : ذوشطط أى ذوعطاء » ، ومثل اللغة الحامية
حين يقول^(٨) : « الشام اسم أعجمى من لغة بنى حام ، وهو طيب تفسيره بالعربي » .
قد نخرج من هذه الشواهد ونحن على ما يشبه الاطمئنان من معرفة وهب
باللغة العبرية والسريانية ، وفي نفسنا شيء من معرفته باللغة الآرامية والحميرية .
ومما يزيدنا يقينا بمعرفته اللغات غير العربية ذلك القول في كثير من المراجع بأنه
قرأ الكتب ، أو العدد الغلاني منها ، وأن تفسيره الكلمات العبرية والسريانية

(١) ٢١ . (٢) ٢١ . (٣) ٢١ . (٤) ٩٩ . (٥) هامش ٩٩ .
(٦) ٥٦ . (٧) ٧٨ . (٨) ٤٩ .

كان صحيحاً في أغلبه . وربما استمد وهب بعض معارفه مما كان شائعاً من قصص بين أهل الكتاب ، وإن لم يوجد في إنجيل أو تورا .

هذا هو وهب بن منبه في « كتاب التيجان » صورة مكبرة مهذبة من عبيد ابن شربة ، صورة أحاطت بما تركه عبيد من الأخبار ، وأكثرت من الإضافات الأجنبية عن العرب الجاهليين ، وهى إضافات أملاها الإسلام والقرآن ، وإضافات أملاها الاتصال الشديد بأهل الكتاب ، وتقبل المسلمين لمعلوماتهم ومعارفهم . وإذن فهو هو المؤرخ القصاص ، الذى تغنى بمفاخر وطنه ، وأشاد بها ملحمة نثرية بسيطة صريحة ، تلبس وشيا من الشعر والقرآن والرسائل والخطب والأحاديث الخيرة الجملة ، وقد صاغها الخيال فى إطار أدبي جذاب .

وهذه فقرة من كتاب التيجان^(١) :

« ملك الهمال بن عاد

المعروف بذي شدد ، ملك متوج

وإنه لما مات لقمان بن عاد صار الملك إلى أخيه الهمال بن عاد بن اللطاط بن السكسك بن وائل بن حمير . والهمال بن عاد هو ذو شدد ، فلما صار الملك إلى همال ذى شدد دخل إلى المغارة التى دفن فيها أخوه شداد بن عاد ، فأخرج التاج وتتوج به . وكان لقمان غيبه فى تلك المغارة ، لأنه لم يكن متوجاً ، كان متواضعاً لله . فلما ولى الهمال بن عاد أخذ الملك أخذاً شديداً ، فولى ذلك حيناً من الدهر

ثم مات . وإنما قيل له ذو شدد بلغة حمير كقولك ذو شطط بن عاد بن مناح ، أى ذو عطاء .

وينسب حاجي خليفة^(١) إلى وهب كتاباً آخر يسمى « كتاب الفتوح » .
ولسكن المؤرخين الآخرين لا يذكرون عنه شيئاً آخر .

عاصم بن عمر

رجع إلى المدينة لنجد عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري المتوفى عام ١١٩ أو ١٢٠ هـ ، وقد روى عاصم عن أبيه ، واشهر بأحاديثه عن حياة الرسول عامة ، حتى وصفه ابن قتيبة بأنه « صاحب السير والمغازي^(٢) » ، وروى عنه محمد بن إسحاق والواقدي .

وتوضح اقتباسات ابن سعد في طبقاته عناية عاصم بالفترة المسكية من حياة الرسول ، إلى جانب عنايته بالفترة المدنية . كما توضح مقتطفات الطبري أنه اهتم بتاريخ الخلفاء الراشدين ، وخاصة أخبار فتنة عثمان . ويذكر عاصم سند رواياته في غالب الأحيان ، ولكنه يهمله كثيراً أيضاً ، ويتبع غيره في رواية الأشعار على السنة المشتركة في الحوادث^(٣) . وإنما يمتاز بأنه لم يقتصر على جمع الحوادث وروايتها ، بل كان يبدي رأيه فيها ، ويعلق عليها^(٤) .
وهذا مثال من أخباره في وصف بيعة العقبة^(٥) :

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ٤ : ٣٨٧ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ٢٣٦ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢ : ٦٧ ، ٤ : ١٣ .

(٤) نفس المرجع ٢ : ٨٩ . (٥) نفس المرجع ٨٨ .

« قال ابن اسحاق ، وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة :

إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عباد ابن نضلة الأنصاري ، أخو بني سالم بن عوف : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن ؛ فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهم إليه على نهكة ^(١) الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك . فبسط يده ، فباعوه .

وأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أعناقهم .

الزهري

أشهر مؤرخي جيل التابعين هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى عام ١٢٤ هـ . وقد أمره خالد بن عبد الله القسري بكتابة السيرة له ^(٢) ، كما أمره أيضاً بكتابة كتاب عن القبائل العربية الشمالية ، ففعل ولم يتمه ^(٣) . ومن الواضح أن قرّة بن عبد الرحمن يعني الكتاب الأخير بقوله : « لم يكن للزهري

(١) نهكة الأموال : نقصها . (٢) الأصفهاني : الأغاني ١٩ : ٦٩ .

(٣) نفس المرجع ٥٩ .

كتاب إلا كتاب نسب قومه^(١) . ويبدو أن الزهري كان واسع المعرفة بالأنساب ، يقول عنه الليث^(٢) : « وإن حدث عن العرب والأنساب قلت : لا يحسن إلا هذا » . ويخبرنا الزهري نفسه أنه كتب « أسنان الخلفاء » لجده^(٣) ، وهي عبارة عن قائمة يذكر فيها تاريخ وفاة الخلفاء وأعمارهم عند الوفاة ، ومقدار ملكهم ، كما يظهر من القطعتين اللتين اقتبسهما منها الطبري . ونسب له شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي كتاباً يسمى « مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم » رواه عنه يونس بن يزيد^(٤) . ولا يصل إلينا من الزهري كتاب خاص مستقل في التاريخ ، على الرغم من كثرة ما دونه لنفسه أو الأمويين ، حتى كثرت القصص عن هذا التدوين^(٥) . ولكن بعض المتأخرين جمع الأحاديث التي اقتطعتها من مدوناته كتب الأحاديث المتأخرة في مجلد سماه « الزهريات »^(٦) .

ويبدو من الشذرات الباقية من كتابات الزهري في الطبقات خاصة أنه تناول حياة الرسول عامة ، ولم يقتصر نفسه على الغزوات الفعلية وحدها ، وقد تسربت إلى أخباره بعض الإسرائيليات ، حتى قال عنه الليث^(٧) : « وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب لقلت : لا يحسن إلا هذا » . ويُعزى إلى الزهري الفضل في أنه كان أول من قارن بين الأحاديث المختلفة المصادر في موضوع واحد ، لإدماجها في حديث واحد إجماعي ، يصدره بأسماء الرواة مجتمعين^(٨) . وكانت هذه خطوة إلى الأمام في العرض التاريخي . وكان الزهري أيضاً أول من عنى بتدوين الأنساب ،

(١) الذهبي : تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٦٨ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ٣ : ٣٦٠ . (٣) الطبري : التاريخ ٢ : ٤٢٨ ، ١٢٦٩ .

(٤) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ٨٨ .

(٥) ابن سعد : الطبقات ٢ : ١٣٥ . (٦) كتاب المغازي الأولى ومؤلفوها ٦٧ .

(٧) أبو نعيم : الحلية ٣ : ٣٦٠ . (٨) ابن هشام : السيرة ٣ : ٣٠٩ .

فأنجحه بذلك وجهة جديدة في التاريخ . وقد سار الزهري على منوال غيره من المؤلفين في ذكر الإسناد تارة ^(١) ، وحذفه أخرى ^(٢) ، وفي العناية بإدخال الشعر في أخباره ^(٣) .

وللزهرى فضل كبير على الحركة التاريخية ، إذ أنه نشر كتبه بين الجمهور ، وحض على ذلك ^(٤) . عن يونس قال الزهري : « إياك وغُلُول الكتب » . قلت : « وما غُلُولها ؟ » قال : « حبسها عن أهلها » ^(٥) . وقد افتخر بنشر العلم فقال : « ما صبر أحد على العلم صبري ، ولا نشره أحد نشرى ^(٦) » .

وهذه فقرة من كتاب « أسنان الخلفاء » تظهر لنا طريقتة فيه . قال الطبري ^(٧) : « عن هشام بن الوليد الخزومي أن الزهري كتب لجده أسنان الخلفاء ، فكان فيما كتب من ذلك :

« ومات يزيد بن معاوية وهوابن سلع وثلاثين . وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر ، في قول بعضهم ، ويقال ثمانية أشهر » .

وهذه فقرة من حياة الرسول في مكة تتناول مبعثه صلى الله عليه وسلم ^(٨) : « قال ابن إسحاق ، فذكر الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها أنها حدثته : « أن أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة ،

(١) أبو نعيم : الحلية ٣ : ٣٦٥ .

(٢) ابن هشام : السيرة ١ : ١٢ ، ٧٢ ، ٣٣٨ ، وغيرها .

(٣) ابن هشام : السيرة ٤ : ٥٩ ، ٢١٥ ، ٢٣٨ ، وغيرها .

(٤) أبو نعيم : حلية الأولياء ٣ : ٣٦٦ .

(٥) نفس المرجع . (٦) نفس المرجع .

(٧) ابن هشام : السيرة ١ : ٢٤٩ . (٨) ٢ : ٢٢٨ .

حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كغفلق الصبح » . قالت : « وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده » .

وأسلوب الزهري كما يبدو من هذه الفقرات سهل منطلق جميل بسيط .

موسى بن عتبة

ينقضى جيل الزهري ، ويظهر جيل آخر ، كله من تلاميذه . ونبدأ بموسى بن عتبة المتوفى عام ١٤١ هـ . وهو من المشهورين بمعرفة المغازي ، وألف فيها كتاباً رواه عنه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم المتوفى عام ١٥٨ هـ ^(١) . وقد ضاع هذا الكتاب إلا شذرات نحاول أن نتبين صورته منها . ويبدو أنه كان أصغر حجماً من كتب المغازي الأخرى ، لأن مالك بن أنس يقول عنه ^(٢) : « عليكم بغازي موسى بن عتبة ... فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن ، ولم يكن كما كثير غيره » . وقد أكد بعضهم لألويس شبرنجر Aloys sprenger في دمشق أنه توجد منه نسخة هناك ، ولكنه لم يستطع أن يراها ^(٣) .

ولكن وجدت في المكتبة البروسية الرسمية قطعة من هذه المغازي ، ترجمها الأستاذ ادوارد سخاو E. chasau إلى الألمانية في عام ١٩٠٤ ^(٤) . ويتضح من هذه القطعة

(١) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٣١٠ .

(٢) ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٦١ .

(٣) كتب المغازي الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ٧٠ .

(٤) سخاو : القطعة البرلينية من مغازي موسى بن عتبة ، (تقرير عن أعمال

المجمع البروسي للعلوم عام ١٩٠٤) .

أن موسى لم يتناول المغازي بالمعنى الخاص ، بل تناول الهجرة أيضاً . وقد اقتبس ابن سعد كثيراً منه عن طريق أستاذه الواقدي ^(١) ، وعن طريق ابن أخي موسى السابق ذكره ^(٢) . وتكشف لنا هذه المقتطفات أن مغازي موسى كانت تحتوي على قوائم بالمهاجرين إلى الحبشة ، وبالمشركين في بيعتي العقبة ، وبالحارثيين في بدر ^(٣) ، فتدعم قول ابن حجر بأنه كتب هذه القوائم عندما رأى شرح حبيب ابن سعد يدخل في البدرين من لم يشهد بدر ^(٤) . وكان الطبري من الذين رجعوا إليه ، فاقتبس منه أخباراً يشير أكرها إلى عهد الخلفاء الراشدين ، والأمويين ، إلى جانب عهد الرسول ^(٥) . و يروى في الأغاني خبر يدل على أن موسى بن عقبة اهتم بالأحداث الجاهلية أيضاً ^(٦) .

نرى مما سبق أن موسى بن عقبة ينفرد عن المؤلفين قبله بعنانيته الزائدة بالقوائم ، وتدوينه لتاريخ الخلفاء الراشدين ، وبعض الأمويين ، بل التاريخ الجاهلي أيضاً . ويختص بمراعاته أكثر من غيره لنظام الإسناد ^(٧) ، وإن تركه أحياناً ^(٨) . ويعنى أيضاً بالأخذ عن مدونات من سبقه ، مثل ابن عباس ^(٩) ، كما يعنى بالوثائق المكتوبة ^(١٠) . ويقتبس بعض الأشعار ^(١١) ، ويحاول ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً ^(١٢) . ويمتاز أيضاً بعنانيته بأخبار الحزب الزبيرى ، ولعل سبب ذلك

- (١) ابن سعد : الطبقات ٣ : ٢٤١ ، ٨ : ١٠ ، ١١ ، ١٧١ ، ١٩٠ ، وغيرها .
- (٢) نفس المرجع ٢ : ١ ، ٣ ، ١٠ ، وغيرها . (٣) ابن سعد : الطبقات ٢ : ٣٠ ، ١٠٣ .
- (٤) ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٦١ . (٥) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٣٨٣ .
- (٦) أبو الفرج : الأغاني ٣ : ١٦ (٧) الطبري : التاريخ ١ : ٢٥٠ ، ١٨٥ ، ١٤٠ ، ٢٠١ ، وغيرها . (٨) الطبري : التاريخ ١ : ٢٧٥٥ . (٩) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٢١٦ .
- (١٠) البلاذري : فتوح البلدان ٨٠ . (١١) ابن سعد : الطبقات ٣ : ٢٤١ ، وغيرها .
- (١٢) هو روثقس : المغازي الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ٧٣ ، ٢ .

أنه يكثر الرواية عن جده لأمه أبي حبيبة مولى الزبير بن العوام^(١) ، كما يروى عن علقمة بن وقاص الليثي الذي يبدو أنه كان في جيش الزبير وطلحة يوم الجمل^(٢) . وهذه فقرة من تاريخه تبين لنا طريقة تناوله وأسلوبه^(٣) : « موسى بن عقبة عن أبي حبيبة مولى الزبير قال : « لما قتل الناس عثمان رضى الله عنه وبايعوا علياً ، جاء على إلى الزبير ، فاستأذن عليه ، فأعلمته به ، فسل السيف ، ووضعته تحت فراشه ، ثم قال : « أذن له » . فأذنت له ، فدخل فسلم على الزبير ، وهو واقف بنحوه ، ثم خرج . فقال الزبير : « لقد دخل المرء ، ما أقصاه . قم في مقامه فانظر : هل ترى من السيف شيئاً ؟ » فعمت في مقامه ، فرأيت ذباب السيف فأخبرته ، فقال : « ذاك أعجل الرجل » . فلما خرج على سألته الناس ، فقال : « وجدت أبرّ ابن أخت وأوصله » . فظن الناس خيراً ، فقال على : « إنه بايعه » . ويظهر لنا في هذه الفقرة نظرة الحزب الزبيرى لمسألة الخلاف بين على والزبير ، أكثر مما يظهر أى شئ آخر . وهذا ما يلاحظ على موسى في أغلب أخباره ، التى يتتبع فيها أخبار الزبيريين حتى عهد عبد الملك بن مروان .

سليمان بن طرخان

تنقل الكتابة التاريخية إلى البصرة ليظهر فيها سليمان بن طرخان المتوفى عام ١٤٣ هـ . ولم تذكر المراجع القديمة التى بين أيدينا أنه ألف كتباً ، وإن كنا نرى اسمه يتكرر فى الطبرى . ولكن الأستاذ فون كريمر وجد مخطوطاً يحتوى على مغازى الواقدي التى لا تصل إلا إلى إجماع بني النضير من المدينة . ثم تكمل

(١) الطبرى : التاريخ ١ : ٣٩٨١ ، ٣٩٩٨ وغيرها .

(٢) نفس المرجع ٣١٠٣ ، ٣١٣٧ . (٣) نفس المرجع ٣٠٧٣ .

بجزء من مغازى أبي المعتمر سليمان بن طرخان التيمي المسماة « السيرة الصحيحة » كما يقول الناسخ ^(١) . وتبدأ سيرة سليمان بالكلمة الأولى في السطر ١٩ من الصفحة ٣٦٠ ، وتنتهى في الصفحة ٤٣٧ . فهى تتألف من ٧٧ صفحة من النسخة المطبوعة .

ولا نستطيع من هذا الجزء الباقي من سيرته أن نحكم : هل تناول التاريخ الجاهلى ، وتاريخ النبي في مكة ، أو اقتصر على المغازى وحدها ، وإن كان الاسم « السيرة » قد يجعلنا نميل إلى الظن بأنه تناول الفترة المسكية من حياة الرسول أيضاً . ولكن الطبرى يذكر له خبرين عن خلق آدم ^(٢) ، وعن حرق إبراهيم ^(٣) ، ثم لم يذكر له شيئاً في حياة الرسول ، وإنما يرجع إليه ثانية في عهد عثمان ، حيث روى بعض ما حدث في الفتنة . ولا ندرى لهذا سبباً : أكان الطبرى غير واثق بمغازيه ، أم لم تصل إليه ، أم لم يؤلف سليمان مغازى ، وهذه المغازى التى بين أيدينا محمولة عليه .

ويرى قارئ « سيرته » أن الأخبار موجزة مضغوطة متسقة منتظمة لانكثرت خلالها القواصل والزوائد ، كأنرى عند غيره من المؤرخين . فهو لا يذكر الأسانيد ، ولا يعنى بالروايات المتعددة ، وإنما يسير على رواية واحدة لا يتعدها . ويمتاز وصفه بالقوة والحياة ، يشعر القارئ أنه مشرف على المعركة يرى الأبطال ويشاركهم مشاعرهم وأفعالهم ، كما يشعر بأن المؤلف لا يكتفى بمجرد الأعمال وإنما يدقق فيها ويبسطها بسطاً صادقاً ، يجعلنا نستطيع أن نميز ما يدور فى خلجات المؤمنين

(١) فون كريم : مغازى الواقدي ٤٣٨ ، المقدمة ٢٣ .

(٢) الطبرى : التاريخ ١ : ٩١ . (٣) نفس المرجع ٢٦٦ .

في كل موضع من المواضع . وكثيراً ما تكون هذه الانفعالات في غير صالح المسلمين ^(١) .

ولسكننا نراه يأتي بروايات غريبة في الغزوات الكبيرة المعروفة ، تخالف ما أجمع عليه المؤرخون الآخرون . ولنذكر على سبيل المثال ذلك الدور الذي قام به نعيم بن مسعود الأشجعي في غزوة الخندق . فسلیمان يراه من الجواسيس على النبي ، على حين يراه المؤرخون الآخرون من المؤمنين الذين خدموا النبي خدمة عظيمة ، وساعد على تفريق كلمة المشركين واليهود بخداهم . وكذلك يأتي بروايات مخالفة في غزوات بني قريظة والحديبية وخيبر وموتة ووفاة الرسول . أما المؤلفون الآخرون فلا يعنون بذكر رواياته على الرغم من اهتمامهم بسرد غيرها من الروايات الكثيرة . ولا ندرى ما سبب هذا الإهمال ، إلا أن هناك ظناً يخامرنا ، وهو أن كثيراً من أخباره كان يصور المسلمين صوراً لا ترضيهم أو لا ترضى بعضهم ^(٢) . ويورد سليمان أخباراً عن العباس لا نجد لها عند غيره من المؤرخين ^(٣) . وهي كلها في جانب العباس ، مما يغري المرء بالقول إنها من وحي العباسيين . ولسكننا - بعد كل ذلك - نحسب أن تشير إلى أن سليمان بن طرخان من المشهود لهم بالعدالة والفضل ^(٤) .

ويعني سليمان بإيراد الآيات القرآنية ^(٥) ، وشرح مناسباتها التاريخية ، والاعتماد عليها ، كما يعني أيضاً بالشعر ^(٦) . ولكن هذا الشعر قليل متضائل بالنسبة لغيره من الكتاب .

(١) انظر غزوة الخندق وغيرها . (٢) انظر غزوتي الخندق وخيبر .
(٣) ٣٩٦ ، ٤٣٥ . (٤) مقدمة فون كرون . وابن حجر : تهذيب التهذيب .
(٥) ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٢ ، وغيرها . (٦) ٣٧٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، وغيرها .

وهذه المغازي لها أهمية فوق كل ذلك ، إذ أنها أقدم كتاب تاريخي يتناول حياة الرسول ، سلم من الضياع ، ووصل إلينا شبه كامل ، فيما عدا الجزء الذي وجدته بيكر من مغازي وهب . وهالك بعض الأمثلة التي تصور لنا طريقة تناوله للتاريخ . يقول في وصفه لموقعة الخندق ^(١) : « فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أتاه المشركون ، فزولوا به ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، بلغ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كل مبلغ . فحصرهم حصاراً شديداً ارتاب منه المنافقون ، وشكوا في نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وأساءوا اللفظ . فقام رجل من الأنصار يقال له مغيث بن بشير ، فقال : « أوعدنا محمد أن يفتح قصور فارس والروم واليمن ، ولا يتبرز أحدنا إلى الخلاء من رحله ؟ والله لغرور » . وتابعه على ذلك رهط من المنافقين ، فأنزل الله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » . وزعموا أن قبيلتين من الأنصار ، بنى حارثة بن الحارث وبنى سلمة ، هما أن يخلوا مراكزهم ، وقالوا : « يابني الله ، إن بيوتنا خالية ، نخاف عليها السرق » . فلم يبق قول الله تعالى : « يقولون إنا بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فراراً » . وذكر في سورة أخرى : « إذ هممت طفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . فقالوا بعد ذلك : « مانحب أن نهم بالذي هممنا به إذ كان الله ولينا » :

ويظهر أسلوب سليمان في هذه الفقرة سهلاً بسيطاً سيالاً ، حاراً صادقاً موجزاً .

وهذه فقرة مما اقتبسه الطبري من سليمان ^(٢) : « معتمر بن سليمان التيمي

قال ثمالا بن أبي قال ثنا أبو نصر عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري ، قال : « سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا ، قال : فاستقبلهم وكان في قرية له خارجة من المدينة ، أو كما قال ، فلما سمعوا به أقبلوا نحوه إلى المسكن الذي هو فيه ، قال : وكره أن يقدموا عليه المدينة أو نحوه من ذلك ، قال : فأتوه ، فقالوا له : « ادع بالمصحف » . قال : فدعا بالمصحف ، قال : فقالوا له : « افتح السابعة » قال : وكانوا يسمون سورة يونس السابعة ، قال : فقرأها حتى أتى على هذه الآية « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » . قال : قالوا له : « قف » . فقالوا له : « أرأيت ما حميت من الحمى ، الله أذن لك أم على الله تفتري ؟ » قال : فقال : « امضه ، نزلت في كذا وكذا » . قال : وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلى لإبل الصدقة ، فلما وايت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد في إبل الصدقة ، امضه ... »

ويلاحظ في هذه الفقرة ، وفي فقرة ثانية في الطبرى ^(١) نتناول تسكلة الحادثة ، الإكثار من اعتراض « قال » في السياق ، مما لا نجد مثله كثيراً عند الطبرى ، مما يجعلنا نرجح أنه من خصائص كتاب سليمان الذي أخذ عنه الطبرى . ولكن المغازى التي بين أيدينا ليس فيها هذا الاعتراض الكثير . ونحن لا نستطيع أن نعم هذا الحكم من فقرتين فحسب ، لأن الفقرات الباقية في الطبرى من القصر بحيث لا تظهر فيها هذه الظاهرة

عوانة بن الحسك

من مؤرخي العراق أيضاً أبو الحسك عوانة بن الحسك الضرير الثقة المتوفى عام ١٤٧ هـ أو ١٥٨ هـ ونسب له ابن النديم في «الفهرست»^(١) كتابين: كتاب التاريخ و«كتاب سيرة معاوية وبنى أمية». وقد شك بعض العلماء في الكتاب الأخير، ونسبه لمنجاب بن الحارث التميمي المتوفى عام ٢٣١ هـ.

وروى عبد الله بن المعتز عن الحسن بن عليل العنزي أن عوانة كان عثمانياً يضع الأخبار لبني أمية، وترجع دائرة المعارف الإسلامية ذلك الرأي^(٢). ولسكن المهيم بن عدى يروى خبراً عنه حين قتل محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة، وكيف أنه ترحم عليه وذكر فضله، مما يدل على أنه كان يظهر العثمانية تقيّة منه، وخاصة أنه في نهاية الخبر السابق يستفسر من الجالسين إذا ما كان أحد عيون الأمويين حاضراً. فإذا تحقق من عدم حضور أحد يمدح محمداً مدحاً رائعاً.

ولا تؤيد الأخبار الباقية لنا منه عند الطبري^(٣) والبلاذري^(٤) تلك التهمة، إذ لا يظهر فيها أي هوى للأمويين. وأهل الطبري والبلاذري لم يذكرا لنا تلك الأخبار التي تظهر فيها عثمانيته وأمويته. ويجب أن نحترس في هذا الرأي لأننا نجد كثيراً من التهم توجه لعوانة تريد الغرض من قدره، مثل تلك الأخبار التي

(١) الفهرست ٩١.

(٢) ياقوت: معجم الأديباء ٦ : ٩٤، ودائرة المعارف الإسلامية مادة (عوانة).

(٣) التاريخ ١ : ١٨٢٧، ٢٧٥٥، ٣٢٠٤ وغيرها.

(٤) فتوح البلدان ٦٢، ٩٤، ١٨٢، ٢٤٠، وغيرها.

تجعله لا يميز بين الشعر والقرآن^(١)، على الرغم من قولهم إنه كان عالماً بالشعر والقصاحة^(٢)، وعلى الرغم من القصة السابقة التي يمدح فيها محمد بن عبد الله بالآية «التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله» مما يدل على معرفة بالقرآن أيضاً. كل هذه التهم تدلنا على أنه كان كثير الخصوم، وإن لم نستطع معرفتهم، وسبب خصومتهم له، وإن خامرنا الظن بأن عثمان بن عفان المزعومة ربما كانت سبب هذه العداوة.

ولا نتناول المقتطفات الباقية من تاريخ عوانة شيئاً من حياة الرسول، وإنما تبدأ ببينة أبي بكر، وتصف الردة، وفتح العراق، وفتح بلدان فارس المختلفة مثل المدائن وجلولاء، وهمدان، ووقعة الجمل، وحروب علي ومعاوية، والحسين ومعاوية، وتاريخ العراق، وقتل الحسين، وثورة عبد الله بن الزبير، وتنتهي الأخبار بخروج ابن الأشعث وقتل ابن القرية^(٣).

ونرى عوانة في هذه المقتطفات لا يعنى بالأسانيد كثيراً، ويبحث عن المواد في كل مكان حتى ليأخذها من أقارب المشتركين في الحوادث. ويعنى كذلك بإيراد الأشعار.

وهذه فقرة من أخباره^(٤): «يحيى بن آدم عن عوانة بن الحسك عن جرير بن يزيد عن الشعبي قال، قال عبد الله بن مسعود: «لقد قمنا بعد رسول الله

(١) ياقوت: معجم الأدباء ٦: ٩٤. (٢) نفس المرجع ٩٥.

(٣) انظر فهرست الطبري والبلاذري.

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٩٤.

صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه ، لولا أن من الله علينا بأبى بكر : اجتمع رأينا جميعاً على ألا نقاتل على بنت نخاض وابن أبون ، وأن نأكل قري عربية ، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين . وعزم الله لأبى بكر رضى الله عنه على قتالهم ، فوالله ما رضى منهم إلا بالخطبة الخزمية أو الحرب الحلبية . فأما الخطبة الخزمية فأن أقروا بأن من قُتل منهم فى النار ، وأن ما أخذوا من أموالنا مردود علينا ، وأما الحرب الحلبية فأن يخرجوا من ديارهم .

وأسلوب عوانة منساب منطلق ، يعنى فى بعض الفقرات بالحوار ، والشعر ، وما يدور بين أبطال الحوادث .

محمد بن إسحاق

أخيراً يظهر محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥٠ هـ تقريباً ، فيؤلف كتاباً يغطى به على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين ، ويجذب أنظار المتأخرين على الدوام . ويسمى كتاب ابن إسحاق هذا « كتاب المغازى » . ولم يصل إلينا الكتاب بصورته الأصلية ، ولكن وصل إلينا قسط عظيم منه فى سيرة ابن هشام . ويقال إن مكتبة كوبرلى بالآستانة تحتوى على مخطوطة من النسخة الأصلية من الكتاب . ولكن الأستاذ هوروفتس يرى أننا إذا ما عاينا هذه المخطوطة وفحصناها فحسباً دقيقاً ، وجدناها نسخة من كتاب ابن هشام لا ابن إسحاق ^(١) .

وقيل ^(٢) إن سبب تأليفه المغازى أنه دخل ذات يوم على المنصور وبين يديه ابنه المهدي ، فقال له المنصور : أتعرف هذا يا ابن إسحاق ؟ قال :

(١) المغازى الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ٨٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة ١ : ط

« نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين » ، قال : « اذهب فصنف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا » . فصنف ابن إسحاق هذا الكتاب ، فقال له المنصور : « لقد طولته ، يا ابن إسحاق ، اذهب فاختره » . وحفظ المنصور الكتاب الكبير في خزانته .

ولكن الأستاذ فيك^(١) يرى أن ابن إسحاق لم يؤلف كتابه بأمر من الخليفة ولا في بغداد أو الحيرة ، وإنما في المدينة قبل إقامته لدى العباسيين . ويستدل على ذلك بأن رواه الذين أخذ عنهم جميعاً مدنيون ومصريون ، ولا يذكر أحداً من العراقيين . كما نجد أحد تلاميذ ابن إسحاق المدينيين يروي الكتاب ، وذلك هو إبراهيم بن سعد^(٢) المتوفى عام ١٨٤ هـ . بل نرى في الكتاب حوادث ما كان يرضى لذكرها العباسيون مثل تدوينه اشتراك العباس في بدر إلى جانب الكفار ، وأسر المسلمين له^(٣) ، ذلك الخبر الذي حذفه ابن هشام فيما بعد خوفاً من العباسيين وربما أجرى ابن إسحاق بعض التغيرات الإضافية الطفيفة في الكتاب إرضاء للخليفة ، مثل رواياته عن مناصرة العباس للإسلام ، أو اعتناقه له سرا^(٤) ، وإن كانت هذه الروايات أيضاً رواها عنه تلميذه المديني إبراهيم بن سعد ، مما يجعلنا نعتقد أنه لم يجرها في العراق للمرة الأولى .

وعلى الرغم من عدم وصول النسخة الأصلية من الكتاب إلينا ، وحذف ابن هشام أجزاء كثيرة منه ، نستطيع تكوين صورة قريبة

(١) هوروفتس : المغازي الأولى ومؤلفوها ٨٠ .

(٢) نفس المرجع . وياقوت : معجم الأدباء ٦ .

(٣) الطبري : التاريخ ١ : ١٣٤١ ، ١٣٤٤ . وابن سعد : الطبقات ٤ : ٧ .

(٤) ابن هشام : السيرة ٢ : ٣٠١ .

من السكال عنه ، بفضل المقتطفات العديدة عند الطبري والمؤرخين المتأخرين ،
والتي قد تكون محذوفة عند ابن هشام . ويساعدنا على تكوين الصورة تصريح
ابن هشام بما أجراه من تغييرات في الكتاب ، إذ يصدّره بقوله ^(١) « وأنا إن
شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله
صلى الله عليه وسلم من ولده ، وأولادهم لأصلابهم ، الأول فالأول ، من إسماعيل
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم
من ولد إسماعيل ، على هذه الجهة للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله
صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سببا لشيء من هذا
الكتاب ، ولا تفسير له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعرا
ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ،
وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته ، ومستقص
إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له ، والعلم به » . وكان ابن هشام
دقيقا في تصريحه بكل ما يفعله من زيادة أو حذف على الدوام . وفيما عدا هذه
التغييرات لا يجري أي عمل من عنده في النص الأصلي .

ويظن أن الكتاب كان في أصله مقسما إلى ثلاثة أجزاء : المبتدأ ، والمبعث ،
والمغازي . أما المبتدأ فيتناول التاريخ الجاهلي . وقد خص ابن هشام هذا الجزء
بالحذف أكثر من غيره ، ولكن الطبري حفظ جزءا كبيرا منه في تاريخه وتفسيره
وخاصة ما يتعلق بالأنبياء منه ، كما حفظ الأذرق أخبارا كثيرة تتناول تاريخ مكة
القديم ، ووعى كتاب عبيد بن شربة بعض أخباره كما ذكرنا من قبل .

(١) نفس المرجع ١ : ٤ .

وينقسم هذا الجزء إلى أربعة فصول : يتناول أولها تاريخ الرسالات السابقة على الإسلام منذ خلق العالم حتى ظهور عيسى . ويرجع ابن إسحاق في هذا الفصل إلى وهب بن منبه ، وابن عباس ، وأهل الكتاب ، بل التوراة ذاتها ، إلى جانب رجوعه إلى القرآن . ويورد فيه أخبار أهل الكتاب ، والقبائل العربية التي ذكرها القرآن مثل عاد وثمود ، بل التي لم يذكرها القرآن مثل طسم وجديس . ويتناول الفصل الثاني تاريخ اليمن في العصور الجاهلية . وسبب عنايته بهذا التاريخ وجود الإشارات العديدة في القرآن إليهم ، مثل إشارته إلى أهل الأخدود ، وأصحاب الفيل . وقد وعى ابن هشام والطبري جزءاً كبيراً من هذا الفصل . وأما الفصل الثالث فيتناول القبائل العربية وعبادة الأصنام . ويتناول الرابع أجداد النبي المباشرين وديانة أهل مكة . ولا يعنى ابن إسحاق في هذا الجزء بالأسانيد إلا نادراً ، وأغلبها في الفصل الأول .

أما المبعث فيشمل حياة النبي في مكة ، والهجرة ، وربما العام الأول من نشاطه في المدينة . ونراه في هذا الجزء يصدر الأخبار الفردية بموجز حاولها ، ويدون مجموعات كاملة من القوائم : فقاممة بمن أسلم من الصعابة بدعوة أبي بكر^(١) ، وأخرى بالمهاجرين إلى أرض الحبشة^(٢) ، وثالثة بمن عاد من أرض الحبشة لما بلغهم إسلام أهل مكة^(٣) ، وأخرى وأخرى مما يطول حصره . ويوجد في هذا الجزء وثيقة انفرد بها ابن إسحاق من بين المؤرخين الآخرين ، وهي معاهدة النبي الأولى^(٤) ، التي كتبها لينظم التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود ، بعد هجرته

(١) ابن هشام : السيرة ١ : ٢٦٧ . (٢) نفس المرجع ٣٤٤ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٣ . (٤) نفس المرجع ١٤٧ .

إلى المدينة مباشرة . ويعني ابن إسحاق في هذا الجزء بالترتيب الزمني للحوادث ، كما تزداد عنايته بالأسانيد التي يرجع معظمها إلى شيوخه المدنيين .

وأخيراً المغازي ، وهي تتناول حياة النبي في المدينة منذ أول سهم أطلق في الحرب إلى وفاته صلى الله عليه وسلم . وتتلأ الغزوات الحربية هذا الجزء ، فلا يستطيع المؤلف أن يفصل الكلام إلا عن مرض النبي الأخير ووفاته . ويسير ابن إسحاق في هذا الجزء على خطة رسمها لنفسه ولم يتجاوزها ، إذ يبدأ الخبر بملخص حاو لمحتوياته ، ثم يتبعه بخبر من جميع الأقوال التي أخذها من رواته ، وفي النهاية يكمله بما جمعه هو نفسه من المصادر المختلفة . وتكثر القوائم أيضاً ، عن حضر بدرأ من المسلمين ، ومن استشهد من المسلمين يوم بدر ، ومن قتل بيد من المشركين ، وما مائل ذلك في الغزوات المختلفة . ويلتزم ابن إسحاق هنا بإيراد الأسانيد ، وجميع رواته من المدينة ، وأهمهم الزهري وعاصم بن عمر وعبد الله بن أبي بكر ابن حزم ، الذين أمدوه بما ساعده في ترتيبه الزمني للحوادث . وقد زاد ابن إسحاق المادة التي أخذها منهم بما جمعه بنفسه من غيرهم من الرواة ، ومن أقارب المشتركين في الحوادث المؤرخة .

وقد لقيت هذه السيرة منذ ظهورها عناية كبيرة ، فرواها خمسة عشر تلميذاً لابن إسحاق كما يقول فيك^(١) . أما ابن هشام فكان يرجع إلى رواية البكائي ، وأما الطبري فكان يرجع في الغالب إلى رواية سلمة بن الفضل المتوفى عام ١٩١ هـ ، وأما ابن الأثير في «أسد الغابة» وابن حجر في «الإصابة» فكانا يرجعان إلى رواية يونس بن بكير المتوفى^(٢) عام ١٩٩ هـ . ثم كان الناس إلى اليوم يرجعون إليها في نسخة ابن هشام بعد ظهور هذه .

(١) هوروفتس : المغازي الأولى ومؤلفوها ٨٧ . (٢) نفس الموضع .

ونرى ابن إسحاق يرجع في سيرته إلى العلماء من غير المسلمين في أخباره عن الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية . ولذلك نراه يذكر بين رواته « بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول ^(١) » أو « أهل التوراة » ^(٢) أو « من يسوق الأحاديث عن الأعاجم » ^(٣) . ويعد هذا تحولا خطيرا من مدرسة المدينة التي لم تسكن تقبل مثل هذه الأخبار ، ولا مثل هؤلاء الرواة . فابن إسحاق أول من اقترب بمدرسة المدينة إلى مدرسة اليمين في قبول هذه الأخبار ، حتى إذا نراه يأخذ بعض الأخبار عن وهب بن منبه . بل يذهب ابن إسحاق إلى أبعد من ذلك ، فيعطينا فقرات من المهديين القديم والجديد مترجمة ترجمة حرفية ^(٤) .

وعنى ابن إسحاق بالرجوع إلى الوثائق والمدونات ، كما حاول أن يذكر الأسانيد ، ولكن مادته الكثيرة المتنوعة اضطرت به إلى توسيع دائرة رواته ، وقبول بعض الأحاديث غير المرضية والإخلال بنظام الأسانيد ، مما أزعج مدرسة الحديث وهالها ، فكانت له التهم ، وسحبت منه ثقتها ^(٥) .

وينفرد ابن إسحاق عن باقي المؤرخين في كثرة الأشعار التي أدخلها في كتابه كثرة أفزعت معاصريه ومن بعدهم . إذ لم يكن يتحقق من صحة الشعر بل يدخل ما يحتمل إليه دون تحقيق . ولذلك نجد عنده أشعارا منتحلة تظاهر انتحالها ، مثل تلك التي قيلت في عهد عاد وثمود ^(٦) . ولكن بعض العلماء ^(٧) اعتذر عنه بأنه اقتبس هذه الأشعار لتزيين تاريخه لا لصحتها عنده ، فهو ما كان يتمسك بأنها صحيحة

(١) الطبري : التاريخ ١ : ١٤٠ (٢) الطبري : التاريخ ١ : ١٤١٠٤١٣

(٣) ابن هشام : السيرة ١ : ٣٢٨ .

(٤) هوروفتس : المغازي الأولى ومؤلفوها ٨٩ .

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ٦٠ : ٣٩٩ . (٦) الطبري : التاريخ ١ : ٢٣٦ وما بعدها .

(٧) هوروفتس : كتب المغازي الأولى ومؤلفوها ٩١ .

لو أثبت له غير ذلك . وكل ما في الأمر أن فن الكتابة التاريخية كان اعتاد إدخال الشعر للتحلية منذ الجاهلية . كما أنه اعتذر عن نفسه بأنه ليس عالما بالشعر وأنه يدون ما يُحتمل إليه ^(١)

وكان ابن إسحاق غاية في النزاهة في تاريخه ، يدون آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة وبدون تمييز ، حتى لقد روى أشعار المشركين في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ^(٢) ، وحتى اضطر ابن هشام أن يلطف من حدة بعض عبارات هذه الأشعار أو أن يحذفها ^(٣) .

ويمتاز ابن إسحاق بأنه لم يكن أول من عرض فترات حياة الرسول بالنساق في كتابه فحسب ، بل وسع أفق هذه السيرة ، فجعلها تاريخا للرسالة الإلهية عامة ، فأدخل فيها تاريخ الأنبياء المتقدمين . ويتحلى كذلك بتلك الخصيصى التى نحلى بها أستاذة الزهرى من قبل ، وأعنى بها العناية بربط الأحاديث بموجز يربط بينها ويحوى ما تشتمل من أخبار ، والعناية بتأليف خبر عام موحد من الروايات المختلفة . وهو يطمئنا فى بعض الأحيان تعليقات على الحوادث برأيه . ويظهر ابن إسحاق فى سيرته كاتباً ساحراً ، يعرف كيف يجمع مادته بطريقة تجذب انتباه القارئ على الدوام ، ويصور لنا الشخصيات التى يصفها بحيث تبرز أمامنا كأننا نراها رأى العين . ومهما اختلفت وجهات النظر فى سيرته ، فإنها تقف فوق مستوى سام جداً ، بل تزداد قيمتها حين نعرف أنها من أقدم السكتب العربية الثرية التى وصلت إلينا .

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ٤ .

(٢) انظر شعر ابن الزهرى فى بدر وأحد فى السيرة .

(٣) ابن هشام : السيرة ٣ : ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ وغيرها .

ويبدو أن ابن إسحاق لم يكتف بتاريخه الجاهلي والنبوي ، بل أراد أن يكمل التاريخ الإسلامي أيضا ، فألف « كتاب الخلفاء »^(١) . ولكن هذا الكتاب فقد ، ولم يصل إلينا منه غير فقرات عند الطبري ، تدون حوادث وقعت في عهد الخلفاء الراشدين ، وعثمان خاصة ، بل بعض حوادث العهد الأموي أيضا^(٢) . ومع ذلك ليست هذه الفقرات كافية لأن تعطينا صورة واضحة تحكم بها على الكتاب .

وهذه فقرة من مغازيه في غزوة مؤتة^(٣) : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رَوَاحَة على الناس » .

« فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف . فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم . فلما ودع عبد الله بن رَوَاحَة مع من ودع من أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى ، فقالوا : « ما يبكيك يا بن رَوَاحَة ؟ فقال : « أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباية بكم . ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله عز وجل ، يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فلست أدري كيف لي بالصدر

(١) ابن النديم : الفهرست ٩٢ وياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٤٠١ .

(٢) الطبري : التاريخ ١ : ١٨٢٣ وما بعدها . والبلاذري : فتوح البلدان ٢٧٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٧ ، وغيرها .

(٣) ابن هشام : السيرة ٤ : ١٥ .

بعد الورود . فقال المسلمون : « صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين » .
فقال ابن رواحة :

لكنني أسألُ الرحمنَ مغفرةً	وضربةً ذاتِ فرغٍ تقذفُ الزَّبدًا
أو طعنةً بيدَي حَرَّانٍ مُجْهِزَةٍ	بحربةٍ تنفذُ الأحشاءَ والكَيْدًا
حتى يُقالَ إذا مرُّوا على جدِّتي	أُرْسِدَهُ اللهُ من غارٍ وقد رَشَدًا

الفصل الثالث

مظاهر الكتابة التاريخية

رأينا أن الكتابة التاريخية العربية نشأت من تيارين مختلفين :

(١) تيار قديم يتألف من القصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب، التي كان يرويها القصاص المتنقلون عن العرب الشماليين وأنسابهم وأيامهم ، وعن ملوك العرب الجنوبيين وفتوحاتهم . وهي قصص لحنها وسداها الخيال المبالغ ، تسكر بها الأشعار ، التي كانت في بعض الأحيان ، وخاصة في الأيام ، المحور الذي تدور عليه القصة النثرية ، حتى إنه عندما نسيت تلك الأشعار ، اندثرت تلك القصص ، فاضطر القصاص إلى استحداث أشعار جديدة وإحاطتها بقصص مبتكرة عن هذه الأيام . ولا تعتمد هذه القصص على توقيت تاريخي لحواشيها ، بل تتناول الأحداث الهامة ، والحروب خاصة ، ودور بطيها ، ودون أن ننظم البحث في المجرى التاريخي العام . ويتمثل هذا التيار الخيالي في العهد الإسلامي في عبيد بن شريفة ووهب بن منبه .

(٢) والتيار الثاني جديد استحدثه الإسلام ، وهو تيار السيرة ، الذي يتكون من أخبار علمية دقيقة مضبوطة ، متفرعة من علم الحديث ، ولذلك نالها ما ناله من نقد وتمحيص . وكانت هذه السيرة تتألف من القصص الصحيحة والخيالية التي أحاطت بشخص الرسول بسبب إجلال المسلمين له . وأخذ المؤرخون يجمعون هذه القصص ويروونها ، ويربطون بينها ، مستعينين بالآيات القرآنية .

وقد لعب التيار الأول ، وخاصة فرع الأيام منه ، دورا في هذا التيار ، وخاصة

في الفترة المدنية من حياة الرسول ، التي تمتلئ بالغزوات . ويظهر هذا الدور في طريقة تناولهم لهذه الغزوات ، فإنها تشبه طريقة تناول القصاص القدماء لأيام الجاهليين بل لعل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يمثل في السير دور البطل في قصص الأيام الجاهلية . ونذكر إلى جانب هذا كله آثارا يهودية ومسيحية ، بل آثارا فارسية ضئيلة ، وجدت أيضا في هذه السير . وتظهر هذه الآثار جميعا عند وهب بن منبه الذي تعتبر كتابته روايات تاريخية لا كتب تاريخية . ولكن تيار السيرة كان له صبغة علمية دقيقة في المدينة أكثر منها في أي موطن آخر ، لارتباط المؤرخين فيها بالأحاديث الصحيحة أكثر من المؤرخين الآخرين ، ويظهر هذا التيار العلمي الدقيق عند أبان وعروة .

وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية نشأت نشأة عربية خالصة ، لا يد فيها للفرس أو اليونان فهذه الكتابة بجميع صورها استمرار لما كان يوجد في الجاهلية أو تفرع لعلم الحديث العربي الخالص . وكان أوائل المؤرخين عربا ، سواء كانوا من الجنوب مثل عبيدو وهب ، أو من الشمال كأبان وعروة . ولكن هذه الحركة العربية مالبثت أن تأثرت بمؤثرات خارجية من أهل الكتاب والفرس ، بل صار جميع المؤرخين من الموالي في أواخر القرن الثاني من الهجرة . وإذن فالتاريخ الإسلامي يخالف كثيرا من العلوم الإسلامية الأخرى في نشأته العربية الخالصة ، ولكن لا يلبث أن يقع في أيدي الموالي مثل جميع العلوم الإسلامية الأخرى .

وأخذت هذه التيارات التاريخية المختلفة في التطور ، فنجد التاريخ القبطي الجاهلي أو الأيام والأنساب يعني بها في العراق خاصة ، ويدخلها علماء اللغة في نطاق أبحاثهم ، إذ أنها تعينهم على فهم الأشعار التي يريدون جمعها وشرحها . ويتمثل لنا جهد اللغويين في هذه الناحية في نقائض أبي عبيدة المتوفى عام ٢٠٩ هـ

التي يروى فيها أخبار الأيام ، ويطيل في ذلك . أما العناية بالأنساب فتتمثل في محمد ابن السائب الكلبي المتوفى عام ١٤٦ هـ ، وغيره من النسابين .

ونجد القصص الخرافية الشعبية تستمر في الوجود ، فيظهر عبيد بن شربة الذي يعنى بقرىخ القبائل البائدة من العرب ، وودب بن منبه الذي يعنى بتاريخ اليمن وأهل الكتاب ، ويسير على النمط الجاهلي المأثور في القصص الشعبية الخرافية المفرقة في الخيال .

وأما تاريخ السير والمغازي المولود في المدينة ، والمتفرع من علم الحديث فقد تأثر منذ بادي الأمر بذلك العلم ، فظهر الإسناد عند أول كاتبين فيه ، وهما أبان وعروة ، وإن لم يصير ضربة لازم بل كانا يتجاهلانه كثيراً . وأخذت السير والمغازي تتطور سريعاً ، فنجد الزهري يخطو بالتاريخ خطوة بارعة إلى الأمام ، إذ يحاول الربط بين الأحاديث ، بل يحاول تأليف خبر واحد من الأحاديث المختلفة بعد إدماجها ، كما يحاول ألا يجعل من التاريخ وقفاً على فئة معينة من الناس ، وإنما ينشره للجمهور كله . هذا إلى جانب عنايته بالأنساب ، وخاصة أنساب قومه . ويشرع مؤرخو المدينة في الالتفات إلى ميادين تاريخية أخرى على يد عروة وموسى بن عقبة ، إذ يمدان البحث فيشمل تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم الأمويين وكان ذلك الامتداد من تأثير السيرة أيضاً .

ويتوج هذا التطور بمحمد بن إسحاق المؤرخ الحقيقي ، الذي يمثل نهاية تطور السيرة ذات النموذج الديني عند المحدثين ، وذات النموذج الملحمي عند القصاص الشعبيين ، والذي يمد بحثه إلى آفاق بعيدة لم يرها المدنيون من قبل ، وأغنى بها تاريخ الجاهلية ، وتاريخ النبوات قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ الخلفاء بعد محمد . فمحمد بن إسحاق هو المؤرخ الذي تتمثل فيه كل التيارات التاريخية الموجودة في عصره .

وتتماز الحركة التاريخية العربية بعدة ظواهر ، نحاول أن نسجل بعضها هنا غير ما ناقشناه من قبل . وأول هذه الظواهر أن المؤرخين لم يكونوا موظفين حكوميين ، وإنما كانوا أناسا عُثموا بالتاريخ مجرد الرغبة الشخصية ، وحباً في ذلك العلم . ولذلك نجدهم يؤلفون ما يحلوهم من كتب ، وعما يحلوهم من حوادث ، دون أن تصدر إليهم الأوامر بتناول أمر من الأمور ، وترك آخر ، إلا في أحوال نادرة ، كان يهتمس الحكام فيها من المؤرخ معالجة بعض الأمور التي تلهوهم . وضمن لهم ذلك حرية الأداء ، وصدق التناول ، والنزاهة في معالجة الأحداث ، وخاصة أن أكثر هؤلاء المؤرخين كانوا رجال فقه وحديث .

وهاك مثالا يبين مقدار استقلال هؤلاء المؤرخين ، وشجاعتهم في الثبات على آرائهم ، وعلى ما يعتقدهونه صدقا . روى الشافعي عن عمه قال ^(١) : « دخل سليمان بن يسار على هشام [بن عبد الملك] فقال : « من الذي تولى كبره منهم ؟ » [يشير إلى الآية في حديث الإفك] قال : « عبد الله بن أبي بن سؤل » . فقال : « كذبت ، هو على . يا بن شهاب ، من هو ؟ » قال : « عبد الله بن أبي » . فقال : « كذبت ، هو على » . قال : « أنا أكذب ، لا أبالك ، فوالله لو ناداني مفاد من السماء : إن الله أحل الكذب ، ما كذبت . حدثني سعيد بن المسيب ، وعروة ، وعبيد الله ، وعلقمة بن وقاص ، عن عائشة : « إن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي » . قال : فلم يزل القوم يغرون به ، فقال له هشام : « ارحل ، فوالله ما ينبغي لنا أن نحمل عن مثلك » . قال : « ولم » ، أنا اغتصبتك على نفسي وأنت اغتصبتني ؟ فخل عني » . قال : « لا ، ولكنك استدنت ألف ألف » . فقال : « قد علمت ، وأبوك قبلك ، أني ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك . . . »

(١) الذهبي : تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٧٢ .

وكان هؤلاء المؤرخون علماء يدرسون تلاميذ من الشعب ، ويؤلفون كتبهم
لهؤلاء التلاميذ ، وللشعب أيضاً ، غير معتمدين على الخلفاء في الغالب ، إلا عند الشدائد .
والظاهرة الأخرى هي صحة الأخبار المروية عن الحوادث الإسلامية خاصة ،
وقد أنتم هذه الصحة من الطريقة التي عالجوا بها هذه الأخبار . فهم لم يأخذوا
إلا عن العدول الثقات ، واتبعوا في ذلك ما اتبعه علماء الحديث في تقدمهم ، فسلمت
لهم مجموعة كبيرة من الحوادث . وأنت هذه الصحة أيضاً من ابتكارهم التوثيق
السكامل ، حتى كانوا يوقتون الحوادث بالأيام والشهور والأعوام . وذلك مما
يدعو إلى التدقيق في الأخبار وصحتها . حقا ، أن هذا التوثيق بدأ ضعيفا مضطربا
ولكن الروايات المختلفة من المصادر المتباينة جعلتهم يطمثون إلى بعض التواريخ
ويستطيعون أن يتحققوا من صحتها .

ولكن هذه الروايات الكثيرة التي كانت تعتمد غالبا على الذاكرة سببت
بعض وجوه النقص والقوضى . فإن النسيان اعتري بعض هؤلاء المؤرخين ،
فجعل بعض رواياتهم يضطرب ، ويسوده الغرض . ولكن على الرغم من هذا
يجب أن نقول إن تلك الظاهرة كانت نادرة ، وكان المؤرخون يكتشفونها سريعا
بفضل الروايات الأخرى الآتية عن مصادر مخالفة للأولى .

وأدت العناية بالروايات المختلفة والأسانيد المتنوعة إلى التكرار إلى درجة
الإملال ، فالحدث الواحد يوصف عدة مرات ، دون أية زيادة أو تفصيل ، على
حسب الأسانيد المختلفة التي روتها . ولكن هذه الظاهرة — فيما يبدو — كانت
سائدة في الكتب الكبيرة وحدها . أما الرسائل الصغيرة فقد نجت من هذه
الظاهرة ، كما يبدو من سيرة سليمان بن طرخان .

وجعلهم تأثرهم بالأحاديث يصبون كل تقدم على الأسانيد دون النصوص ،

مما يستر الانتحال والاختراع . فإن الإسناد يمكن اختراعه بسهولة . وهكذا يمكن القول بدخول بعض الموضوعات في الميدان التاريخي ، وإن كانت هذه الظاهرة يجب النظر إليها على أنها ضعيفة نادرة بسبب تقدم الشديد للرجال . ولكن لم يكن هذا النقد ذا فائدة كبيرة في ميدان التاريخ القبلي والقصصى والإسرائيليات . وآخر الأمر نجد التاريخ الإسلامي بجميع صورته يسير على النمط المعروف عن الرواة الجاهليين ، من سوق القصة التاريخية ، وتقطيعها بالأشعار التي قد تشرح شيئاً من الحوادث أو تعلق عليها ، أو لاتصل بها إلا اتصالاً طفيفاً ، وكذلك يعقون بسرد الرسائل والوثائق منذ أوائل عهدهم بالتاريخ .

وإذا ما أحببنا أن نتكلم عن أسلوب الكتب عامة ، وجدناه عربياً سهلاً بسيطاً مبيناً ، ونجد تصوير الحوادث فيه وضوح وقوة وحياة ، حتى يشعر المرء بالحوادث تقع أمامه ، لولا تقطع القصة بالأشعار والتكرار .

ونختم كلامنا عن الكتابة التاريخية بذكر المدارس التاريخية ، التي ربما شعر بها القارىء من قبل . فإننا عند تدقيق النظر في تطور الحركة التاريخية نجد أن هناك ثلاث مدارس واضحة كل الوضوح .

المدرسة الأولى في الظهور هي المدرسة اليمنية التي يمثلها عبيد بن شربة ، ووهب بن منبه . وهي المدرسة التي تظهر فيها الكتابة التاريخية العربية للمرة الأولى . وهي تعنى بأخبار أهل الكتاب ، وتاريخ اليمن ، وتسرّد التاريخ قصصاً خيالية وأساطير شعبية . فهي تمثل استمرار التيار الجاهلي أصدق تمثيل ، ولذلك نستطيع أن نطلق على مؤرخيها اسم القصاص الشعبيين ، أو الأخباريين ، وعلى كتاباتهم اسم الروايات التاريخية .

والمدرسة الثانية مدرسة المدينة ، وهي تتألف من الفقهاء والمحدثين من أمثال

أبان وعروة والزهرى وهى مدرسة التاريخ العلمى الدقيق الذى يعنى بالسيرة والمغازى
ويسير على خطا علم الحديث ، ويعنى بالأسانيد . وتتطور مادة هذه المدرسة ،
فتتسع وتشمل تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين .

وأما المدرسة الثالثة والأخير فى الوجود فمدرسة العراق ، يمثلها عونان
وأبو مخنف والكلبي وغيرهم . وهذه المدرسة واسعة الصدر تعنى بكل تيارات التاريخ
الجاهلى والإسلامى . وتعطى عناية خاصة لتاريخ الخلفاء ، وكان من أثر عنايتهم تلك
أن احتل العراق المركز الأول فى هذه التواريخ . لذلك نجد تاريخ العراق وأحداثه
مفصلة مطولة لدينا ، بينما الأمصار الأخرى ، لاتقال غير الإشارات .

نجد هذه المدارس الثلاث تلتقى فتخرج لنا محمد بن إسحاق . فيتناول هذا
المؤرخ تاريخ اليمن وأهل الكتاب مثل اليمنيين ، ويتناول السيرة مثل المدنيين ،
وتاريخ الخلفاء مثل العراقيين . بل نجد عنده خصائص المدارس الثلاث ، من قصص
شعبية ، وأسانيد ، وأشعار لتحلية القصص ، ومن أخبار أهل الكتاب ، وباختصار
جميع ما فى المدارس يوجد عند محمد بن إسحاق .

خاتمة

هذه هي الكتابة العربية في نشأتها ، قد عرضتها في مراحلها المختلفة عرضاً شاملاً ، مدققاً ، يحاول أن ينفذ إلى الأعماق ، ويستكشف في الظلمات ، ما يستهدى به إلى السبيل السوى .

وقد رأينا العصر الجاهلي لا يعرف من الكتابة غير بعض المعاهدات والأحلاف وبعض العقود التجارية ، وما إلى ذلك مما يمكن تسميته بالكتابات السياسية والاقتصادية . أما الكتابة الفنية فلم يعرفها ذلك العصر ، ولم تصل إلينا منه أية شواهد كتابية فنية .

وعندما جاء الإسلام انتشرت الكتابة انتشاراً كبيراً ، وظهرت الرسائل المتبادلة بين النبي والرؤساء ، وبين الخلفاء والولاة ، بل ظهرت أنواع كثيرة من الكتابات السياسية ، والكتابات الدينية ، والكتابات الإخوانية . ولكنها كانت كتابة صريحة بسيطة لا ترمي إلا إلى مجرد الأفهام ، دون محاولة للتزين أو التجميل ، وإن كانت في أواخر الصدر الأول من الإسلام ظهرت عليها بعض المظاهر التي تنبئ عما ينتظرها في العصر القادم من عمل وفن .

ومنذ أوائل العصر الأموي ظهر كتاب محترفون ، وظهر ديوان الرسائل . فعرفت الرسائل الفن ، وتنافس الكتاب في إظهار البراعة والفصاحة ، ليكسبوا رضى الخلفاء وعطفهم . فظهرت أماناً عدة ظواهر تدل على تطور الكتابة وترقيتها فهذا كاتب يطيل ، وذلك يكثر من الغريب ، وثالث يستعمل السجع ، ورابع ينتقى ألفاظه ويهذب صيغتها ، إلى غير ذلك .

وأخيراً تظهر حلقة من الكتاب في بلاط هشام بن عبد الملك يترجمهم سالم

مولاه ، فتأخذ من الثقافات اليونانية والفارسية ما تجعل به أفكارها وأساليبها . وتمثل هذه المدرسة بأجلى مظاهرها ، وأوضح خواصها ، في عبد الحميد الكاتب ، الذى كان يمثل أيضاً تطور الخصائص الكتابية منذ البداية إلى النهاية . فعبد الحميد إذن العلم البارز فى الصدر الأول من تاريخ الكتابة العربية الفنية ، وهو الذى اطلع على كتابات من سبقه ، وتشبع بها ، وهضمها ، وأخرجها خصائص يتحل بها وكأن لم يتحل بها أحد قبله . ولكن عبد الحميد — كما رأينا — لم يكن متبعاً لحسب ، بل كان مبتدعاً أيضاً ، مبتدعاً فى أسلوبه الذى لم يرتفع إليه أحد قبله ، ومبتدعاً فى أفكاره التى استخلصها من المصادر الثقافية المختلفة فى الشرق العربى فى ذلك العصر . فكان العلم البارز من بين سابقه ، والنار الهادى للاحقيه ، ينظر إليه كل من أراد الجمال والفصاحة فى كتابته .

وصفوة القول أن كتابة الرسائل بجميع أنواعها نشأت فى عصر مبكر ، بدافع من الظروف والعوامل التى كانت تحرك الجماعة العربية فى عصرها ذلك . فهى ثمرة الثورة التى قام بها الإسلام ، وأخضع العرب لها ، وأمدهم بأسسها التى يقيمون عليها حياتهم الجديدة . وإذن فكتابة الرسائل الفنية العربية كانت ظاهرة حتمية لم يتجنبها العرب ، وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها ، بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة ، التى ذهبت بنظمهم الجاهلية السياسية أدراج الرياح ، وأقامت نظاماً أخرى سامية الذرى ، شاحخة البنيان . فالعرب ما كانوا يستطيعون بعد انتشار الإسلام أن يرجعوا إلى جزيئتهم ، وأن يرجعوا إلى نظمهم القبلية فى الحياة الاجتماعية والسياسية . وكذلك ما كانوا قادرين على الرجوع إلى الشعر والخطابة وحدهما فى حياتهم الأدبية . وإذن نعود إلى القول بأن الكتابة الفنية العربية وليدة الثورة التى قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير ، وحولت

أنظار العالم القرون الطوال إلى تلك الأصقاع الإسلامية ، التي سترى من الحضارة والرقى ما لم يره كثير من شعوب العالم المتمدين .

ونحن نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية كل رفض ، فهي ليست مما أدخله الفرس أو اليونان على العرب ، وليست مما أدخله غير الفرس واليونان ، وإنما ظاهرة عربية خالصة ، لا يد في نشأتها لأحد غير العرب الذين فتح الإسلام أبصارهم وأفهامهم ، وأمدهم بالروح الذي سيبليغ بهم إلى ابتكار ما لم يعرفوا ، وإلى الاتصال بما لم يتصلوا به من قبل ، وإلى الشغف الشديد ، والحماس المفرط ، بالعلم والمعرفة . ولكن رفضنا هذا لا يشتمل إلى درجة رفض كل تأثير أجنبي ، بل نحن نقبل هذا التأثير ، ونقول بوجوده ، وربما بقوته . فهو لاء الموالى سرعان ما ينافسون العرب في هذا الميدان ، منافستهم لهم في الميادين الأخرى ، وسرعان ما يزاحمونهم على مورد الكتابة الفنية ، ولقد اغتصبوه أخيراً . فكان عبد الحميد وأستاذه بشرى للموالى بما سيكون لهم من مكانة في هذا الميدان في مستقبل الزمان .

وإذا كنا نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية ، فإننا أشد رفضاً للقول بأجنبية الكتابة التاريخية العربية . فقد ظهرت هذه الكتابة من العناية بالأحاديث الشريفة وجمعها . فعمل التاريخ العربي الإسلامي وليد علم الحديث الإسلامي العربي المحض .

أما ما كان في الجاهلية فأقاصيص خرافية وأساطير شعبية عن الأيام والملوك العرب والفرس ، وربما الرومان . أما نشأة كتابة التاريخ المنظمة الدقيقة فكانت على يد العرب من المسلمين بدافع من العناية بجمع الأحاديث . وكانت هذه الكتابة سريعة التطور ، من مجرد جمع لأحاديث دون رابط بينها ، إلى تدوين لتاريخ الأنبياء ، وتاريخ العرب الجاهليين والإسلاميين على يد ابن إسحاق ، في مدى قرن من الزمان تقريباً .

وقد رأينا عند العرب ثلاث مدارس تاريخية ، كلها عربية النشأة ، وكلها يستمد
تقاليده مما كان شائعاً عند العرب في الجاهلية ، وما استحدثه الإسلام . وقد نقول
إن الموالى زاحموا العرب في هذه الكتابة أيضا ، ولكننا نقول ذلك على أنهم
تناولوا هذه الكتابة بعد أن أعطاهم العرب الصورة التي ستبقى عليها في بدو هؤلاء
الموالى ، ولن يدخلوا عليها غير قليل من التعديل ، وإن أدخلوا في الأخبار نفسها
كثيرا مما جلبوه من بلادهم وثقافتهم .

وإذن نستطيع أن نصرح ، ونحن على أهبة وضع القلم ، بأن الكتابة الفنية
العربية ، بجميع صورها من رسائل سياسية ، ودينية ، وإخوانية ، ومن كتابة تاريخية ،
عربية النشأة ، لم تأت عنهم عن فرس أو يونان أو هندود ، وإنما نشأت على يدهم
وفي بلادهم ، وبدافع من حاجتهم إليها ، ووحى مما خلقه الإسلام من تيارات
سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية تسيطر على الجماعة العربية . ولكنهما كادت
تسير قليلا حتى أمدتها الروافد من كل جانب ، روافد هندية وفارسية من الشرق ،
وروافد هلينية من الشمال والغرب ، والشرق أيضا ، وروافد أخرى ضئيلة الأثر .
وقد لا تظهر هذه الروافد في عصرنا هذا ، ولكن ستظهر وتؤتي ثمارها في العصور
القادمة .

المراجع

- ١ — أوليري ، بلاد العرب قبل الإسلام ، طبع ١٩٢٧ .
Oleary: Arabia before Muhammad.
- ٢ — الدكتور أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ١٩٢٨ .
- ٣ — البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق دى غويه .
- ٤ — ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .
- ٥ — الأستاذ خليل يحيى ناهى ، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، طبع ١٩٣٥ .
- ٦ — الجهمشيارى ، الوزراء والكتّاب ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .
- ٧ — السيد عبد الحى بن عبد الكبير الحسنى الكتّانى الإدريسي الفاسى ،
التراتب الإدارى والعالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت
على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة ، طبع رباط .
- ٨ — الدكتور زكى مبارك ، الفتر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ، طبع دار الكتب المصرية .
- ٩ — مرسية ، المجلة الإفريقية ، العددان ٣٣٠ ، ٣٣١ ، عام ١٩٢٧ .
Marcais: Revue Africaine, Nos 330, 331 (1er 2 me Trimestre, 1927)
- ١٠ — الدكتور طه حسين ، من حديث الشعر والفتر ، الطبعة الأولى .
- ١١ — الطبرى ، التاريخ ، طبع أوربا .

- ١٢ — ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبع أوروبا .
١٣ — الأزرقى ، أخبار مكة ، المطبعة المأجدية .
١٤ — ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، طبع الهند .
١٥ — الدكتور شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الفكر العربى ، عام ١٩٤٦ .
١٦ — ابن النديم ، الفهرست ، طبع أوروبا .
١٧ — ابن سعد ، الطبقات الكبير ، طبع أوروبا .
١٨ — هوروفتس ، المغازى الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ، طبع الحلبي .
١٩ — الحيد رآبادى ، مجموعة الوثائق السياسية في عهد النبوة ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٢٠ — اشبيرير : كتب محمد إلى القبائل العربية . Dr. Sperber: Die Schriben Muhammads an die Stämme Arabiens-Mitteilungen des Seminars für Sprachen.
٢١ — أنيس المقدسى ، تطور الأساليب الشعرية ، طبع بيروت .
٢٢ — القلقشندى ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبع دار الكتب المصرية .
٢٣ — أحمد صفوت ، جبهة رسائل العرب ، طبع الحلبي ١٩٣٧ .
٢٤ — ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ١٩٠٤ .
٢٥ — أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، طبع الخانجي .
٢٦ — رسالة الحسن البصري ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢١ أدب .
٢٧ — ياقوت ، معجم الأدباء ، تحقيق مرجليوث .
٢٨ — المديفوري ، الأخبار الطوال ، طبع ليدن .
٢٩ — ابن خلكان ، وفيات الأعيان .
٣٠ — محمد كرد علي ، أمراء النيان ، ١٩٣٧ .
٣١ — دائرة المعارف الإسلامية ، مواد «تاريخ» و«سيرة» ومواد أسماء المؤرخين .

٣٢ — عبد الحميد العبادي ، علم التاريخ تأليف هرنشو ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٣٣ — ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، طبع الهند .

٣٤ — وهب بن منبه ، كتاب التيجان ، طبع الهند .

٣٥ — كرنكو ، أقدم كتابين في الأدب الشعبي الإسلامي ، مجلة الثقافة الإسلامية ، ١٩٢٧ .

٣٦ — حاجي خليفة ، كشف الظنون ، طبع أوروبا .

٣٧ — الذهبي ، تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ، تحقيق فيشر .

٣٨ — البلاذري ، الأنساب ، تحقيق الورد .

٣٩ — سخاو ، القطعة البرلينية من مغازي موسى بن عقبة .

٤٠ — عبيد بن شريّة ، أخباره ، طبع الهند .

٤١ — ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .

٤٢ — سليمان بن طرخان ، السيرة الصحيحة ، تحقيق فون كريمر .

٤٣ — مرجليوث ، محاضرات عن التاريخ العربي .

٤٤ — الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، طبع الخانجي .

انتهى بحمده وتبارك وتعالى

فهرس الأشخاص

- الأزرق ٢٢٥، ١٧
 ابن إسحاق (انظر محمد آ)
 أسد بن موسى ٢٠٣
 إسرائيل ولفنسون ١٩٠، ١٨٠، ١٠
 الإسكندر المقدوني ١٢١
 إسماعيل بن إبراهيم ٢٢٥ ، ٢١٤
 أشير بر ٣٤
 ابن الأشعث (انظر عبدالرحمن بن محمد)
 الأشعث بن قيس ١٩٥
 الاصطخرى ١٢٦
 الأصفهاني أبو الفرج ٢٤، ٢٣، ٢١١، ٢١٥
 الأصمعي ٧٣
 الأعشى ٢٠٦
 أعشى بن وائل ١٨٥
 أكم بن صفي ٧٨، ٢٣
 ألويس شرجر ٢١٤
 امرئ القيس ٢٠٦، ١٨٥
 أمية بن أبي الصلت ١٨٥، ١٢٦
 أنس بن مالك ١٠١
 أنيس المقدسي ٣٤
 أولري ١٧، ١٦
 بابلون بن عبدشمس ٢٠٥
 بارتلمى ٣٥
 الباقلاني ٣١
 البخاري ٣٢
 البخترى ١٨٨
 بديل بن ورقاء ٨٩، ٨٨
 بربر بن كنعان ١٩٠
- آدم ٢٢٤، ٢١٧، ٢٠٧، ٢٠٥، ٢٠٤، ١٨٢
 آزر ١٨٨
 أبان بن سعيد ٣٠
 بان بن عثمان البجلي ١٩٤، ١٩٣
 أبان بن عثمان بن عفان ٢٣٤، ٢٣٣، ١٩٣
 ٢٣٨
 أبان العطار ١٩٦
 إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ٢١٧، ١٨٨
 إبراهيم بن سعد ٢٢٤
 إبرة بن الصباح ١٧٣
 أرويز ١٣٢، ٢٦
 أبليس ١٠٩
 أبنى بن كعب ٤٤، ٣٠، ٢٩
 ابن الأثير ٢٢٧، ١٧١، ٥٢، ٤٠، ١٧
 أحمد أمين ٣٢، ١٨، ١٦، ١٢، ١١
 أحمد صفوت ٥٤، ٤٩، ٤٢، ٣٧—٣٤، ٢٧
 ٧٩، ٧٨، ٧٦، ٧٥، ٧٠، ٦٤، ٥٩، ٥٨
 ٩٤، ٩٣، ٩٠، ٨٩، ٨٦، ٨٤، ٨٢، ٨١
 ١١١، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٤، ١٠٢—٩٩
 ١٣٣، ١٢٧، ١٢٤، ١٢١، ١١٣
 ١٥٨، ١٥٧، ١٥٤، ١٥٣، ١٤٩، ١٤٧
 ١٦٥، ١٦٤، ١٦٣، ١٦١
 الأخنف بن قيس ٧٢
 الأخنس بن شهاب التغلبي ٢٤، ١٢
 إدريس (عليه السلام) ١٨٢
 أبو إدريس بن سنان (انظر عبد المنعم)
 ادوارد سخاو ٢١٤
 أرسطو ١٦٥، ١٢٢، ١٢١

البرقي ١٨١، ١٨٢، ١٩٠
البرهان الحلبي ٤٣
بشر بن مروان ٩٦، ٩٠
أبو بكر بن حزم ٩٩
أبو بكر الصديق ٣٠، ٤٨، ٤٩، ٥٢، ٥٤،
١٠١، ١١٧، ١٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٧٦
البكري ١٠
البكائي ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٢٧
البلاذري ١٩، ٢٣، ١٩٦، ٢١٥، ٢٢١،
٢٢٢، ٢٣٠
بلال ٢٠١
بلقيس ١٨٧، ٢٠٧
اليروني ١٧٠، ١٧١
بيكر ٢٠٠، ٢١٩
بيوري ٤
تاريخ ١٨٨
تبع أسعد بن ملكيكر ١٧٣، ١٨٤، ١٩٢
ترفليان ٤
الثعالي ١٦٦
جابر بن سعيد بن العاص ٣٠
الجاحظ ٢٢، ١٤٦
جب ١٧٠
جبير بن حية ٦٧
أبو جيرة بن الضحاك ٦٥، ٦٦، ٥٣
جرير بن يزيد ٢٢٢
جعفر بن برقان ١٠٣
جعفر بن أبي طالب ٢٣٠
جعفر بن محمد ١٩٤
أبنا الجلندي ٤٢٠، ٣٥

الجمشيارى ٢٣، ٢٩، ٣٠، ٣٨، ٤٣، ٤٥
٤٨، ٥٠، ٥٣، ٦٢، ٦٩، ١٢٦، ١٣٢، ١٦٤
جهم بن الصلت ٤٥
أبو حاتم السجستاني ١٩١
حاجي خليفة ١٩٥، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٠
الحارث بن حلزة ٢٤، ٢٢
الحارث بن أبي شمر الغساني ١٧٩، ١٨٠
أبو حبيصة مولى الزبير بن العوام ٢١٦
الحجاج ٦٤، ٦٨، ٧١، ٧٣، ٧٥، ١٥٤
ابن حجر ١٩٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٧
ابن أبي الحديد ٥٧
حذيفة بن اليمان ٢٩، ٤٤، ٤٥
حسان بن ثابت ١٨٥
حسن إبراهيم حسن ١٦، ٥٣، ٦٧
الحسن البصري ٩٢، ٩٨، ١٠٠
١٠٤، ١٠٧، ١١٣، ١١٤، ١١٨
الحسن بن عليل الغزي ٢٢١
الحسن بن علي بن أبي طالب ١١٢، ١١٦،
١١٨، ٢٢٢
الحسين بن علي بن أبي طالب ٦٢، ٨٦، ٢٢٢
ابن الحضرمي ١٩٧
الحصين بن نمير ٤٢
حطان بن عوف ٢٤
أبو الحكم (انظر عوانة)
حكيم بن حزام ٨٨، ٨٩
حمير ٢٠٨
حنظلة بن الربيع ٢٣، ٣٠، ٤٥، ٤٨، ٤٩
الحيدرابادي ٣٣ — ٣٩، ٤٢، ٤٩، ٥٢
خالد بن سعيد بن العاص ٤٤

- خالد بن عبد الله القسري ٩٣ ، ١٢١ ،
 ١٢٢ ، ١٢٤ ، ٢١١
 خالد بن الوليد ٤٩ ، ٥٠ ، ٨٨
 خالد بن يزيد بن معاوية ١٧٧
 خديجة بنت خويلد ١٩٥
 أبو خزيمه بن ثابت ٣٠
 ابن خلدون ١٩ ، ٢٦ ، ١٥٥
 ابن خلكان ١٢٦ ، ١٦٥ ، ١٧١
 خليل يحيى ناهي ٢٠ ، ٢٦
 الخوارزمي ١٧٠
 داود (عليه الصلاة والسلام) ١٠٩
 أبو الدرداء ٨١ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
 ١٠١ ، ١٠٢
 دغفل النسابة ١٧٨ ، ١٧٩
 دنلوب ٣٥
 الدينوري ٦٤ ، ٧٣ ، ١٧٣
 الذهبي ٢١٢
 الرسول ١١ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ،
 ٢٨ - ٤٩ ، ٥١ - ٥٣ ، ٥٩ - ٦١ ،
 ٦٥ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٤٧ - ١٤٩ ، ١٧٧ ،
 ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٩٢ - ١٩٥ ،
 ١٩٧ - ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ - ٢١٥ ،
 ٢١٧ - ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ - ٢٢٧ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ - ٢٣٤ ، ٢٧٠ ،
 رشدين ٦٧
 روح بن زنباع ٦٨
 ابن الزبير ٢٢٩
 الزبير بن العوام ٢٩ ، ٤٥ ، ٥٦ - ٥٨ ،
 ١٩٨ ، ٢١٦
 زرعة بن ذى زنن ١٩٦
 الزرقاني ٢٩
 أبو الزعيرة ٦٧ ، ٦٨
 الزمخشري ٣١
 الزهري محمد بن مسلم بن شهاب ٢٢٧ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨
 زهير بن أبي سلمى ١٥٩
 زياد بن أبيه ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٦٦ ،
 ٦٧ ، ١٧٨
 زياد بن النضر ١٥٢
 زيد بن ثابت ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٤٨
 زيد بن حارثة ٢٣٠
 سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ١٠٢ ، ١٠٣ ،
 سالم مولى أبي حذيفة ٣٠
 سالم مولى هشام ١ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ١٢٠ ،
 ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢٣٩
 سام ١٨٤
 سترابو ١٦
 السخاوي محمد بن عبد الرحمن ٢١٢
 سرجون الأشوري ١٥
 سرجون بن منصور الرومي ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥

شمر يرعش ١٨٩
شمس الدين محمد (انظر السخاوى)
شوفان ٢٠٣
شوقى ضيف ١٢٢، ٦٧، ٢٣
صحار العبدى ١٧٧
الصولى ١٣٢، ١٩
الضحاك بن قيس الشيبانى ١٣٣
ضمضم بن عمرو ٢٠
ظاهر بن الحسين ١٥٥، ١٥٦
طاووس ١٠٥
الطبرى ١٢١، ٨٨، ٧٤، ٧٢، ٥٦، ٣١، ٢٠
١٢٢، ١٧١، ١٧٢، ١٩٣ — ١٩٦
٢١٠، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٥ — ٢١٧
٢١٩ — ٢٢٢، ٢٢٤ — ٢٣٠، ٢٢٨
طرفة بن العبد ٢٣
طسم بن لاوذ بن إرم ١٨٤، ١٨٢
أبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني ١٨٨
طلحة بن عبيد الله ٥٦، ٢٩ — ٥٨، ٢١٦
طه حسين ١٦٣، ٤٥، ٣١
طهفة النهدي ٤٠
ابن طيفور ١٣٣
عائشة ٥٦ — ٢٣٥، ٢١٣، ٥٨
عابر ١٨٨
عاد ٢٢٦
أبو العاص بن وائل ٢٩
عاصم بن عمر بن قتادة ٢١٠، ٢٢٧، ٢١١
عامر بن جرمم الأنصارى ١٨٩
عامر بن فهيرة ٤٥، ٢٩

سعاد (فى شعر كعب) ١٩٤
ابن سعد (انظر محمدا)
سعد بن أبي وقاص ٢٩، ٥٢، ١٤٩
سعيد بن العاص ٥٤
سعيد بن المسيب ٢٣٥
أبو سعيد مولى أبي أسيد الأنصارى ٢٢٠
أبوسفين بن حرب ٢ — ١٩٦، ١٩٨
ابن سلام ٢٢٩
سلمان الفارسي ٨١، ٨٢، ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٤
١٠٢، ١٠٤
سلمة بن الفضل ٢٢٧
سليمان الحكيم ٢٠٧، ٣٨
سليمان بن سعد الحنفي ٦٧
سليمان بن صرد ٧١
سليمان بن طرخان أبو العتمر ٢١٦ — ٢٢٠
سليمان بن يسار ٢٣٥
سهيل بن حسان ١٢٤
السيوطى ٣٠
الشافعى ٢٣٥
الشبرايملى ٤٣
ذو شداد (انظر الهمال بن عاد)
شداد بن عاد ٢٠٩
شرحبيل بن حسنة ٤٥، ٣٣
شرحبيل بن سعد ٢١٥
شرحبيل بن السمط الكندي ٥٧
شرحبيل بن هاني ١٥٢
الشرىف الرضى ٥٧
الشعبى ٨٩، ٢٢٢

عبد الله بن سالم ١٢٤
عبد الله بن سعد بن أبي سرح ٣٠
عبد الله بن طاهر بن الحسين ١٥٥
عبد الله بن عامر بن كرز ٥٣
عبد الله بن عباس ١١٨، ١١٦، ١١٣، ٥٥، ٥٣
٢٢٦، ٢١٥، ١٨٧، ١٨٠، ١٧٨
عبد الله بن عمر بن الخطاب ٨٣، ٨٠
عبد الله بن عمرو بن العاص ٣٢
عبد الله بن أبي فروة ٦٧
عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري ٥
عبد الله بن مروان بن محمد ١٣٣
عبد الله بن مسعود ٢٢٢، ٣٠
عبد الله بن المعتز ٢٢١
عبد الملك بن مروان ٦٤-٨٨، ٧٠
١٨٢، ١٥٤، ١١٣، ١٠١، ٨٦، ٨٩
١٩٤-٢١٦، ١٩٦
عبد مناف ٢١
عبد النعم بن سنان ٢٠٢، ٢٠٣
عبيد بن الأبرص ١٨٥
عبيد بن شربة ١٨١، ١٧٨-١٨١، ١٩٢-٢٠٤
٢٣٧، ٢٣٤، ٢٣٢، ٢٢٥، ٢٠٩، ٢٠٦
أبو عبيدة ٢٣٣
عبيد الله ٢٣٥
عبيد الله بن أوس ٦٨، ٦٦
عبيد الله بن زياد ٧٤، ٧١، ٦٢
عتبة بن أبي سفيان ٨٤
عتبة بن غزوان ١٤٩
عثمان بن عفان ٥٤، ٤٨، ٢٩-٥٤، ٥٦-٥٨
٢١٦، ٢١٠، ١٥٢، ٧١، ٦٦، ٦٠
٢٣٠، ٢٢٠، ٢١٧

أبو عباد الهمداني ٢٠٤
العبادي ٤
العباس بن عباد بن فضالة الأنصاري ٢١١
العباس بن عبد المطلب ٢١٨، ١٩٤، ٢٢٤
العباس بن مرداس ١٨٥
ابن عبد البر ٤٣، ٢٩، ٢٦
عبد الحميد بن يحيى الكاتب ١، ٢، ٦٩
١٢٦، ١٢٠، ٩٦، ٩٣، ٨٦، ٧٧، ٧٤
١٤٥، ١٤٢، ١٣٧، ١٣٥، ١٣١، ١٢٨
١٦٦، ١٦٣، ١٦١، ١٥٢، ١٥١، ١٤٧
٢٤١، ٢٤٠، ١٦٧
عبد الحى الكتاني ٢٦، ٣٠، ٣٣، ٣٦
٨٦، ٤٦-٤٣
ابن عبد ربه ١٦٦، ٦٤، ٥٣، ٤٤، ٢٦
عبد الرحمن بن أبي ٥٣
عبد الرحمن بن الأشعث ٢٢٢، ٧٣، ٦٣
عبد الرحمن بن نعيم ١٥٥
عبد شمس ٢٠٥
عبد شمس بن مناف ٢١، ١٦
عبد العزيز بن مروان ٩٠
عبد الله ١٨٩
عبد الله بن أبي بن سلول ٢٣٥
عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث ٤٤-٤٦،
٥١، ٤٨
عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم ٢٢٧، ٣٦
عبد الله بن أبي بكرة ٦٨، ٦٧
عبد الله بن جحش ١٩٧، ١٩٦، ٣٣
عبد الله بن خلف الخزاعي ٥٣
عبد الله بن رواحة ٢٣٠
عبد الله بن الزبير ٢٢٢، ١٩٥

عمرو بن هند ٢٣
 عمليق ١٧٦
 ابن العميد ١٦٦، ١
 عنبرة ١٨٨
 عوانة بن الحسيم أبو الحسيم ٢٢١-٢٢٣،
 ٢٣٨
 عون بن عبد الله ١٠٥
 عياض الثمالي ٥٨
 عيسى ابن مريم ٢٢٦، ١٩٢، ٤٠
 غيلان بن مسلم الدمشقي ١٠٦، ١٠٠
 فاطمة الزهراء ٢٠١، ١٩٠، ٨٦
 أبو الفرج (انظر الأصفهاني)
 الفردوسي ١٨٨
 فلاشر ٣٥
 فون كرمير ٢١٨-٢١٦
 الفيروزابادي ١٩
 فيك ٢٢٧، ٢٢٤
 قايل ٢٠٦
 القالي ٢٢٠، ٢٠١، ١٦
 قبيصة بن ذؤيب ٦٨، ٦٤
 ابن قتبية ٢١٠، ١٩٤، ١٣٢، ٦٤، ٢٦، ٢٤
 قتبية بن مسلم الباهلي ١٨٩
 قرة بن عبد الرحمن ٢١١
 ابن القرية ٢٢٢، ٧٥، ٧٣، ٦٤
 القرطبي ٤٣
 ذو القرنين ٢٠٨
 القلقشندي ٨٨، ٦٥، ٥٢، ٥١، ٤٩-٤٧
 ١٣٣، ١٣٢
 قبصر ٢١

العجلي ٥٠
 عدى بن زيد ٢٦
 عروة بن الزبير ١٩٤، ١٧٧، ٨٨، ٣٦-
 ٢٣٨، ٢٣٥-٢٣٣، ٢١٣، ١٩٩، ١٩٦
 ابن عساكر ٤٣
 عطاء الخراساني ١٠٩
 عقاب بن شبة ٩٦، ٩٣
 ابن أبي العقب ٧٣
 العلاء بن الحضرمي ٣٠
 العلاء بن عتبة ٤٤
 علقمة بن وقاص الليثي ٢٣٥، ٢١٦
 علي بن أبي طالب ٤٦، ٤٥، ٣٣، ٣٠، ٢٩
 ٥٥-٦٠، ٦٦، ٧٦، ١٥٢، ١٥٣،
 ١٥٥، ٢٢٢، ١٨٨، ١٥٥
 عمر بن إبراهيم ١٧٣
 عمر بن الخطاب ٦١، ٥٧، ٥٤-٤٩، ٤٧
 ٩٧، ٩٢، ٨٦، ٨٤، ٨٣، ٨٠، ٦٦، ٦٥
 ١٥٥، ١٥٣، ١٥٢، ١٤٩، ١١٦، ٩٨
 ٢٢٠، ١٩٤، ١٧٧، ١٧٠
 عمر بن عبد العزيز ١٠٧-٩٧، ٩٢، ٦٩
 ١٩٣، ١٧٧، ١٥٥، ١١٩، ١١٨، ١١٦
 عمر بن عبد العزيز الوراق ٩٩
 عمر بن عبد الله بن عتبة ٩٠
 عمر بن هبيرة ١٠٥
 عمرو بن حزم الأنصاري ١٤٧، ٤٠
 عمرو بن سعيد بن العاص ١٢٢
 عمرو بن العاص ١٨٢، ١٨١، ٦٠، ٥٨، ٥٧
 عمرو بن عامر ٢٠٤
 عمرو بن نافع ٧٤

محمد بن عبد الرحمن (انظر السخاوي)
 محمد بن عبد الله بن الحسن ٢٢٢، ٢٢١
 محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي ١٨٨
 محمد بن علي (انظر محمد بن الحنفية)
 محمد كرد علي ١٦١
 المختار ٧٢٠٧١
 أبو مخنف ٢٣٨، ٢٠٤
 المرقش الأكبر ٢٦، ٢٤
 مروان بن الحكم ٥٥
 مروان بن محمد ١٣٣، ١٢٧، ١٢٦
 ابن مسعود (انظر عبد الله)
 المسعودي ١٧٦، ١٦٦، ١٢٦، ٧٦
 أبو مسلم الخراساني ١٦١
 مسلمة بن عبد الملك ١٩٣
 مصعب بن الزبير ٦٧، ٦٣
 المطلب بن عبد مناف ٢١، ١٦
 معاذ بن جبل ٩٧، ٧٩
 معاوية بن أبي سفيان ٤٤، ٤٤، ٤٦،
 ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ٦٦، ٦٨،
 ٨٦، ٨٩، ١٧١، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩،
 ١٨١، ١٨٣، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٤، ٢٢١
 ٢٢٢
 معاوية بن عمار ١٩٤
 معاوية بن مالك ٢٤
 معتمر بن سليمان النيمي ٢١٩
 معيقب بن أبي فاطمة ٤٥، ٢٩
 مغيث بن بشير ٢١٩
 المغيرة بن شعبة ٥٣، ٤٦، ٤٤
 المغيرة بن عبد الرحمن ١٩٣
 المقوقس ٣٥

قينان ٢٠٧
 السكتاني (انظر عبد الحى)
 السكرماني ١٧٣
 كرنكو ٢٠٨، ١٩١، ١٩٠، ١٨١
 كسرى ٢١
 كشتاسب ١٣١
 كعب الأخبار ١٧٥
 كعب بن زهير ١٩٤
 ابن كيسان مولى بني المغيرة ١٩٧
 لاوذ بن رام ١٨٤
 ليبد بن ربيعة ٢٠٦، ٢٤
 لقمان بن عاد ٢٠٩، ١٨٢، ١٠٩، ١٠٦
 لويس شيخو ١٨
 الليث ٢١٢
 مالالي ٢٠٨
 مالك بن أنس ٢١٤
 المبرد ٧٤
 المتلمس ٢٣
 المثني بن حارثة ٤٩
 مجنون بن عامر ٧٣
 محمد (انظر الرسول)
 محمد بن إسحاق ١٩٤، ١٩٠، ١٨٨، ٣٦
 ٢٣٤، ٢٣٠، ٢٢٣، ٢١٣، ٢١٠، ٢٠٤
 ٢٤١، ٢٣٨، ٢٣٥
 محمد بن الحنفية ٨٦
 و محمد بن خير الوراق ١٠٧
 محمد بن السائب الكلبي ٢٣٨، ٢٣٤، ٢٠٤
 محمد بن سعد ١٨٠، ١٧٧، ١٠٨، ٣٢
 ٢١٤، ٢١٢، ٢١٠، ٢٠٢، ١٩٤، ١٩٣
 ٢٢٤، ٢١٥

هايل ٢٠٦،٢٠٥
 هاشم بن عبد مناف ٢١،١٦
 هرقل ٤٠
 الهرمزان القارسي ١٧٠
 ابن هشام ١٨١،٣٧،٣٣،٢٦،٢٢،٢٠
 ٢٠٤،٢٠٣،١٩٥،١٩٠،١٨٩،١٨٢
 ٢٣٠،١٢٣،٢١٣،٢١٢،٢١٠
 هشام بن عبد الملك ١٢٣،١٢١،٦٨،٦٧
 ٢٣٩،٢٣٥،١٢٥،١٢٤
 هشام بن عروة ١٩٦،١٩٥،٨٨
 هشام بن الوليد الخزومي ٢١٣
 هل ١٠
 الهال بن عاد ذو شدد ٢١٠ — ٢٠٨
 ابن أبي هنيئة ١٩٤
 هود ١٨٨
 هودة بن علي ٤٢
 هوروقنس ٢١٥،٢٠٢،٢٠٠،١٩٣،٣٦
 ٢٣٨،٢٢٧،٢٢٤،٢٢٣
 الهيثم بن عدي ٢٢١
 وائل بن حجر الحضرمي ٤٠
 واصل بن عطاء ١١٣
 واقد حليف بني عدي ١٩٧
 الواقدي ٢١٦،٢١٥،٢١٠،١٩٤
 ورقة بن نوفل ٢٦
 أبو الوفا نصر المهوريني ٤٣
 ولفنسون (انظر إسرائيل)
 الوليد بن عبد الملك ١٩٤،٧١،٦٩
 الوليد بن عقبة ٥٩،٥٨
 الوليد بن المغيرة ٣١

مكحول ١٨٩،٩٢
 ملكيكرب بن أسعد بن تبع ١٩١
 منجاب بن الحارث التميمي ٢٢١
 المنذر بن ساوى ٣٥
 المنصور ٢٢٤،٢٢٣
 المهدي ٢٢٣
 المهلب ٧٦،٧٥
 مهليل ٢٠٨
 موسى (عليه الصلاة والسلام) ١٩٢،٤١
 أبو موسى الأشعري ٥٤-٥٢
 موسى بن عقبة ٢٣٤،٢١٥،٢١٤
 الميداني ٢٣
 النابغة الذبياني ٢٠٦،١٨٥،١٨٠،١٧٩
 نافع بن الحارث ٥٣
 ابن نباتة المصري ٧٤
 النبي (انظر الرسول)
 النجاشي ٤٠،٣٩،٣٥
 ابن النديم ١٦٦،١٢٦،١٢١،١٢٠،١٩
 ٢٣٠،٢٢١،٢٠٢،١٨١،١٨٠
 نصر بن حجاج ٨٤،٨٣
 نصر بن مزاحم ٥٧
 النصر بن الحارث ١٧٤
 أبو نصر ٢٢٠
 أبو نعيم الأصبهاني ١٠٦-١٠٣،١٠١،٨١
 ٢١٣،٢١٢،٢٠٠،١٠٨
 نعيم بن مسعود الأشجعي ٢١٨،٣٤
 نوح (عليه الصلاة والسلام) ٢٠٧،٢٠٤،١٨٢
 نوفل بن عبد مناف ٢١،١٦
 النوري ١٣٢،١٩

يزيد بن معاوية ٢١٣، ٨٧، ٧٠، ٦٣، ٦٢

يزيد بن المهلب ٧٤، ٦٨، ٦٧

يعرب ١٨٤

يعقوب ١٧٠

يعلى بن منية ٥٥

يوسف بن عمر ٦٧

يونس بن بكير ٢٢٧

يونس بن عبيد ١٠٣

يونس بن يزيد ٢١٣، ٢١٢

وهب بن منبه ١٧٥، ١١٨، ١١٠-١٠٨

٢٠٩، ٢٠٧-٢٠٢، ٢٠٠، ١٩٠-١٨٨

٢٣٤-٢٣٢، ٢٢٨، ٢٢٦، ٢١٩، ٢١٠

٢٣٧

ياقوت ٢٢٢، ٢٢١، ٢٠٣، ١١٨، ١٠

٢٣٠، ٢٢٨، ٢٢٤

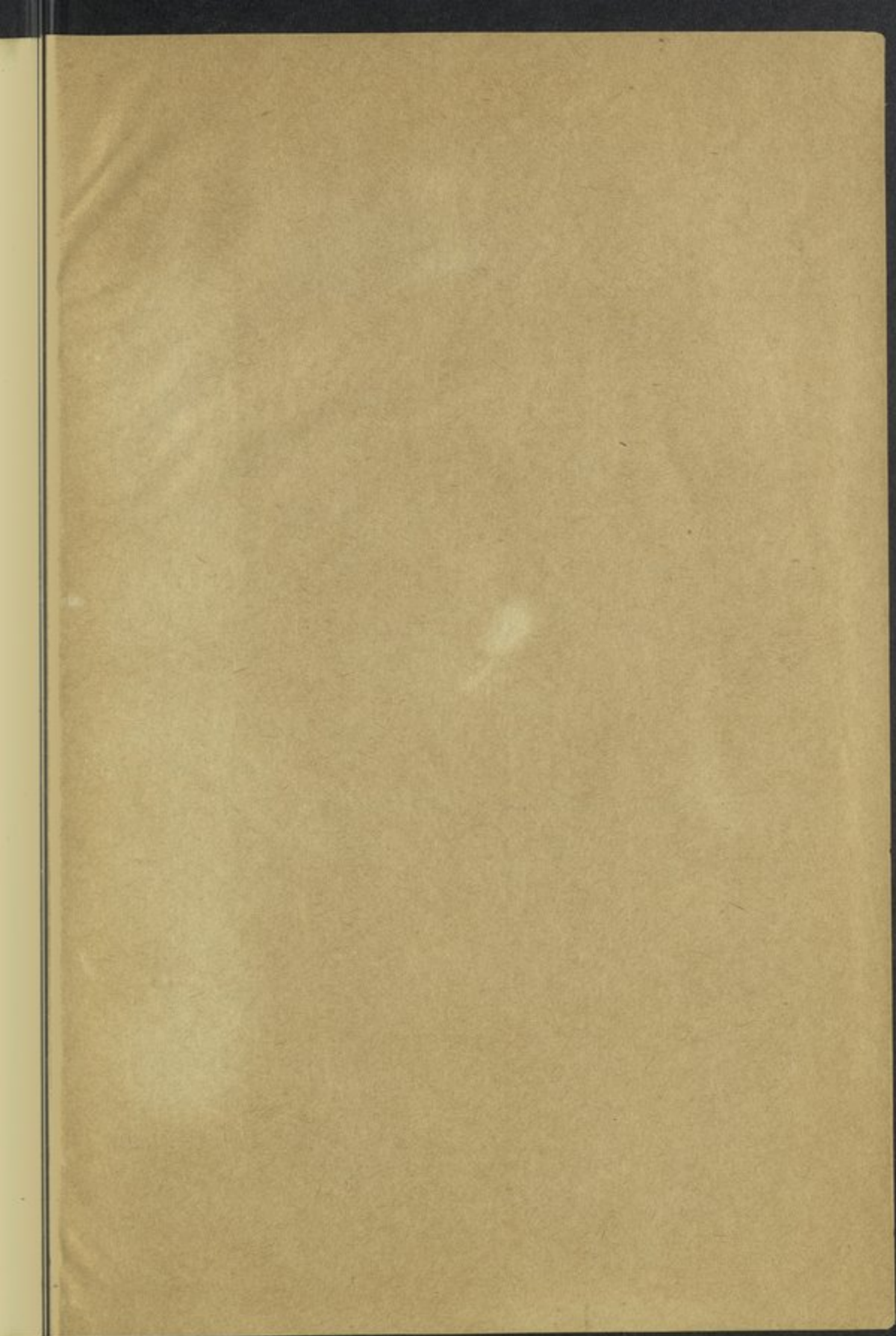
يحيى بن آدم ٢٢٢

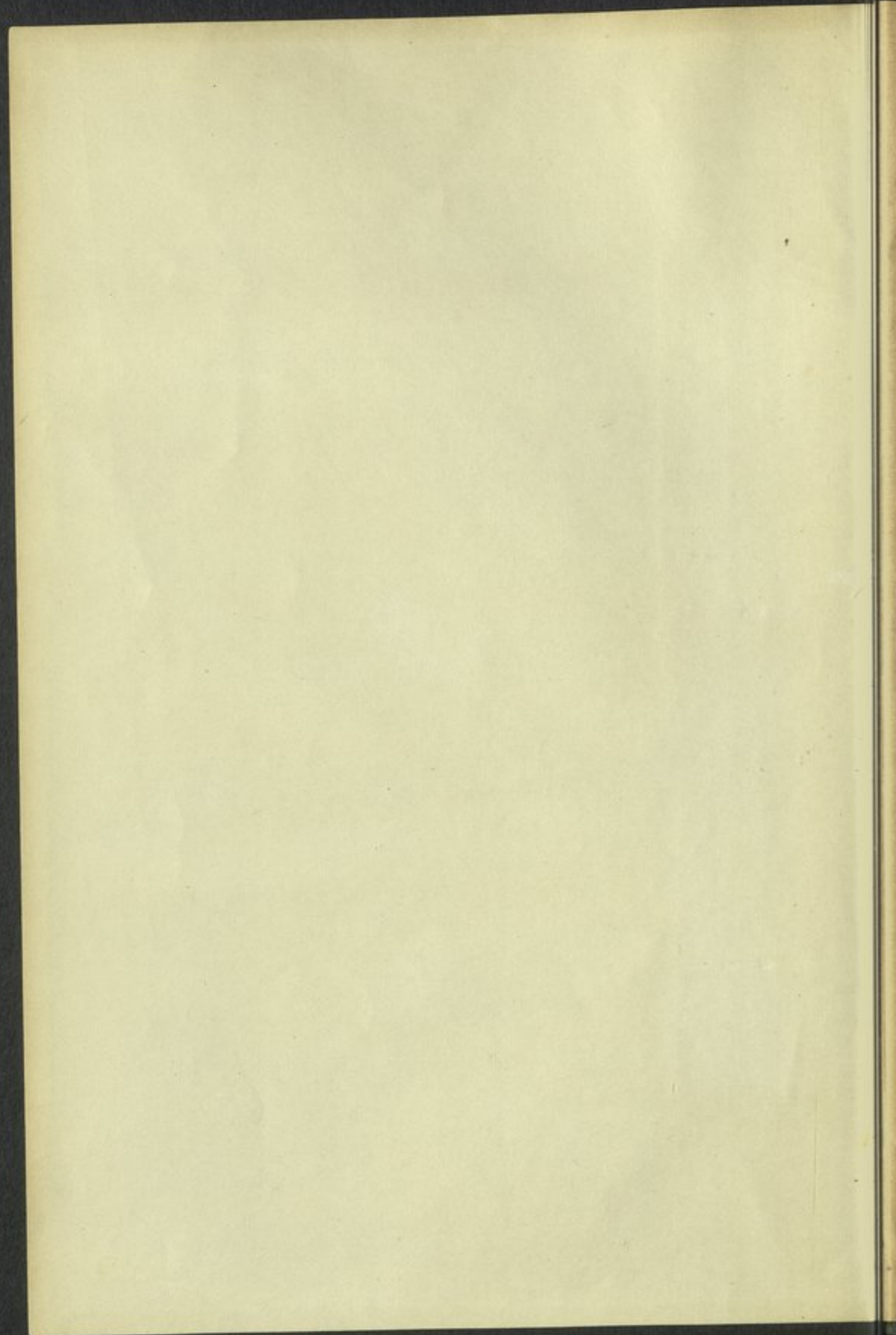
يحيى بن يعمر ٧٥، ٧٤، ٦٨، ٦٧

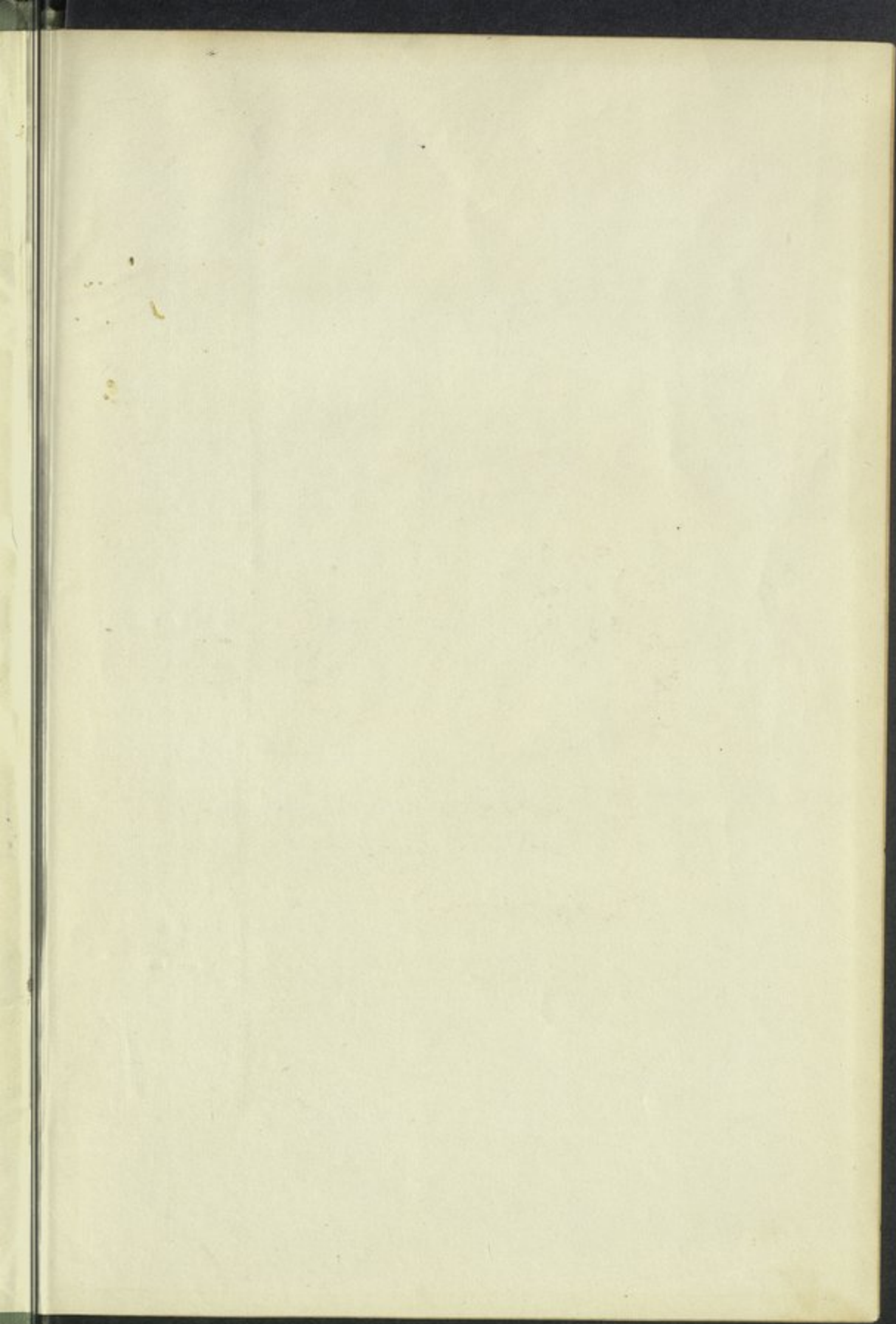
يزيد بن عبد الملك ١٠٥

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٤	السكبة	الكتابة	١٥٠	٨		
١٤	١٠	نامة	تامة	١٥٠	١٦	نمخ	نخ
١٩	٥	لأول	الأول	١٥١	٧	لقوا	لقوا
١٩	٦	اسريعا	سريعا	١٥٤	١٥	وحشة	وحشة
٢٢	٤	يام	أيام	١٥٨	١٠	خرى	أخرى
٣١	٥	البلاقون	البلاقاني	١٥٨	١٨	يرتعن	يرتعن
٣٤	٤	Sperlber	Sperber	١٧٨	١	الباب الثالث الفصل الثاني	
٤٣	١٠	قرر	يقرر	١٨٦	١٧	الصيغة	الصيغة
٤٤	٩	عبة	عتبة	١٩٨	٥	الحجاج	الحجاج
٤٩	٢١	كر	بكر	١٩٨	١٦	فطلقوا	فطلقوا
٥٠	١١	الجهشبارى	الجهشبارى	١٩٨	١٧	تركوه	تركوه
٧٩	١٦	وليزهيب	وليزهيب	٢٠١	٢٠	فأسلوها	فأسلوها
٩٣	١٩	الإطناب	الأطناب	٢١٤	١١	بمغازى	بمغازى
٩٤	٤	دُعائه	دُعائه	٢١٤	١٥	sachau chasau	chasau
٩٤	٥	صلاته	صلاته	٢١٩	٧	وسلم	وسلم
٩٨	٧	للمرة	الثمرة	٢١٩	١٤	طائفان	طائفان
١٠٤	١	سذه	هذه				
١٠٦	٤	صورة	سورة				
١٠٧	٥	رأس	رأس				
١١٩	١	عما	عمر				
١٢١	١	الإسكندر	الإسكندر				
١٣٥	٢١	غفتك	غفتك				
١٤١	٩	الطخة	لطخة				







808:N

نصار، حسين

نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031002



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

